

دكتور إبراهيم أحمد العدوي

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الأمويون والبنيرنطيون البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

تجتاز الدول الإسلامية اليوم مرحلة هامة من مراحل اليقظة السياسية والاجتماعية ، والعمل على نيل مكانة لاثقة بها بين مجموعة أمم العالم . وتتطلب هذه المرحلة دراسة دقيقة مستفيضة لقومات الدول الإسلامية ، وفهم التطورات التي مرت بها فهماً علمياً شاملاً ، حتى يستطيع أولو الأمر في العالم الإسلامي السير على هدى هذه الدراسات في توجيه بلادهم نحو ما يحق لها العزة والسؤدد . فالتنهضات التي لاتدعمها الدراسات العلمية تتعرض للمعثر والأخطاء التي قد تؤدي بها أو تحرمها من أن تؤتي أكلها .

ويعتبر عصر الدولة الأموية الحقبة الجديرة بالبحث والدراسة ، إذ تدين معظم الدول الإسلامية اليوم في نشأتها ومايسودها من مظاهر حضارية إلى تلك الفترة المبكرة ، وما حفلت به من أعمال . فقد أخذ الإسلام ينتشر إذ ذاك بين البلاد التي دخلت حظيرة الدولة الأموية ، ولاسيما بعد أن أدرك سكانها أن هذا الدين نظام اجتماعي كذلك ، حافل بالقواعد والأنظمة التي تضمن لهم عيشة راضية في ظلها . ثم توج الأمويون هذه الوحدة الدينية بفرس بذور الوحدة اللغوية والثقافية التي ما زال رباطها يصل بين الشعوب الإسلامية حتى الوقت الحاضر . ويهدف هذا الكتاب إلى معالجة الدور الذي قام به بنو أمية في توجيه سياسة الدولة الإسلامية في الفترة المبكرة من تاريخها السياسي ، وبيان ما لأعمالهم

من أثر في تدعيم صرح الإسلام وتقويته حتى شمع وعلا . وكان التوفيق حليف
بني أمية في خطواتهم لإعزاز دولة الإسلام لأنهم جهدوا على جعل البحر الأبيض
المتوسط بحيرة إسلامية منذ تقلدوا مركز الصدارة في هذه الدولة . إذ أدرك
الأمويون أن هذا البحر قلب العالم النابض ، وعصب الحياة لأية قوة تبغى البقاء
وارتقاء مدارج الزعامة العالمية . وهذه الحقيقة حبر الزاوية في صرح كل دولة
كبرى عرفها العالم حتى الوقت الحاضر .

وقد تناولت في الفصل الأول خبرة الأمويين زمن الجاهلية بالبحر الأبيض
المتوسط لاتصالهم بإقليم الشام ، الذي ارتادته قوافلهم مراراً وتكراراً في رحلات
الصيف التجارية ؛ ووضع الأمويون هذه الخبرة في خدمة الجيوش الإسلامية
عند قيام الفتوحات على عهد الخليفةين أبي بكر وعمر . وأدى اشتراك الأمويين
في فتوح الشام إلى تفصيل أحدهم وهو معاوية بن أبي سفيان واليايلية . وهنا
تطلع الأمويون إلى السيطرة على مقاليد الأمور في الدولة الإسلامية الناشئة ،
وتم لهم تحقيق أمنيتهم بفضل اعتمادهم على أهل الشام ومراقبته .

وبدأت منذ ولاية معاوية بن أبي سفيان على الشام سياسة الأمويين إزاء
البحر الأبيض المتوسط والاهتمام به لخدمة مصالح دولة الإسلام . إذ عرف معاوية
أن البيزنطيين أعداء المسلمين يعمدون في دأب على استرداد ما استولوا عليه من
شواطئ هذا البحر . فعاجلت في الفصل الثاني جهود معاوية لإنشاء بحرية
إسلامية ساعدته في الاستيلاء على الجزر البيزنطية التي تهدد أرض المسلمين ،
والإطاحة بقوة البيزنطيين البحرية في معركة ذات الصواري التي انقلب المسلمون
بعدها إلى سياسة التوسع البحري .

وكانت آية هذا التطور حملات المسلمين على القسطنطينية عاصمة الدولة
البيزنطية ، إذ أدرك الأمويون أن تدعيم قوة المسلمين البحرية تتطلب كسر
شوكة هذه العاصمة التي تقف لمشاريعهم البحرية بالمرصاد . ومن ثم تناولت

في الفصل الثالث اضطلاع دمشق عاصمة الدولة الأموية بتنسيق القوى الإسلامية الحربية ، وإعداد ثلاث حملات كبرى حاصرت القسطنطينية ونالت من سلطتها وشلت حركتها مدة طويلة .

وقد تردد صدى الحملات الأموية على القسطنطينية في جبهة أخرى هامة مطلة على البحر الأبيض المتوسط . إذ تطاع الأمويون إلى بسط سلطانهم على شمال إفريقيا وطرد البيزنطيين منه ، ليبعدوا عن أرض الإسلام كل خطر يهددها من هذه الناحية . فتناولت في الفصل الرابع حملات الأمويين المتكررة على شمال إفريقيا ، وكيف استفادت من أحداث حصار القسطنطينية . وتجلت هذه الحقيقة السالفة عندما أسس عقبة بن نافع الفهري مدينة القيروان التي أصبحت مركز الحملات الإسلامية في قلب شمال إفريقيا البيزنطية ، إذ صادف تأسيس عقبة للقيروان انشغال الدولة البيزنطية بالدفاع عن عاصمتها ضد الحصار الأموي الثاني المعروف بحرب السنوات السبع . ومن ثم قضى عقبة ثلاث سنوات في تخطيط القيروان دون أن يخشى هجوماً من الحاميات البيزنطية في المدن الساحلية بشمال إفريقيا لافتقارها إلى الأمداد والعتاد .

وباستيلاء الأمويين على شمال إفريقيا خرج البيزنطيون من آخر معقل لهم في الشواطئ الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط ، الذي ورثوا عن أمهم الدولة الرومانية القديمة تسميته « بحر الروم » ، وغداً حرياً أن يدعى « بحر المسلمين » . على أن قيام الدولتين الأموية والبيزنطية جنباً إلى جنب أدى إلى ظهور تجاوب حضارى بينهما . ومن ثم عاجلت في الفصل الخامس مظاهر التجاوب الحضارى بينهما ، وبيان ما تمتع به الأمويون من عقلية سكان البحر الأبيض المتوسط ، وما اتسمت به من اتساع الأفق ومقدرة على الاستفادة من التراث الذي خلفه البيزنطيون في البلاد التي دخلت في حظيرة الدولة الإسلامية .

واستطاع الأمويون بذلك أن يضعوا أسس الحضارة الإسلامية التي

ازدهرت على شواطئ البحر الأبيض المتوسط وغدت راجلاً قوياً شداً أزر الشعوب الإسلامية المطلة عليه. وكان عمال بني أمية في الدول الإسلامية تناجح عالية للانغامي في الواجب والإخلاص للسلطة المركزية وتنفيذ ما يجهد إليهم به على أحسن ما يرتجى . ولذا استطاعت الدولة الأموية أن تشمر بالترباط والتضامن بين أجزائها ، وسارت فيها النهضة العلمية والمظاهر الحضارية الإسلامية سيراً موحداً مضطرباً .

وأدى اهتمام الأمويين بالبحر الأبيض المتوسط وتقوية بلادهم المطلة عليه إلى ترك القسم الشرقي من دولتهم ملجأ للعناصر المعادية لهم . فاضطربت العراق وفارس بالحركات المناهضة للبيت الأموي ، واستطاعت أن تطيح به في النهاية عن عرش الخلافة الإسلامية . وكان لذلك الانقلاب نتائج بعيدة المدى في تطور حياة الدولة الإسلامية وتاريخها . إذ ارتبطت أحداث الدولة الإسلامية بما نبع في آسيا من قوى وحركات ، وغدا البحر الأبيض المتوسط لا يلقى اهتماماً إلا من الدويلات الإسلامية التي جفحت إلى الانفصال عن السلطة المركزية ببغداد ، أو استقلت بشؤونها عنها تمام الاستقلال .

وقد ظل التراث الأموي رغم هذه التطورات ماثلاً أمام أولى الأمر في الدولة الإسلامية على مر العصور . فكانت جهود الأمويين في تحقيق التعاون السياسي بين قوات المسلمين ، وتدعيم هذا التعاون بغرس بذور اللغة العربية وتهيئة الجو لانتشارها ، نماذج حية في العالم الإسلامي يعمل قادته على محاكاتها والسير بها إلى الأمام . وإن الدراسات التفصيلية للعصر الأموي كفييلة أن تهيب للدول الإسلامية اليوم خير القواعد التي تقيم عليها سياستها ونهضتها ، وتشيد عليها صرح علاقاتها الثقافية وما تبغيه من تضامن جماعي . وبذلك تستطيع الدول الإسلامية أن تعيد سالف مجدها وعظمتها على البحر الأبيض المتوسط الذي يعد حتى الوقت الحاضر محور أحداث العالم .

ابراهيم أحمد العمري

القاهرة في { ١٥ رجب سنة ١٣٧٢ هـ
٣٠ مارس سنة ١٩٥٣ م

بنو أمية للأبناء ما فتحوا

والإمامية ما سادوا وما دانوا

كانوا ملوك سرير الشرق تحتمهم

فهل سألت سرير الغرب ما كانوا

عالمين بالشمس في أطراف دولتها

في كل ناحية ملك وسلطان

أحمد شوقي

أمير الشعراء

obeikandi.com

واضحة للرد على حركات الفرس حين استطاعت مقدونيا أن تلم شمل الأفريق وتعيء قواتهم . فانبعث الغرب تحت لواء الإسكندر المقدوني (٣٣٦-٣٣٣ ق.م) الذي جاب الكثير من بقاع الشرق حتى قوض أركان دولة الفرس وخلد اسمه في حواريات هذا الكفاح .

ومنذ غزوة الاسكندر لبلاد الشرق رقصة الصراع بين الشرق والغرب تمثل فصولا طويلة في تاريخ القسم الشرقى من حوض البحر الأبيض المتوسط ، حتى أن كر العصور وسر الأزمان لم يخفف من حدة هذا النضال الذى عرك أوصال الطرفين . ولكن إذا تركت جانبا الفترات التى اندفعت فيها عجلة الطرفين الحربية تطوى ما أتاحتها لها قوتها الذاتية من أراضى وبلاد الطرف الآخر ، ثم تكرر راجعة بعد أن تلفظ أنفاسها الأخيرة ، تظهر سمة خاصة اتصفت بها هذه الحروب ؛ وتلك الظاهرة هى اتجاه كل من الفريقين المتناضلين إلى حماية وتقوية حدود البلاد القريبة من تخومه . وتجلت هذه السمة بأوضح صورها حين ورثت الأمبراطورية البيزنطية تراث أعما الأمبراطورية الرومانية الكبرى فى الشام والأراضى المطلة على البحر الأبيض المتوسط الشرقى .

وكان للعوامل الجغرافية أثر كبير فى تحديد مجرى الحروب الفارسية وحمل الأمبراطورية البيزنطية على المحافظة على تقاليد الدولة الرومانية الكبرى فى الدفاع عن أراضيتها والسير على نهجها خطوة بخطوة فى تلك السبيل . ذلك أن سياسة الدولة البيزنطية اصطدمت فى هذه البقعة من أمبراطوريتها بالصحراء الشامية التى واجهت من قبل روما وأباطرتها . فهذه الصحراء أشبه بمثلث قاعدته على خط عرض ١٠° ورأسه تقرب من آسيا الصغرى حيث تتلاقى أراضى الشام الخصبة بمروج العراق . وأقصر جوانب هذا المثلث يطل على الغرب حيث يحده شبه جزيرة سيناء والبحر الميت ووادى الأردن وجبال لبنان ، وينتهى رأس المثلث عند حلب تقريبا . أما الجانب الثالث فيمتد من الجنوب الشرقى لحلب ويحده

نهر الفرات الذى يلتقى عند الطرف الجنوبي الشرقى لزاوية المثلث بنهر دجلة فى الجرى المعروف بشط العرب ^(١) .

وهذه الصحراء لم تسكن كما يتصور المرء امتداداً شامعاً من رمال لا يمكن اجتيازها وفلاة موحشة مقفرة ، إذ على النقيض من ذلك لعبت هذه الصحراء دوراً هاماً فى حلقة الاتصال التجارى بين الشرق والغرب ، فقد اشتملت على بعض مسالك تجارية اخترقت بقاعها ذات الحصى والتي انتشر فيها بين هنا وهناك بعض الحشائش والنباتات . وقد أدرك القدامى طبيعة هذه الصحراء وقسموها أقساماً تساعد على الأفادة من مسالكها . فأطلق بطليموس على قسم منها اسم بلاد العرب الصحرية (Arabia Petraea) نسبة إلى مدينة البتراء ^(٢) التى ازدهرت لمروء القوافل التجارية بها ، على حين سمي الجزء الأوسط والجنوبى الشرقى من الصحراء باسم بلاد العرب الصحراوية (Arabia deserta) ، أما الجزء الباقى من الصحراء الذى نال قسطاً كبيراً من التأثير الرومانى فسماه الشام (سوريا) ^(٣) .

وهذا التقسيم الجغرافى يفسر السياسة التى وجدت الامبراطورية البيزنطية نفسها ملزمة باتباعها فى تلك البقعة من أراضيها . ذلك أن قيام عدوتها دولة الفرس على الطرف الشرقى من هذه الصحراء فرض عليها لوناً جديداً من الدفاع وضعت الدولة الرومانية الكبرى أسسه ومعالله العامة . إذ كانت سياسة الرومان

(1) C. P. Grant, The Syrian desert, 1, 2 :

T. Mommsen, The provinces of the Roman Empire II, 19.

(٢) البتراء (Petra) كلمة يونانية معناها صخر ، يقابلها الرقيم فى المراجع العربية ، واسمها الحديث وادى موسى ، وكانت تقع على طريق القوافل العام من سبأ ببلاد اليمن إلى البحر الأبيض المتوسط .

(٣) Grant, op cit , 6, 10, 11 .

دأب عرب الشام على تقسيم هذه الصحراء ، التى أطلقوا عليها اسم بادية الشام ، إلى قسمين هما بادية الشام وبادية العراق . على أن هذا التقسيم كان عاماً ، ولم يكن له أثر ملحوظ فى حياة سكان هذه البادية عامة .

اتخاذ البحار والأراضي التي لا يمكن اجتيازها كالجبال مثلاً حدوداً طبيعية تقف عندها أطراف فتوحاتهم ، أما الحدود التي لا تتمتع بهذه الحصانة الطبيعية فدأبوا على حمايتها بمقدد أو أواصر الصداقة والتحالف مع الجيران المطلين عليها . ووقفت الصحراء الشامية بمعزل عن تطبيق السياسة الرومانية الخاصة بالحدود الطبيعية ، مما حمل روما على اتباع نمط خاص في هذه الصحراء جاء فذا وفريداً في تلك البقعة المطلة على عدوها اللدود ، إذ اتجهت روما إلى إقامة سلسلة من الحصون على طرف الصحراء المطلة على الفرات للحفاظ على الحدود ، مع الاستعانة أيضاً بالقبائل الضاربة في هذه الصحراء في أعمال الحراسة والدفاع^(١) .

ومنذ القرن الرابع الميلادي تولت الامبراطورية البيزنطية أيضاً تنظيم هذه البقعة من أراضيها التي تفصلها عن منافستها دولة الفرس ، وفضات اتباع سياسة روما الخاصة بعدم الاندفاع وراء مشاريع حربية لا طائل من ورائها فيما وراء الفرات . فدعمت سلسلة الحصون في الصحراء الشامية ، ثم نظمت ولايتها الشرقية بأن جعلت سوريا وفلسطين ولاية واحدة عرفت باسم الولاية الشرقية (Oriens)^(٢) .

وكانت هذه الحصون أشبه بمعسكرات تقيم بها فرق الجيش التي عهدت إليها مهمة حراسة الحدود والطرق التجارية التي تجتاز الصحراء . فكان في بصرى معسكر رئيسي يتبعه عدة مراكز أخرى لحاميات انتشرت في بعض مناطق ذات أهمية حربية أو تجارية . ومن أمثلة ذلك حصن نمارا (Namara) الذي تحكم في منطقة حوران لسيطرته على ينبوع الوحيد بهذه البقعة . وكان كل حصن من هذه الحصون الهامة عبارة عن بناء مستطيل الشكل على جانبيه الأبراج ، ويحيط به جدار سميك^(٣) .

(1) Garnt, op cit, 1 - 11 .

(2) J. B. Bury, History of later Roman Empire I, (1931), 27.

(3) Bury, op cit, 94 ;

Mommsen, op cit, 153: Cambridge mediaeval History II, 32, 33

واقترن بإقامة الحصون اعتماد الامبراطورية البيزنطية على الإمارات العربية التي قامت في صحراء الشام بالدفاع عن أراضيها ضد الفرس . وهذه السياسة تبين مدى ارتباط الحروب الفارسية بالهجرات العربية التي استقرت في بلاد الشام ، إذ رأت الدولة البيزنطية اتخاذ القبائل العربية المضاربة في صحراء الشام وكلاء وحواجز تنفذ سياستها في تقليم أظافر الخطر الفارسي . فاتجهت إلى اصطناعهم بالمال وإغداق أرفع الألقاب على رؤسائهم الذين كانوا خير وسيلة لتأدية مهمة الدفاع في هذه البيئة الصحراوية . ولكن المهم هنا هو بيان دور هذه الإمارات العربية في خدمة الدولة البيزنطية إبان حروبها مع فارس ، وأثر ذلك في مجريات الأحداث في بلاد الشام .

تعتبر سياسة البيزنطيين إزاء الإمارات العربية صمورة صادقة لما سارت عليه الإمبراطورية الرومانية الكبرى إزاء الإمارات المعاصرة لها ، وربما اتخذ البيزنطيون أعمال روما نموذجاً نهجوا على منواله . وأقدم هذه الإمارات مملكة الانباط التي اتخذها الرومان حاجزاً يقيهم شر دولة البارثيين الفارسية^(١) . واتسعت رقعة هذه الامارة في القرن الأول للمسيح حتى امتدت من عاصمتها البتراء إلى دمشق شمالاً وإلى مدائن صالح أو الحجر جنوباً وإلى الفرات شرقاً . ولكن الامبراطور الروماني تراجان قضى على نفوذ هذه الامارة سنة ١٠٥ م^(٢) . وكان ذلك جزءاً من السياسة الرومانية التي دانت بها الامبراطورية البيزنطية فيما بعد ، وهي تقليم أظافر هذه الامارات العربية والقضاء عليها إذا غدا استقلالها خطراً يهدد سلامة الامبراطورية .

(١) تسمى المنطقة الجنوبية من إيران موطن الفرس باسم « بارس » ، وحرف اليونان كلمة بارس إلى برسيس وأطلقوها على كل البلاد ، ودولة الفرس البارسية هي التي حاربت الإمبراطورية الرومانية الكبرى . ولكن تولت أسرة الساسانيين مقاليد الحكم في فارس سنة ٢٢٦ م ، وهي التي حاربت الإمبراطورية البيزنطية .

(٢) Hitti, History of Syria, 382 .

وتجلبت هذه السياسة الرومانية مرة أخرى مع إمارة تدمر التي بلغت أزهى عصورها بين سنتي ١٣٠ و ٢٧٠ م . فقد حالفت هذه الإمارة روما ، ونفذت سياستها ضد الفرس ، إذ نجح أذينة حاكم تدمر في طرد شاپور الأول الفارسي من الشام سنة ٢٦٥ م ، ومنحه الامبراطور الروماني لقب حاكم الشرق (Dux Orientis) اعترافاً بجهوده وخدماته . ولكن ما أن اعتزت هذه الإمارة بقوتها وسطوتها حتى خطبها الامبراطور أورليان ، وقضى على عاصمتها تدمر سنة ٢٧٣ م ^(١) . ومهد القضاء على تدمر إلى ظهور مملكة الغساسنة التي عاصرت حولياتها الإمبراطورية البيزنطية . إذ بينما أخذت روما تهدم سلطان الإمارات العربية الواحدة بعد الأخرى كانت قبيلة عربية أخرى تسير قدماً في التدعيم لنفسها على أنقاض البتراء وتدمر ، ونجحت في إقامة حكم لها في المنطقة الواقعة إلى الجنوب الشرق من دمشق ^(٢) . وحوالي نهاية القرن الخامس الميلادي دخل أفراد هذه القبيلة الذين عرفوا بالغساسنة في دائرة النفوذ البيزنطي ، واتخذتهم الإمبراطورية وكلاء لتنفيذ سياستها ضد الفرس .

وعلا شأن الغساسنة لاشتداد موجة الأطماع الفارسية في القرن السادس الميلادي . إذ فضلاً عن الحملات الفارسية التي هاجمت الشام وتوغلت كثيراً في غيره من الأراضي البيزنطية ، أقام الفرس إمارة عربية أخرى هي دولة اللخمييين في الحيرة لمناوبة البيزنطيين وعمالهم الغساسنة . فالدولة الفارسية نهجت على سياسة البيزنطيين في استخدام القبائل العربية المضاربة في المنطقة الخصبية الواقعة إلى غرب الفرات والأطراف الشرقية لصحراء الشام ، وجعلت منهم دولة أخذت إسمها من عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة بن لخم الزعيم الحقيقي لهذه القبائل التي لم شملها ^(٣) . وفي القرن السادس الميلادي وصلت دولة الغساسنة ومناستها دولة اللخمييين

(1) Hitti, op cit, 393 - 396 .

(2) Lammens, L' Arabie Occidentale, 310.

(3) Hitti, op cit, 402.

إلى أقصى نفوذها ، واشتباكنا في حروب صريعة لخدمة الإمبراطوريتين البيزنطية والفرسية . وأدرك البيزنطيون قيمة أعمال الغساسنة وجهودهم الحربية ، فأغدق الإمبراطور جستنيان على الحارث الثاني العسائي — الملقب بالأعرج (٥٢٩ — ٥٦٩ م) لقب فيلارخ ، ونصبه سيداً على كل قبائل عرب الشام ، لما بذله من جهود في حرب الفرس واللاخمييين ولما ناله من انتصارات رائعة . إذ قضى الحارث في معركة من أشهر المواقع التي نشبت بين الغساسنة واللاخمييين وتسمى « يوم حليلة » على المنذر الثالث (٥٠٥ — ٥٥٤ م) المعروف بابن ماء السماء ، وكان المنذر رمز عظمة اللاخمييين وشوكة أرققت البيزنطيين في بلاد الشام ^(١) .

وإذا كانت « أيام العرب » ^(٢) قد حفلت بالكثير من الوقائع التي جرت بين الغساسنة واللاخمييين ، فإن الإمبراطورية البيزنطية نظرت إلى الغساسنة وأعمالهم من ناحية ما يعود عليها من نفع خاص . إذ عندما بلغ مجد الغساسنة السماكين وظنوا أنهم قادرون على الشام وأهلها تنكرت لهم الإمبراطورية البيزنطية ، وبادرت بتطبيق سياسة أمها روما القديمة ، في كسر شوكة الغساسنة وإبقائهم على التبعية لها في الصورة التي تحددها لهم ^(٣) .

وإذا كانت هذه السياسة البيزنطية صورة مكررة انتهج قديم خضعت له الامارات العربية التي علا نجمها في الشام ، فإن أعمال الامبراطورية البيزنطية في ميدان الغساسنة خلقت نتائج جنى ثمارها العرب بعد أن لم الاسلام شملهم وبدأوا فتوحاتهم الباهرة في بلاد الشام . ذلك أن السياسة الرومانية التي ورثتها

(1) Hitti, op cit, 402 .

(٢) يقصد بأيام العرب الغزوات القبييلة التي قامت بين القبائل بسبب النزاع على أرض المراعى وعيون الماء . وكانت المعارك تبدأ أول الأمر بين أفراد قلائل نتيجة النزاع على الحدود ثم يتعمس الجميع في المعركة . ومن أشهر هذه المعارك حرب البسوس ، ويوم داحس ، وكذلك المعارك بين الغساسنة واللاخمييين .

(٣) فلذكة ، أمراء غسان ، ص ٣١ ، ٣٢ .

الامبراطورية البيزنطية في الاعتماد على العرب الضاربين في الصحراء الشامية للدفاع عن حدودها ضد الفرس وحركاتهم الحربية غرست بذوراً نمت وترعرعت في صالح القبائل العربية وإماراتها .

ولم تتبين الدولتان الرومانية والبيزنطية ما يحدله الاعتماد على العرب من أخطار رغم قضائهما على إماراتهم . إذ أن إقصاء الرومان والبيزنطيين لأبناء بلادهم وبني جلدتهم عن شئون الدفاع عن إقليم الشام ، وإلقاء الزمام في أيدي القبائل العربية مهد الطريق لعظمة أولئك العرب الذين لم تؤثر فيهم مطلقاً التيارات السياسية التي رفعتهم حيناً وحطت بهم حيناً آخر . فكانت تلك القبائل تستمد قوة وحيوية مضطردة دائمة من منبع دافق فياض ، هو الهجرات التي وصلت إليهم تبعاً من بلاد العرب . إذ فضلاً عن أن قيام العرب بمهمة الدفاع عن الحدود البيزنطية ضد الفرس جعلتهم القوة الفعالة الرئيسية في بلاد الشام ، جاء اهتمام البيزنطيين بالحروب الفارسية وتسكريس جهودهم لها عاملاً ترك الجبهة الجنوبية من إمبراطوريتهم بالشام المواجهة لبلاد العرب مفتوحة سهلة الاجتياز لدى القبائل العربية^(١) . فأخذت هذه القبائل تدخل أراضي الشام زرافات ووحدانا ممثلة بشائر عهد جديد قطف بنو أمية ثماره فيما بعد من مقر دولتهم بالشام .

القبائل العربية في الساسم البيزنطي :

يتضح من خريطة آسيا أن بلاد العرب تمتد شمالاً على شكل لسان طويل ضيق أشبه بإسفين بين فارس والامبراطورية البيزنطية . ويسمى هذا الامتداد بادية الشام ، وقد اقترن تاريخها بالأطباع السياسية التي جاشت بها نفوس الفرس والبيزنطيين ، لما كان لموقعها الجغرافي من أثر كبير في توجيه نشاط الفريقين الحربي وسيطرتها على منافذ البحر الأبيض المتوسط التجارية^(٢) . على أن الحقيقة

(1) Mommsen, op cit, 115, 119 .

(2) De Lacy O'leary, Arabia before Muhammed, 153.

الكبرى التى توجت مميزات هذا الموقع الجغرافى الفريد هى أن الصحراء الشامية جزء طبيعى من بلاد العرب خضع لما تبعته إليها تلك البلاد من مؤثرات بشرية ، وميدان تردد فيه ما اضطر به جوفها من حركات قبلية . فكانت أبرز هذه المظاهر والمؤثرات الهجرات البشرية التى جاءت بلاد الشام من الجزيرة العربية . إذ يرى بعض علماء الشامية أن بلاد العرب كانت تزدهم بالسكان ازدهاماً يزيد كثيراً عما تتحمله مواردها الاقتصادية ، مما حمل سكانها على الهجرة إلى الأراضى الخصبة التى تحيط ببلادهم شمالاً .

وهذه الحقيقة تفسر مدى ارتباط صحراء الشام ببلاد العرب ، إذ كانت الهجرات تبدأ بارتداد القبائل العربية الأطراف الشمالية من بلادها ضاربة فى صحراء الشام دون أن تشعر بفارق يذكرها بأنها غادرت أرضاً غير أرضها ، أو تقابل حاجزاً يجعلها تدرك أنها فى بيئة غير بيئتها . غير أن هذه القبائل لا تلبث أن تعمل على الاستقرار فى تلك الصحراء منتبهة فرصة مواتية للاغارة على إقليم الشام الخصيب أو للتسلل إليه جاهدة على الأخذ بنصيب من خيراته . وظلت أراضى الشام الخصبة تسيل لعاب أولئك البدو الضارين على حدودها ، حيث كانت تفيض بالنبيل والزيت والقمح ، المثل الأعلى للبدوى عن حياة النعيم^(١) .

وتعتبر هجرة الأنباط العرب نموذجاً يوضح حركات البدو فى الصحراء الشامية وتأقلمهم بالبيئة هناك ، ثم وضعهم أساس صرح نفوذ العرب السياسى فى بلاد الشام قبل ظهور الإسلام . إذ حوالى سنة ٥٠٠ ق . م . غدت الصحراء الشامية من شرقى سوريا وفلسطين إلى الفرات منتجع العرب الانباط الذين أطلق عليهم الرومان اسم أهالى الخيام (Scenites) . وكانت حياتهم نموذجاً لما كان عليه البدوى فى هذه الأصلى ، إذ كانوا فى نضال مستمر حول استغلال أماكن

(1) Mommsen, op cit, 136 .

الرعي والتكالب على الأراضي التي يمكن فلاحتها ، حتى أصبحت حياتهم مليئة بالنشاط والكفاح ، (*Vita est illis semper in fuga*) (١) .

ولكن الجماعات التي استقرت منهم في الجهات التي أمكنهم استثمارها عرفوا تأسيس الإمارات . فظهرت البتراء التي اتخذها الأنباط عاصمة لهم ، وبلغت أوجها في القرنين الأول والثاني الميلاديين . وعندما قضى الرومان على البتراء سنة ١٠٥ م ، أسس أولئك العرب الضاربون في صحراء الشام إمارة أخرى في تدمر . وهكذا ظل العرب في مهجرهم يمثلون حياتهم البدوية الأولى ، منهم الحضرة أو المستقرون الذين عرفوا تأسيس الإمارات ، على حين ظل القائمون منهم على حياتهم البدوية في تنقل وترحال وحب للاغارة ، يستفيدون من الأحوال التي تفتت من حين إلى آخر نتيجة الحروب الفارسية ، وما صاحبها من اختلال واضطراب (٢) .

وكانت هذه الإمارات تلقى دائماً مددا لا ينقطع من الهجرات ، بعثت بها بلاد العرب التي شجعت أحوالها على اتجاه هذه الهجرات إلى بلاد الشام ، إذ دخلت بلاد العرب السعيدة وهي أرض اليمن في فترة من الانحلال والاضمحلال الاقتصادي ، تلاها خضوع لاستعمار أجنبي في القرن الرابع الميلادي . فكانت آية التدهور الاقتصادي انهيار سد مأرب ومظاهر الاستعمار سيطرة الأحباش على صنعاء . وارتبط بهذه الأمور هجرة بني غسان إلى منطقة حوران في الشام خلال فترة من الفترات التي تصدع فيها سد مأرب (٣) . وهؤلاء الغساسنة هم الذين سيطروا فيما بعد على قبائل الشام وهياولها كياناً سياسياً بعد سقوط تدمر حتى ظهور الاسلام . فسقوط تدمر أمنت روما شر القبائل العربية فترة قصيرة ،

(1) Bury, op cit, 95 .

(2) Bury, op cit, 95 .

Grant, op cit, 16, 18 .

(٣) لذلك ، أمراء غسان . ص ٧ ، ٨ .

ولكن منذ عهد الامبراطور يولييان ظهرت حركة جديدة من استقرار بعض القبائل العربية في الأراضي الشرقية من إقليم الشام .

وكان أصل أولئك العرب الذين استقروا إذ ذاك بالشام من قبيلة تنوخ التي نزلت في بادية الأمر على الحدود الفارسية إبان فترة الاضطرابات التي تلت سقوط الدولة البارثية القديمة . وكانت هذه القبيلة بدورها من أصل يمني تقاطرت بعد اضطراب أحوال اليمن على وادي دجلة والفرات . ولما استقرت الأمور في فارس للملوك الساسانيين قامت محاولة لإدخال هؤلاء العرب في حظيرة الدولة الفارسية الجديدة . فهاجر كثير من عرب تنوخ إلى الشام حوالي سنة ٣٣٠ م ، أى قبل نهاية تدمر . ويطلق أحياناً على هذه المجموعة من القبائل التي هاجرت إلى أراضي الشام اسم قضاعة ، وهو الأصل الذي تفرعت عنه تنوخ . واتسمت طبيعة حركات هذه القبائل بالانضواء تحت زعامة أقوى القبائل هيبة ونفوذاً ، إذ لم تلبث قبيلة تدعى سليح أن هزمت من بالشام من قبيلة قضاعة ، وأخذت منها عصى الزعامة التي انتزعها منهم أخيراً الغساسنة^(١) .

وحوالي القرن الخامس الميلادي اتجهت الإمبراطورية البيزنطية إلى استخدام الغساسنة في مراقبة حركات القبائل البدوية التي كانت تجوب بين شمال بلاد العرب وصحراء الشام وصد تيارها إذا ما حاول الانثيال على أراضي الشام الخصبة ، وذلك فضلاً عن استخدام الغساسنة في حركاتها الحربية ضد دولة الفرس . وفي عهد الإمبراطور البيزنطي جستنيان العظيم ٥٢٩ م ، بلغ الغساسنة أوج عظمتهم إذ نجحوا بعد انتصاراتهم على اللخمين عملاء الفرس ، في ضم شيوخ القبائل العربية المبعثرة في فلسطين وغيرها من الأراضي في جنوب الشام إلى دائرة نفوذهم . فاستطاع الحارث الأعرج (في المراجع البيزنطية Arethas) على عهد جستنيان

(1) R. Dussaud, les Arabes en Syrie avant l' Islam, 9;
O'leary, op cit, 161 , 162 .

أن يهيمن علي كثير من شيوخ القبائل العربية الضاربة بالشام ، وضدت له اليد العليا عليها حتى جبال لبنان شمالاً وإلى الشاطئ الفينيقي غرباً وفي فلسطين وروادي الأردن^(١) .

ولسكن سياسة الدولة البيزنطية التي لم تدع لأية إمارة عربية بالشام فرصة تدعيم فيها قوتها أخذت تعمل أعمالها منذ عهد المنذر بن الحارث نفسه . إذ أدى إمتحان الإمبراطورية البيزنطية لسلطان الغساسنة وكسر شوكتهم إلى فرط عقد القبائل المنضوية تحت لواء بني غسان وتحرك الأحقاد القبييلة القديمة في نفوسهم . وكان شيوخ هذه القبائل — ممن ائتمروا بأواصر الغساسنة زمن الحروب وأظهروا لهم الطاعة أيام السلم — يحقدون على الغساسنة علو كعبهم لدى الامبراطورية البيزنطية وما نالوه من ألقاب ورتب وعطايا وافرة . فما أن قبضت السلطات البيزنطية على المنذر بن الحارث أثناء حضوره الاحتفال بتدشين كنيسة في حوران ونفيه إلى صقلية حتى هب شيوخ القبائل صاحبة السيادة القديمة بالشام جاهدين على استرداد ما ضاع من سلطانهم^(٢) .

ويتضح من النزاع الذي نشب بين الغساسنة وغيرها من القبائل سوء السياسة البيزنطية وتهيئتها الجو لاستقرار كثير من القبائل العربية الأخرى . فكانت الامبراطورية البيزنطية لا تتدخل في المنازعات القبييلة بين الغساسنة وغيرها من القبائل إلا حين يمتد خطر منازعاتهم من المناطق الصحراوية إلى المدن الآهلة بالسكان^(٣) ، ولسكن منذ أن قلبت الامبراطورية البيزنطية للغساسنة ظهر الجن بعد أن أدركت تخاذلهم في نصرتها في الحروب الفارسية ، واهتمام بني غسان أيضاً بالذهب المونوفيزيني حتى شجعت القبائل العربية على مناهضة سلطان الغساسنة^(٤) .

(1) O' leary op cit, 164, 165.

(٢) لذلك ، أمراء غسان ، ص ١٦ ، ١٧ .

(٣) لذلك ، نفس المرجع ، ص ١٧ .

(4) A. Kammerer, petra et la nabatine, 244 .

ويتضح أيضاً من القصائد التي أنشدت في مدح الغساسنة المتأخرين أن قوتهم كانت آخذة في الضعف وعهدهم آذن بالأفول رغم ما كسبوه من نصر في بعض الجهات . فبينما تشير هذه القصائد إلى أن نفوذ أمراء الغساسنة المتأخرين وصل في نضالهم إلى قبيلة عوف بن مرة الضاربة في شمال الحجاز ، أو في الشمال الغربي من نجد ، يتضح من ناحية أخرى ما طرأ على الغساسنة من وهن وعجز على عهد النعمان الذي حكم في العقد الأول من القرن السابع الميلادي . فسكان محاطاً بأعداء أقوياء ناصبوه العداء ، ونازعوه السلطان . ولذا على حين نجح في القضاء على بعضهم مثل قبيلة أسد الضاربة شمالى مكة ، اكتفى بتهديد قبيلة فزارة التي ينسب إليها النابغة ، وفشل في غزوة الأراضى التابعة لبني عذرة الذين كانوا يقطنون وادى القري الواقع شمالى مكة ^(١) .

ويعزى فشل الغساسنة في كبح جماح القبائل العربية إلى أنهم كانوا يناضلون في جبهة أخرى ، وهي مهاجمة أراضى الدولة البيزنطية نفسها حباً في الأخذ بالثأر والانتقام لما نالهم من هوان بالقبض على زعمائهم . وكانت إغاراتهم موجهة إلى مراكز الحاميات البيزنطية بالشام ، ونجحوا نجاحاً مؤقتاً في التواء الذعر في تلك الحاميات ، منها حامية بصرى التي تعتبر أعظم مركز حربي في الشام بعد دمشق ، ونجحوا فضلاً عن ذلك في الاستيلاء على كثير من ذخائرها . على أن هذه السياسة باءت أخيراً بالفشل وأجهدت الغساسنة ومكنت البيزنطيين من القضاء عليهم في النهاية . ذلك أن الإمبراطورية البيزنطية لم تتمكن الغساسنة ، رغم استخدامهم في الحروب الفارسية وعطفها عليهم إبان أوجهم ، من السيطرة على المراكز الحربية التي أقامت بها القوات البيزنطية . فلا توجد أية إشارة إلى سيطرة الغساسنة على أى مكان محصن أو مدينة اتخذها الجيش البيزنطي مركزاً له داخل نطاق أراضيمهم ،

(١) لذلك ، أمراء غسان . ص ٣٨ ، ٣٩

مثل دمشق وبصرى وتدمر التي أعاد تحصينها الأمبراطور جستنيان ^(١) .

ويلاحظ بموت النعمان الغساني إنقسام الرعايا التابعين لهم إلى خمس عشرة فرقة ، لكل واحدة منها رئيس خاص ، ويحتمل أن هذه الفرق كانت خمس عشرة قبيلة ورؤسائهم الشيوخ القدامى الذين تقاض جانب كبير من نفوذهم زمن الحارث والمنذر ^(٢) . وإلى جانب ذلك علا ذكر بعض القبائل العربية الأخرى إلى جانب الغساسنة . إذ أن امتداد إغارات الغساسنة إلى أراضي الحجاز دليل على إحساسهم ميل القبائل العربية هناك إلى الهجرة إلى الشام ورغبتهم في الاستقرار بها . وكان نجاح القبائل التي استطاعت أن تهجر إلى الشام في تلك الفترة من انهيار سلطان الغساسنة عاملاً هياً المسرح الذي مثل عليه بنو أمية قصة خلافتهم وما حفلت به من أعمال وآيات . إذ قبضت هذه القبائل على دفة الأمور بالشام زمن الخلافة الأموية ، وغدت قطب الرchy في سياسة بني أمية . ومن أشهر هذه القبائل العربية التي استقرت بالشام إذ ذاك قبيلة بني كلب ، إذ نزل أفرادها زمن الجاهلية بدومة الجندل وتبوك وأطراف الشام ووادي القرى . وكانوا في تلك الفترة مثالا للحياة العربية التي مر بها كل عربي ، إذ كان بعضهم بدأ والبعض الآخر حضراً . وسيطرت هذه القبيلة على الينابيع والواحات في شرق حوران وجنوبها ولاسيما في دومة الجندل . وفضلا عن ذلك أقام بعض أفراد قبيلة كلب حول سلامية وتدمر على الطريق التجاري الهام إلى الشام ^(٣) . وورثت كلب مجد الغساسنة وحلت مكانهم في الزعامة على سكان إقليم الشام زمن الأمويين ، وأصبحت العمود الفقري لسياسة خلفاء بني أمية ولاسيما زمن معاوية مؤسس الدولة الأموية .

(١) نللكة ، نفس المرجع ، ص ١٦ ، ١٧ ، ٣١ ، ٥١ .

(٢) نللكة ، نفس المرجع ، ص ٣٣ ، ٣٥ .

(٣) الفلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣١٦ .

واستقرت قبائل أخرى بالشام إلى جانب قبيلة كلب في نهاية القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلادي . وكان بعضها ممن حارب الفساسنة ، وأفلح في الإقامة بالشام حيث طاب لها المقام . ومن الصعب تحديد الجهات التي نزلت بها كل قبيلة ، إذ تداخلت أراضي القبائل مع بعضها بعضاً . وكل ما يمكن أن يذكر في هذا الصدد هو المكان الذي استوطنت به الغالبية الكبرى من أفراد القبيلة . فمن ذلك أن معظم مساكن كلب استقرت في بادية السماوة ولم يخالطها هناك أية بطون لقبائل أخرى . وهكذا استقرت القبائل العربية في نواحي متفرقة من بلاد الشام . فاستوطن بنو جهم سن قريش منطقة أذرع ، وأقامت لهم بين الرملة ومصر ، وإن كان بعضها قد نزل حوران . وأقامت جذام بين مدين وتبوك على حين نزل فخذ منها فيما يلي طبرية من أرض الأردن ^(١) .

ونالت هذه القبائل بدورها قسطاً من الحضارة البيزنطية ، كما عرفت الديانة المسيحية ودانت بها قبل ظهور الإسلام . ويرجع ذلك إلى الرهبان والنسك الذين أقاموا لهم خلوات في صحراء الشام منذ القرن الرابع الميلادي . وأصبحت هذه القبائل مسيحية العقيدة في القرن السادس الميلادي ، وقامت بدور أشبه بما قام به الفساسنة من قبل . إذ غدت عاملاً هاماً في إيصال المسيحية وتعاليمها إلى بلاد الحجاز قبل ظهور الإسلام ، كما كانت حلقة الاتصال التي حافظت

(١) القلقشندي ، المرجع السابق ، ص ٣٢٣ ؛

الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٣٩ :

وروى الهمداني (في ص ٢٠٦) شيئاً من شعر أحد القدامى ، يتضح منه الجهات التي

استقرت بها فروع من القبائل العربية زمن الجاهلية .

وقد فارقت منا ملوك بلادها	فصاروا بأرض ذات مبدى ومخضر
وغسان حتى عزهم في سيوفهم	كرام المساعي قد حووا أرض قيصر
وقد قرلت منا قضاة منزلا	بعيداً فأُمت في بلاد الصنوبر
وكلب لها ما بين رملة عالج	إلى الحرة الوجلاء من أرض تدهر

على أواصر الروابط بين هذه البلاد وإقليم الشام⁽¹⁾.

والمقصود من ذكر هذا المظهر الحضارى هو الإشارة إلى الدور الذى قام به أولئك العرب الذين استقروا فى الشام من إيجاد ضرب من النصلة بين سكان بلاد العرب ولا سيما الحجاز وبين البيزنطيين . وهذا الدور مهد السبيل فيما بعد لنبى أمة أن ينعموا بتراث القبائل العربية التى استوطنت الشام زمن الجاهلية . إذ كان ميدان النشاط الذى دعمت فيه هذه القبائل أقدامها هو الميدان التجارى وحرصها على التمتع بخيراته . فكانت القبائل العربية بالشام خير وسيط مساعد على انتظام طرق القوافل التى كانت تصل إلى الشام من بلاد العرب محملة بالمتاجر الشرقية ، واتصلت فى هذا الميدان التجارى بأبناء البيت الأموى ، الذين سيطروا على تجارة الحجاز ، وترددوا على إقليمهم .

واستطاع بنو أمة أن يدعموا علاقاتهم مع القبائل العربية بالشام . فأدركوا مقوماتها وطرق كسب ودها وصادقتها ، ثم لجأوا أخيرا إلى رحابها بإقليم الشام ، واتخذوه عضدا ونصيرا حين رأوا فرصتهم قد منحت لتأسيس خلافة لهم بعد أن سطعت شمس الإسلام فى حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، وبددت سلطة البيزنطيين الجاثمة على إقليم الشام .

(1) O'leary, op cit, 163 .

Bury, op cit, 65 .

Encyc. of Islam (Art al - sham) .

بعض أهمية ورحمة التصريف

استطاعت القبائل العربية التي استقرت في إقليم الشام أن تسيطر على النشاط التجاري الذي كان المحرك وراء الأطماع التي جاشت بها نفوس الفرس والبيزنطيين .
فبينما جهدت فارس صراعاً في الاستيلاء على إقليم الشام وتقاتلت الإمبراطورية البيزنطية في الاحتفاظ بهذا الإقليم في دائرة نفوذها ، خطت القبائل العربية الضاربة في صحراء الشام شوطاً بعيداً في تقلد أعنة التجارة ، عصب الحياة في القسم الشرقي من البحر الأبيض المتوسط . ذلك أن دور هذه القبائل في الصراع الحربي بين الفرس والبيزنطيين ، الذي دونته حوامات الفريقيين ، يعتبر ثانوياً في تاريخ حياتها ونشاطها إذا قيس بما بذلته من جهود في حركة التبادل التجاري بين الشرق والغرب .

فالقبائل العربية التي نزلت بالشام أقامت في بقاع تنتهي عندها طرق القوافل الآتية من بلاد اليمن ، وتسيطر على المحطات التجارية التي تنقل منها المتاجر الشرقية إلى البحر الأبيض المتوسط . وكان الطريق التجاري من اليمن إلى الشام أهم الشرايين التي حملت منتجات الشرق إلى الغرب منذ أقدم العصور ؛ وكان له مجريان ، أحدهما بحري يتجه إلى أيلة (العقبة) ، والآخر يبدأ من موزع أو صنعاء في بلاد اليمن ، ثم يسير شمالاً فخرقاً الحجاز وماراً بمكة التي كانت إذ ذاك محطة تجارية على هذا الطريق ، ثم ينتهي عند العلا (ديدان) وهي إحدى المحطات التجارية على حدود مملكة الأنباط . وظل اليمنيون حتى القرن الأول الميلادي ينقلون متاجرهم بأنفسهم إلى شمال بلاد العرب^(١) ، إذا وصلت سفنهم بحراً إلى

(١) فردريك بيك ، تاريخ شرق الأردن وقبائلها ، ص ٦٧ ، ٦٨ ؛

O' Leary, op cit, 162.

أيلة ، وقرافلهم براً إلى ديدان وأحياناً تبعية التي عدت نهاية طريق القوافل
للمار بالحجاز . ثم نولى الأباط بعد ذلك أمر نقل المتاجر من هذه المحطات إلى
بصرى وتدمر ودمشق^(١) .

وظل هذا الطريق التجارى حكراً على الممالك التي ظهرت بجنوب بلاد
العرب حتى امتدت أطماع الرومان إلى نزع السيادة التجارية من أيدي عرب
الجنوب . وتبجلى حرص الرومان على تنفيذ سياستهم التجارية في حملة جايوس
بجالوس (٢٤٦ ق . م) ، التي فشلت في عهد دولة حمير الأولى ، وعجزت عن
إخضاع عرب اليمن . ولسكن نشطت السفن الرومانية رغماً عن الهزيمة السالفة في
مزاومة سفن عرب الجنوب في الطريق التجارى البحرى بسبب اكتشافهم الرياح
الموسمية واستغلالهم لها^(٢) . وكان لهذه المنافسة البحرية أثرها في نشاط عرب الجنوب ،
إذ حولوا جهودهم إلى الطريق البرى للمار بالحجاز بعد أن قل نشاطهم البحرى .
وظل الأمر قاصراً على ذلك حتى العصر الحيرى الثانى . إذ حدث تغيير جوهري
في الطريق البرى قوامه ظهور سادة جدد ، هم عرب الحجاز . فقد ألقت إليهم
مجريات الأحداث إذ ذاك زمام التجارة الشرقية ، التي سيطر عليها اليمنيون
مدى طويلاً .

ويعزى السبب في هذا الانقلاب إلى سياسة الامبراطورية البيزنطية إزاء
جنوب بلاد العرب وامتداد أطماعها التجارية إلى هذه البقعة الحيوية ، إذ كان
قيام الأسرة الساسانية بفارس واحتكارها للطرق التجارية الآسيوية المؤدية إلى
القسطنطينية عاملاً دفع البيزنطيين على إحياء سياسة روما الخاصة بالسيطرة على
طريق البحر الأحمر التجارى ، البعيد عن خطر الفرس . ولسكن الظروف قد

(١) O' Leary, op cit, 103, 104.

(٢) العدوى ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥ ، حاشية ١ : ص ٢١

تبدلت حينئذ^(١)، ولم تسفر جهود الإمبراطورية البيزنطية عن شيء غير التمهيد
والتسكين لمرب الحجاز من السيطرة على طريق القوافل البري المؤدى إلى الشام .
فذلك أن سياسة الإمبراطور جستنيان في الاعتماد على الحبشة في السيطرة على تجارة
اليمن عجبت بزوال عظمة الحيريين . إذ خضعوا للأحباش^(٢) وانكشروا في بلادهم
تاركين لسرب الحجاز مهمة نقل المتاجر إلى بلاد الشام . ولم يلبث عرب الحجاز
أن انفردوا بنقل المتاجر لأن الأحباش عجزوا عن إعادة الحياة إلى الطريق
البحري ، فلم تستطع سفنهم مناهضة السفن الفارسية في المحيط الهندي ، حيث
تجمعت حاصلات الشرق في جزيرة سيلان .

وهكذا أضحت الطريق البري بين اليمن والشام المسلك المهيمن منذ مطالع
القرن السادس الميلادي ، وحكراً على عرب الحجاز وحدهم . وكان وصول عرب
الحجاز لهذه المسكنة منذ القرن السادس الميلادي حدثاً شجعت العوامل الطبيعية
عليه . إذ غدا وصول المتاجر آمنة إلى الشام وهذا بكسب صداقة عرب الحجاز
بعد أن زالت هيبة عرب الجنوب وفقدوا استقلالهم السياسي . فالبدوي معروف
منذ أقدم المصور بالإقدام والشجاعة وحببه للنضال إذا دعا داعي الجهاد ، أو
حدث ما يكرهه على أداء عمل لا يرغب فيه ، ولسكن إذا كسب أحد صداقته
وأخذ منه الموائيق على أداء عمل أوفى بما عاهد عليه ولو ضحى في ذلك بالمال
والنفس^(٣) .

وانعكست صورة هذه الصفات التي تحلى بها البدوي في النشاط التجاري
عبر طريق قوافل الحجاز ، إذ كان اعتزاز العربي بكرامته وشجاعته حافزاً أدى
إلى ضرورة نيل موافقته وأخذ وعده قبل أن تتجاز أية قافلة الأرض التي تسيطر

(١) Vasiliev, Histoire de L'Empire Byzantin I, 214, 215

(٢) البدوي ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١١ .

(٣) O'Leary, op cit, 149

عليها قيمته . فقد اعتبر البدوي هذه الأرض ملكه المقدس الذي يجب أن يزود عنه ويحميه بأي ثمن ، وكانت موافقة البدوي تتم نظير دفع مبلغ معين من المال أو مقابل أي شيء آخر يرتضيه الطرفان . ولكن النشاط التجاري سخر عرب الحجاز على أن يخطوا خطوة إلى الأمام أوسع من مجرد المحافظة على سلامة القوافل أثناء اجتيازها لبلادهم ، إذ رأوا من مصلحتهم أن يساهموا في نقل هذه المتاجر ويعمدوا أنفسهم لأداء هذه المهمة ^(١) . ولذا عندما تضررت الأحوال في جنوب بلاد العرب غدوا وسطاء في نقل المتاجر ، وحين خلاطم البحر تماماً بعد انهيار مجد دولة حمير قبضوا على ناصية التجارة نفسها . ورضى حيرانهم الخيفلون بهم في الجنوب والشمال أن يكلوا إليهم مهمة نقل المتاجر لترايتهم بمسالك الصحراء ودروبها ، واجدارتهم على تدير شئون القوافل أثناء تحالها في البيشة الصحراوية ^(٢) .

وهكذا ألقى زمام التجارة الشرقية في أيدي عرب الحجاز عامة . ولكن النشاط التجاري تركز بصفة خاصة في أيدي أولئك العرب الذين استقروا بمكة ، التي ارتفعت مكانتها من مجرد محطة على طريق القوافل القديم إلى مركز تجاري هام ^(٣) . فاشتغلت جماعات من سكان مكة بنقل المتاجر جنوباً إلى اليمن ، وأخرى بالذهاب شمالاً إلى الشام . على أن الغالبية العظمى منهم كرسست جهودها في نقل المتاجر إلى الشام ، إذ ظل الأحمشاش واليمنيون يسهمون بنصيب في نقل المتاجر من جنوب بلاد العرب إلى مكة . أما الطريق من مكة شمالاً إلى بلاد الشام فغدا حكراً على أهل مكة وحدهم ، ووفد إليهم وكلاء من قبل الامبراطورية

O'Leary, op cit, 180

(١)

O'Leary, op cit, 181

(٢)

(٣) وقد ظلت مكة تتحكم في الطرق التجارية الهامة التي تخترق بلاد العرب حيث كانت تقع في ملتقى هذه الطرق جميعاً .

البيزنطية لعقد الصفقات التجارية ، كما استقر بينهم عملاء من فارس وغيرها من الحبشة (١).

وكان عاوشان مكة سبباً في منح أصحاب النفوذ بها مكانة عالية على سائر عرب الحجاز ، وتمتع بهذا المركز الرفيع دون سائر القبائل قبيلة قريش ، أو أولئك القوم الذين عرفوا باسم قريش البطاح . ويبدو أن هذه القبيلة اشتركت في النشاط التجاري بالحجاز قبل أن تصل إلى مركز الزعامة بمكة ، وأن رؤساءها الذين لمواشملها أدركوا أهمية تجارة مكة مع بلاد الشام . فيذكر أن قصي ، الجد الذي ينسب إليه اتحاد بطون قريش الضاربة حول مكة في منتصف القرن الخامس الميلادي ، قضى أيام نشأته الأولى بين إخوته لأمه من بني عذرة النازين على حدود الشام . ذلك أن أباه كلاب بن مرة القرشي توفي تاركاً لأمه فاطمة ولدان ، زهرة وزيد . وكان زيد طفلاً عندما مات أبوه ، فتزوجت أمه رجلاً من قضاة ، أخذها معه إلى بلاده من أرض بني عذرة بأطراف الشام . فاحتلمت فاطمة ابنها زيда معها لصغره ونشأ بعيداً عن وطنه مكة مما دعا إلى تسميته قصي (تفسير قصي) (٢) .

ولما بلغ قصي مبلغ الرجولة وقع بينه وبين شخص من قضاة شيء من الجفاء ، دفع القضاء إلى تعبير قصي بالفرقة ، قائل له ألا تلتحق بقومك ! ؛ فلما عرف أصل موطنه الحقيقي بمكة خرج في الأشهر الحرم إليها مع حاج قضاة ، وأقام هناك جاهداً على إعادة مجد قريش . إذ عز على قصي أن يرى خزاعة سادة بني قومه القرشيين (٣) ، وناصب خزاعة العداء حتى تمكن من إقصائها عن مكة

O'Leary, op cit, 183

(١) .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

(٣) في القرن الثاني الميلادي هاجرت عدة قبائل من اليمن موطنها ، واستقرت إحدى قبائلها وبني خزاعة في مكة ، وسيطرت في القرن الثالث الميلادي على كافة السلاطات بها ولم تترك لقريش سكان مكة الأصليين إلا المناصب القليلة الأهمية مما آلم قصي فيما بعد .

(في القرن الخامس الميلادي) دولي أمر البيت الحرام ، وجمع قبائل قريش التي كان بعضها مقبلا في الشام ، ورؤوس جبال مكة ، وقسم منازلهم بينهم مما أكرمه لقب الحجاج^(١) .

وبعد وفاة قصي سنة ٤٨٠ م آلت السلطات التي تمتع بها في مكة إلى أبنائه وأحفاده من بعده ، ولكن كان المستفولون من هؤلاء الأبناء في التجارة إلى الشام هم أصحاب النفوذ الأعلى والسلطة . وتجلّى ذلك حين انقسم أحفاد قصي نتيجة التنافس على رئاسة إدارة مكة إلى معسكرين ، أحدهما تزعمه بنو عبد الدار والآخر بنو عبد مناف الذين كان أظهرهم عبد شمس . فما أن تداعى الفريقان للسلم حتى تم الاتفاق بينهما على أن تكون الحجابة والندوة واللواء في أيدي بني عبد الدار ، على حين آلت السقاية والرفادة إلى عبد شمس بن عبد مناف^(٢) . وكانت سقاية الحجاج والرفادة ، وهى الإشراف على جمع الضريبة التي تخصص لإطعام فقراء الحجاج مقيمين أو مسافرين ، من الأمور التي تسكنب القائم عليها ذكراً عاليا وتجعله الرئيس الفعلي لمكة .

وكانت هذه الشؤون الخاصة بالحجاج تحتاج إلى رجل موسر للقيام عليها ، ولم يستطع عبد شمس أن ينهض بأعبائها بفقرة وكثرة أسفاره . فتنازل عما بيده من سلطات إلى أخيه هاشم الذي كان أكثر منه ثراء . وكان هاشم يستمد ثروته من نشاطه التجارى في الشام ، فقد تردد على هذه البلاد كثيرا ، وجلب منها ما تحتاج إليه مكة ، إذ حدث أن أصاب قريش قحط صرة ، فرحل هاشم إلى فلسطين واشترى منها دقيقا وعاد به إلى مكة ، ثم أمر به أن يخبز ويحر الجذور لقومه وأطعمهم ، وسمى من هذه الحادثة هاشما ، حيث كان يدعى من قبل عمرو^(٣) .

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ص ١٨١ ، ١٨٢ ؟

Sir William Muir, The Life of Mohammad, 59.

(٢) محمد مبروك نافع ، عصر ما قبل الاسلام ، ص ١٦٩ .

(٣) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ ؟

المقريزى ، النزاع والتخادم بين بني أمية وبني هاشم ، ص ٨ .

ويستند هاشم المؤسس الحقيقي لمكة التجارية وواضع أساس نشاط قريش التجاري في بلاد الشام ، إذ أعطى هذه التجارة طابعاً منظماً وعمل على تفتيتها . فينسب إلى هاشم أنه أول من سن لقريش رحلة الشتاء إلى بلاد اليمن ورحلة الصيف إلى بلاد الشام^(١) ، ويبدو أن هاشم نظم رحلات قريش وأعطاهما هذا المظهر الثنائي مما جعل الروايات تعدّه مبتكر نظام رحلات الشتاء والصيف . ودعم هاشم هذا النشاط التجاري الجديد على أسس ثابتة ، إذ عقد مع الدول والممالك المجاورة للمحجاز معاهدات ومحالقات حتى تضرب قوافل الحجاز في أراضيها آمنة مطمئنة وتتجر بها في هدوء ونشاط . فعقد هاشم بنفسه معاهدة مع البزنطيين وأمرأ غسان غدا بمقتضاها لقريش حق التجوال في بلاد الشام^(٢) . وازدهرت حياة مكة التجارية في عهد هاشم ، ونعم أهل قريش بحياة رخدة هنية .

ولكن منذ عهد هاشم يمكن تلمس بداية نشاط الأمويين التجاري وحرصهم على استعادة ما سلف من نفوذهم ، الذي تنازل عنه عبد شمس لفقره . وتجلّى ذلك عندما تحرّكت كوا من الغيرة في نفس أمية بن عبد شمس لما ناله عمه هاشم من مكان رفيع في مكة ، إذ طمع في انتزاع الشرف الذي بلّغه هاشم بأن يطعم قريشاً كما فعل عمه . فكان هاشم يخرج سنوياً مالا كثيراً ينفقه على إطعام قريش وحجاج مكة كما تجلّى حين أصاب مكة القحط . ولما كان أمية عاجزاً عن مناهضة هاشم في هذا المضمار وباء بفشل جليله موضع ثمانية قريش وسخريتهم وعابوه على أفعاله . ففضض أمية ونافر هاشماً على خمسين ناقة سود الحديق تنحر بمكة ، وعلى جلاء عشر سفين لمن يكسب الموقف . وربما كان شرط الجلاء عن مكة يبين مدى ما أهاج نفوس بني أمية من سيادة بني هاشم لهذه المدينة التجارية ورغبتهم في إبعادهم عن مصدر ثرائهم ونفوذهم . واحتكم هاشم وأمّية إلى كاهن

(١) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .

(٢) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .

من فزاعة أصدر حكمه في صالح هاشم . فأخذ هاشم الإبل ونحرها وأطعم من سمنر المنقرة ، وخرج أمية خامساً إلى بلاد الشام ، وأقام بها عشر سنوات ^(١) .

تعتبر هذه الحادثة ، التي تتخذها الروايات أول مظاهر العداء بين بني هاشم وبني أمية ، حجر الزاوية في سياسة بني أمية التجارية ، إذ أدركوا ضرورة القبض على أزمة النشاط التجاري إلى الشام للوصول إلى مركز الرئاسة بمكة ، واستعادة ما كان لأبيهم عبد شمس من سلطان . وجاء اتجاه أمية إلى الشام وإقامته بها مدة العشر سنوات رمزاً جذب أنظار بني أمية إلى هذا الاقليم وحشهم على التزود من منابعه الاقتصادية . وجاءت الأحداث تترى بما تهيب لبني أمية الاستيلاء على تراث قریش التجاري في بلاد الشام ، إذ بموت هاشم في إحدى رحلاته إلى الشام (حوالي سنة ٥١٠ م) ودفنه بغزة ، التي حوت بذلك رفات أول قرشي بأرض الشام ^(٢) ، خلى الجو لبني أمية ورأوا الفرصة مواتية لاعتلاء مدارج نشاط مكة التجارية مع بلاد الشام .

ويرجع السبب في نجاح بني أمية إلى أن أبناء هاشم كرسوا جهودهم للإشراف على إدارة مكة وتدير شئونها الدينية أكثر من بذل عنايتهم للنواحي التجارية . وإذا لم يستطيعوا النهوض بأعباء الرئاسة الدينية مع مطالب الرحلات التجارية إلى الشام على نحو ما فعل هاشم . فكان اتجاه أبناء هاشم إلى الشام أمراً غير ملموس لانصرافهم إلى تدير شئون الحاج والإشراف على البيت الحرام . فاقنع بنو أمية هذه الظروف وأخذوا مقاليد إعداد الرحلات التجارية وانخرج على رأس القوافل إلى الشام ، مسيطرين بذلك على العمود الفقري الذي ارتكزت عليه حياة مكة والشام التجارية .

واتضح هذا التبدل الجوهري في حياة بني أمية وبني هاشم حين أعيد تنظيم

(١) القرظي ، نفس المرجع السابق : ص ٨ ، ٩ ، ١٠ .

(٢) الطبري ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٨١ .

الأشراف على مكة الإدارية بعد كشف عبد المطلب لبئر زمزم في القرن السادس الميلادي^(١) . إذ وزعت الاختصاصات الإدارية بين الأعضاء البارزين من أحفاد قصي ، وغدت مناسبتهم تنتقل وراثياً إلى أكبر أبنائهم . فاختص بنو هاشم بالشؤون الدينية من هذه الإدارة ، حيث عهد إليهم الأشراف على بئر زمزم وسقاية الحاج ، ونال بنو أمية اللواء ، الذي يعتبر صاحبه كبير القواد ، والقائم على شؤون الركب في الأسفار سواء في القتال أو في الخروج للتجارة . وظل هذا الأمر يتوارثه بنو أمية حتى نهض به في الأيام الأولى من فجر الإسلام أبو سفيان ابن حرب^(٢) والد معاوية مؤسس الدولة الأموية . ومن ثم يلاحظ أن بنى أمية غدوا نتيجة هذا التعديل الأخير أكثر فروع قريش ثراءً وأغلاها نفوذاً في القرن السادس الميلادي ، إذ هيأ لهم نشاطهم التجاري سبل الاتصال بكثير من البيوت الكبيرة ، فضلاً عن أن نجاحهم التجاري وما نالوه من ثراء عوضهم عما عجزوا عنه من قبل من الحصول على سيادة مكة ، حتى يعتبر بعض المؤرخين بنى أمية قادة مكة وأصحاب الحل والعقد فيها قبل ظهور الإسلام .

وهكذا قبض بنو أمية بفضل زعامتهم التجارية وإشرافهم على إعداد رحلة الصيف على أزمة الأمور في مكة ، وورثوا ثمار الجهود التي بذلتها الهجرات العربية من قبل في الشام وتأسيسها بعض الممالك هناك . وإن نظرة علي تنظيم بنى أمية لرحلة الصيف وقوافلها تبين التيارات التي أدرك الأمويون فيما بعد أهميتها ، وكيف حولوا مجراها إلى خدمة مآربهم في الشام حين سئحت لهم الفرص بعد قيام الفتوحات الإسلامية .

(١) اجتاز تاريخ بئر زمزم أدواراً متباينة ، فقد كان يسكن إلى جوار مكة قبل أن يبيع الماء في زمزم الجراهمة ، الذين احتفظوا بصدانة البيت العتيق بعد ضعف بنى إسماعيل ، وأشرافوا على شؤون بئر زمزم كذلك . ولكن جرماً بنت مكة وضعف أمرهم مما جعل خراعة تنجح في التغلب عليهم . ولكن قبل أن يبرح آخر ملك جرهمي مكة رمى في بئر زمزم تحفه وذخائره ثم طم البئر ، وظل حال البئر على ذلك حتى أكتشفه عبد المطلب .

(٢) مجرّك نافع ، المرجع السابق ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

كانت دار الندوة بمكة^(١) طبقاً للنظام القبلي تخص بمعاية القوم ، يعتقد بجهتهم على هيئة مجلس حين يأتي ميعاد خروج قافلة من مكة قاصدة الشام . وكانت إدارة دفعة المجلس وتدير شئون الأعمال التجارية التي تتناولها مناقشاته خاضعة لما يشير به بنو أمية . فقد اشتهروا بالخبرة الواسعة في ميدان المال ، فضلاً عن أن اختصاص النظر في مثل هذه الأمور التجارية منوط بهم حسب تقسيم شئون مكة الادارية . وكان يعهد إلى كبيرهم قيادة القافلة وإعدادها ، لما يعلقه أهالي مكة من آمال على ضروره نجاح القافلة وجلال مطالبها . إذ كان كل فرد في مكة أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلادي يساهم بنصيب معين في تكاليف إعداد القافلة .

واشترك في إعداد القافلة الغني والفقير ولا سيما النساء بصفة خاصة . فحياة أهالي مكة ، الغني منهم والفقير ، متوقفة على القوافل التجارية الداهية إلى الشام ومدى ما تدره عليهم من أرباح . إذ تطلعت الأسر الغنية إلى زيادة ثرائها في هذه المشاريع التجارية الرائجة والإعلاء من شأنها بين البيوت التجارية الكبرى ، على حين رأت الأسر الفقيرة في استغلال أموالها الضئيلة في هذا الميدان سبيلاً يعاونهم على قضاء مطالب الحياة ، والحصول على مورد خارجي يمكنهم من النهوض بأعبائها . فشكل فرد منهم كان يقتصد من دينار إلى دينارين أو كل ما يستطيع أن يدخره من مال ليساهم في إعداد القافلة^(٢) .

كذلك اشتركت النساء في مكة في إعداد القوافل ، إذ رأت الكثيرات

(١) يقترن اسم دار الندوة دائماً بمكة ، وهي المكان الذي اجتمع فيه سادة المدينة ليدرسوا شئون مدينتهم . وكانت دار الندوة في الأصل البيت الذي بناء قصي مسكنة له سنة ٤٤٠ م بالقرب من الناحية الجنوبية الغربية للسكبة . وعرف هذا البيت باسم دار الندوة لأن قريش دأبت على الاجتماع به لمناقشة مسائلها العامة . وكان يحضر هذه الاجتماعات الفرد الذي لا يقل سنه عن أربعين سنة . وكان قصي يسلم في هذه الدار اللواء أو العلم لقائد الحملات الحربية . وقد آلت إمتيازات قصي إلى أولاده وأحفاده من بعده .

منهن ، ولا سيما من كبار البيوتات المسكية ، طريقاً ل تنمية مرادهم والعيش في حياة رغده هائلة . ومن أمثلة هؤلاء خديجة التي تزوجها الرسول الكريم ، والذي أشرف على إدارة أموالها واستثمارها عن طريق هذه القوافل التي اتجهت إلى الشام . على أن نساء البيت الأسوي كن أكثر النساء نشاطاً في هذا الميدان التجاري . فكانت أم أبي جهل تتاجر في المطور ، وهند زوجة أبي سفيان تبيع متاجرها بين بني كلب في الشام ^(١) .

وكان العرب الأكبر في إعداد القافلة وتمويلها ، رغماً عن هذه المساهمات السابقة الذكر ، يقع على كاهل بني أمية وحدهم . فهم يجمعون الأموال من كل راغب في التجارة ، ثم يزودون القافلة بما تحتاجه إلى جانب هذه المساهمات من مال ، وكان ذلك هو القسط الأوفر غالباً . فن ذلك أن المال الذي طلب لإعداد القافلة التي أدت إلى غزوة بدر بلغ مقدار ٥٠٠٠٠ دينار ، قدم بنو أمية أغلبيةه الكبرى . فدفعته جماعة أبو أحيحة وحدها من عائلة سعيد بن العاص الأموي ، بمبلغ ٣٠٠٠٠ دينار ، إذ كانوا عبارة عن نقابة تجارية تستغل رأس مالها في هذا النشاط . وفضلاً عن ذلك ساهمت بيوت بني أمية الأخرى بمبلغ ١٠٠٠٠ دينار ، وبعبارة أخرى أمد بنو أمية قافلة بدر بأربعة أخماس المبلغ الذي طلب لإعدادها . وهذه القافلة أطلق عليها اللطيمة ، وذلك إسم يقصد به غالباً القافلة التي تحمل المطور ^(٢) ، وهي أهم المتاجر الشرقية التي تنقل إلى الشام .

وهذه القافلة التي تعتبر نموذجاً لغيرها من القوافل الذاهبة إلى الشام تبين مدى ما بذله الأمويون من مال في الميدان التجاري ، وأنها توحى بضرورة وضع القافلة تحت إشراف شخصية لها خطرها حتى لا تصاب بسوء يعد كارثة تصيب

(1) O'Leary, op cit 183;
Encyc. of Islam (art Mecca)

(2) Grant, op cit. 126.
Encyc. of Islam (art Mecca)

كل فرد في سكة جيمها ، غنياً كان أو فقيراً . وكانت مهمة اختيار الرئيس أمراً لا يقل خطراً عن إعداد الرحلة نفسها ، إذ على شخصيته وهيئته وحدها تتوقف سلامة الرحلة . فكان لا بد أن يختار من ذوى المسكنة العالية والحسب العريق ، إذ يعتبر هو وأقاربه مسؤولين عن تعويض المشتركين في إعداد القافلة عن أية خسارة تلحق بتجاريتها^(١) . ولذا كان إسناد هذه القافلة إلى أبى سفيان يوحى بما تتمتع به هذا الرجل من مكانة وهيبة فى مكة ، فضلاً عن وظيفته الرسمية فى الخروج على رأس أشباه هذه القوافل المهمة .

وهكذا كان قيام أموى على رأس القوافل التجارية أسراً لا تتطلبه الشؤون التجارية بحسب ، وإنما ضرورة تقتضيها سلامة الرحلة والاطمئنان على تسهيل نشاطها بالتجّاح . وهذا الأمر السالف يحمل معنى السلطات الواسعة التى خولت لبنى أمية ، إذ كان رئيس الرحلة يخرج على رأس قافلة هائلة تحتاج إلى يد حازمة وساطان مطلق . فبلغ عدد الجمل التى خرجت فى قافلة بدر ٢٥٠٠ بعير فضلاً عن عدد كبير من الحراس بلغ حوالى ٣٠٠ رجل بين دليل وخفير^(٢) . وقد منح رئيس الرحلة كافة السلطات التى تخوله الاتفاق مع من يشاء لإحاطة قافلته أثناء الطريق بالأمن والمُدوء . فكان يدخل فى مفاوضات مع قبائل البدو التى تجتاز قافلته أرضها ، ويأخذ منهم حراس للمحافظة على القافلة عند اجتيازها أى منطقة مخوفة . وإذا اقتربت القافلة من إحدى المدن يعمل على الاتفاق مع السلطات بها على إرسال حامية من الجنود تدفع عن القافلة غائلة العدوان^(٣) .

وإلى جانب هذه الامتيازات الواسعة التى تتمتع بها بنو أمية لتوليهم رئاسة القوافل اكتبوا بفضل التجارة مراناً على الاستعداد للنوازل والعمل على تفاديها

(1) Grant, op cit. 128,129

(2) Grant, op cit 127, 128

(3) Ibid, 128

قبل وقوعها . فتعلموا في رحلات الصيف تسكريس جهودهم المدافعة على سلامة متاعهم أولاً وقبل كل شيء ، والاحتياط على تحقيق أهدافهم مهما كلفهم من وسائل . فكان رئيس القافلة إذا ما دهمه خطر يبعث نذيراً له هيئة مفزعة يستنفر الناس للدفاع ، ولكن النجاح في هذا الأمر يتوقف على حيطة الرئيس وبعد نظره .

وتجلى ذلك حين عاد أبو سفيان بقافلته من الشام إلى مكة . إذ عندما اقترب من الحجاز أخذ يتجسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان عن أسوال الطريق ، وحين علم أن الرسول خرج للثأر لنفسه وللهاجرين من غير قریش القادمة من الشام استأجر شخصاً يدعى ضمضم بن عمر الغفاري وبعثه إلى مكة ليستنفر أهلها للدفاع عن ثروتهم وكيان حياتهم^(١) . وكان هذا النذير يمنح سبباً كبيراً نظير تأدية مهمته ، إذ أعطى أبو سفيان ضمضم مقدار عشرين ديناراً ، ولكن هذا القدر يعد قليلاً إلى جانب الأرباح المائلة التي تدرها تجارة القوافل وما يترتب على نجاحه من إنقاذ أموالهم .

وكان خروج القافلة إلى الشام يعتبر يوماً عاماً عند جميع أهل مكة ، إذ يخرجون جميعاً لتوديعها معالقن الآمال على تأديتها تجارتها في أمن وسلام^(٢) . وتابع بنو أمية في قيادتهم لهذه الرحلات الطريق التجاري القديم ، إذ بعد اجتياز بلاد الحجاز يؤدي الطريق إلى الأراضى البيزنطية عند أيلة (العقبة) التي ضمها الرومان إليهم سنة ٦٠٥ م . وعند هذه المدينة يبدأ طريق تراجان الذي يمتد بين البحر الأحمر وفلسطين وينتهى عند غزة . فكانت القوافل تتابع سيرها من أيلة إلى غزة وأحياناً يذهب فرع آخر منها إلى بصرى ، التي كانت عاصمة الولاية العربية بالشام^(٣) وسوقاً كبيراً وفدت إليه القوافل التجارية قبل الإسلام .

(١) الطبري ، المرجع السابق ، ج ٢ ص ٢٧٠ .

Encyc. of Islam, (art Mecca)

(٢)

O'Leary, op cit, 186, 187

(٣)

وتمتع قادة قوافل قریش من بنی أمیة بشهرة عالية في ميدان التجارة هيأت لهم حتى ثمار الامتيازات التي حصل عليها هاشم من البيزنطيين والساسنة . فكانت القوافل تجدد كل معونة من السلطات البيزنطية عند دخولها أيلة ، وكانت مقر الفيلق الساسر الذي احتل جزء منه جزيرة «جوتابا» لا كمال حركة الرقابة على أيلة تجارة قد تأتى بحراً . ففي أيلة كان التجار الأمويون يحرصون على الحصول على الدينار البيزنطي لتصرف شؤونهم التجارية ، على حين لقوا كل ترحيب في المدن الأخرى التي سادها نفوذ الساسنة^(١) . وكانت أهم السلع التي تحرص قوافل مكة على الحصول عليها من الشام هي المنسوجات القطنية والحريرية والأقمشة الصبغة ذات اللون الأرجواني ، على حين تجلب من بصرى الأسلحة والحبوب والزيت ، وهذه كلها أشياء تهافت البدو على الحصول عليها^(٢) .

واشتهر بقيادة قوافل قریش ابن جعدان وأبو أحيمر وأبوسفیان ، وغالبيتهم من البيت الأموي . وقد ذاعت شهرتهم ليس بين بنی جلدتهم فحسب ، وإنما حظوا بالمسكانة العليا كذلك بين السلطات البيزنطية . فكانت الدولة البيزنطية تعمل كل ما وسعها من جهد لإعلاء شأن أمثال هؤلاء القادة العظام ؛ وربما قلدت السياسة الرومانية القديمة في إقامة تماثيل لهم تخليداً لذكراهم ولما أبدوه من ضروب الشجاعة والمهارة الفائقة^(٣) . ولذا يحتمل أن أبناء البيت الأموي تمتعوا بمركز رفيع بين السلطات البيزنطية في الشام ، حيث غدوا أساة الشريان التجاري البري وسادته الذين بهشوا فيه دم الحياة نابضاً بعد أن هبط نشاط النقل البحري عبر البحر الأحمر .

ولا سراء في أن علو شأن بنی أمیة عند حكام الشام البيزنطي أوقفهم على

(1) Lammens, op cit, 310 312, 313

(2) Enceyc. of Islam (art Mecca)

(3) O'Leary, op cit, 184 ؛

Lammens, op cit, 313

أمثل الطرق لا اكتساب عطفهم والعمل على نيل رعايتهم ، مما يقتضى دراية وعلماً بالشخصيات ذات الحظوة لدى أولئك الحكام ، واتخاذهم وسطاء لديهم . وهذا من خلق التاجر الذى يتخذ من توثيق الصلات بين الناس ، ومعرفة طبائعهم وإرضاء نزواتها شعاراً للمحافظة على متاجره وترويجها بينهم . « فإن كان جريئاً على الخصومة . . . مقدماً على الحكام كان ذلك أقرب إلى النصفة . . . وإلا فلا بد له من جاه يدرع به يوقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام على إنصافه من معاملته ^(١) » . هذا إلى أن التاجر يشتهر بعين الفاحص الخبير التى تمكنه من معرفة أحوال البلاد التى يحط فيها رحاله ، وضروب السلع التى تحتاجها ، والتطورات التى تطرأ على أذواق أهاليها . كل ذلك بما يضمن له تصريف متاجره فى أمن وسلام . ومن ثم كانت رحلة الصيف إلى الشام المدرسة التى تلقن فيها الأمويون دروساً فى طريقة خطب ود أهالى الشام ومراعاة على إرضاء أذواقهم ، وعرفوا حين سمحت لهم الظروف فيما بعد سبل السيطرة على أزمة هذا الإقليم وهيئة الاشراف به .

وإلى جانب هذه الخبرة الواسعة التى عرفها الأمويون عن أهالى الشام أدركوا كذلك بفضل إشرافهم على القوافل التجارية مصادر السلطة والهيمنة فى بلاد الحجاز وأيسر السبل لاجتذاب خيرة رجالاته إلى جانبهم . وذلك أن قيامهم على جمع أنصبة المساهمين من أهل الحجاز فى القافلة الذاهبة إلى الشام جعلهم يخبرون شتى أصناف الشخصيات ودراسة خلقها وطبائعها . فكان وصول القافلة من الشام إلى مكة يوم عيد عند الجميع يخرجون فيه جميعاً لتحية الركب بقرع الطبول ، ويحسدوهم الأمل بالربح الوفير ^(٢) الذى يحمله لهم قادة القافلة من بنى أمية .

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٣٠

(2) Grant, op cit, 130
O'Leary, op cit, 185

وكانت القافلة تدخل مكة تباعاً أشبه بالجيش وما يحدث في النفس من رهبة . ثم يقبل الجميع يتراخون لأخذ نصبتهم وأرباحهم من أبي سفيان الذي جلب لهم من الشام الخير العظيم ، ويعودون سرحين مضطحين بما أصابوا من ثراء . على أن أبي سفيان وأهل بيته من الأمويين يجمعون إلى جانب أرباحهم الخبرة الواسعة عن شخصيات عرب الحجاز ومدى عمالة عودهم . ولذا عند ما حصلوا على ما ادخره لهم الزمن من سلطان عظيم في دمشق بعد فتح الشام وجدوا لديهم قوائم جاهزة بأسماء الأعوان والأنصار الذين تفانوا في نصرة قضيتهم وتحقيق ما جاشت به نفوسهم .

وهكذا استطاع بنو أمية بفضل نشاطهم التجاري ، ومتابرتهم على الخروج في رحلات الصيف إلى الشام أن يكونوا أصحاب المركز الأول في الحجاز ، والقابضين على أزمة حياته الاقتصادية . ومن ناحية أخرى كسب الأمويون مكانة صرموقة في إقليم الشام ، ولا سيما أنهم حرصوا على اقتناء الأملاك والعقار الذي منحهم هيبة بين السكان . فاشترى أبو سفيان ضيعة في البلقاء ^(١) بفضل ما أغدقته عليه التجارة من ثراء وافر . ولا شك أن هذه الخطوة التي قام بها أبو سفيان جعلت الأمويين المشتغلين بالتجارة على صلات قوية مع أهل الشام وقربت الألفة بينهم .

وأصبح الأمويون بذلك قبل ظهور الإسلام مباشرة العمود الفقري في النشاط التجاري بين الشام والحجاز وأصحاب السكامة المسموعة في كل ما يتصل بهذا الميدان . وعرف الأمويون بعد ظهور الإسلام كيف ينعمون بالأسس التي وضعها زعمائهم زمن الجاهلية في إقليم الشام حتى شيّدوا عليها صرح دولتهم عالياً .

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٣٥ .

قيام البيت الأموي في الشام

يشتد العقد الأول من القرن السابع الميلادي مشرق ظهور الأمويين على مسرح الأحداث السياسية في بلاد الشام ، إذ أدت سياسة البيزنطيين في إضعاف الفسامة والقبض على سادتهم إلى غروب شمسهم بشكل ملموس واضح ، وتهيئة المسرح لسلطان بني أمية في الشام . وآية ذلك أن الأباطرة البيزنطيين لم يعضوا الطرف عن الفسامة بعد تشتت أمراءهم وتفرقهم خارج بلاد الشام ، وتابعوا السياسة التقليدية المخالفة التي تنادي « فرى تسد » . فآخذوا يوقعون الشقاق بين قبائل الفسامة بعد أن انفرط عقد اتحادهم وسطوتهم ويعزرون القبائل العربية الأخرى على التمرش بهم والأجهاز على البقية الباقية من نفوذهم . وكان الأمويون المترددون بقوافلهم التجارية على بلاد الشام يرقبون هذه الأحداث عن كثب ، يجاهدون على الاعتماد على تيار المنازعات وقائمين بما يجدونه من رعاية وطمانينة لدى هذه القبائل جميعاً .

وظل الأمويون على هذا النهج حتى اتجهت السلطات البيزنطية إلى الاستعانة بالقبائل العربية المضاربة في شمال الحجاز على إخماد حركات بعض الفسامة الذين لم يفكسوا راية العصيان . وكانت وسيلة الإيقاع التي عمد إليها البيزنطيون هي إنارة حفيظة هذه القبائل العربية على ما ارتكبه الفسامة نحوهم من عسف في أيام أوجهم . وجاءت الأحداث بما يمهّد للبيزنطيين السبيل ، إذ اتخذت من ادعائها حتى حملة المسيحيين ببلاد العرب تسكئة للاقصال بالقبائل العربية في الحجاز ، وكان القرشيون في مكة إذ ذاك سادة القبائل العربية وأقواها بسبب زعامتهم التجارية التي نالوها بفضل بني أمية ونشاطهم التجاري .

إنجّه البيزنطيون إذ ذاك إلى الاتصال بقبيلة قريش متزعين بحماية المسيحيين في الحجاز حيث كان يرأسهم شخص يدعى « أبو الأمير الراهب »^(١) . على أن

(1) Kammerer, op cit. 345

القرشيين أبوا على البيزنطيين تدخلهم في شئون قبائل الحجاز خشية ترجيح كفة قبيلة على أخرى . فانتدبت قریش أحد سادة البيت الأموي ، وأوسعهم تجارة ، وهو عثمان بن عفان ، لمفاوضة السلطات البيزنطية وحلها على الحد من نشاطها في الحجاز ، ومبيناً لها مغبة سياستها ، إذ عليه أن يذكر البيزنطيين بسيادة مكة على سائر القبائل الأخرى وما لها من أهمية كبرى في النشاط التجاري للإمبراطورية البيزنطية ، وأن الأفضل هو كسب تأييدها السياسي ، لا شد أزر المسيحيين ^(١) .

وذهب عثمان بن عفان إلى عمال الحدود البيزنطيين (في إقليم النخور) المقيمين في بصرى ، وفوضهم على الأسس السالفة ، وأضاف إليها بيان الدور الذي يمكن أن يلعبه العرب في تعضيد البيزنطيين في حروبهم المستمرة إذ ذاك مع الفرس . فانتبهز البيزنطيون هذه السفارة العربية وعملوا على اجتذاب عرب الحجاز إليهم للقضاء على فلول الغساسنة ، فأغدقوا على عثمان بن عفان لقب « فيلارخ » وهو من أرفع الرتب البيزنطية ، ولكن يبدو أنهم راوغوا في تحقيق مطالبه الأساسية وهي الكف عن منازعة قریش سيادتها في الحجاز ^(٢) .

عاد عثمان بن عفان إلى مكة وهو يدرك تماماً أهداف البيزنطيين في إيقاع الفروقة والشقاق والشحناء بين صفوف العرب ، فأبى أن ينفذ مطالب البيزنطيين بتحريض عرب الحجاز ضد الغساسنة ، حيث أدرك أيضاً بشاغب نظره ما عليه الإمبراطورية البيزنطية من ارتباك وما بدت عليه من علامات الأفول في تلك الرقعة من أراضيها المطلة على البحر الأبيض المتوسط الشرقي . وجاءت الأحداث تتري بما يزيل للبيزنطيين من نفوذ في الشام وفي شمال بلاد العرب ، ويحقق ما أدركه عثمان بن عفان ، إذ سرعان ما غزا الفرس بلاد الشام (٦١٣/٦١٤ م) ، وقوضوا أركان البيزنطيين هناك ^(٣) . ثم إن هرقل لم يكذب نعم باسترداد الشام

(1) Kammerer, op cit. 345

(2) Ibid , 345.

(3) Ibid, 343 346.

وإبعاد الشيخ الفارسي عن أراضي دولته المطلة على البحر الأبيض المتوسط الشرقي حتى ظهر نور الاسلام وكتب للعرب الذين ذاقوا من البيزنطيين ألوان التعذيب والتشتيت العزة عليهم ، ثم دفعهم على حمل لواء الإسلام إلى الشام وإزالة نفوذ البيزنطيين نهائياً منه .

وتعتبر سفارة عثمان بن عفان دليلاً على مطالع نفوذ الأمويين السياسي في إقليم الشام قبل الهجرة بزمان قليل . ثم لم يلبث الأمويون أن حازوا قصب السبق في الميدان السياسي في ذلك الاقليم كذلك حين أخذ الرسول الكريم يدعو القبائل العربية الضاربة في شمال الحجاز وجنوب الشام إلى الدخول في دين الإسلام . إذ استعان الرسول في تلك البقاع بعالم من بني أمية وبعيهرهم ممن عرف بالخطوة عند الأمويين والدخول في دائرة نفوذهم . فكانت سياسة الرسول تهدف إلى استخدام نفوذ الأمويين بين القبائل العربية في جنوب الشام لنشر الدين الاسلامي بينهم ، وإيفاد غيرهم من مشاهير العرب الدائرين في فلكهم على رأس السرايا التي بعثها إلى قبائل الشام .

جعل الرسول الكريم عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على تيماء وخيبر وتبوك وفداً^(١) ، تلك البلاد الوثيقة الاتصال بالحدود البيزنطية والقبائل العربية الضاربة على تخومها . وبعث عمرو بن العاص ، صاحب اليد الطولى على معاوية فيما بعد زمن التحكيم^(٢) ، إلى أرض عمان بالقرب من الشام ، إذ وجهه الرسول إلى تخوم الشام التي نزلت بها أقوام بلي وعذرة ، حيث تربطه صلة القرى بأولئك العرب هناك . فكانت أم العاص بن وائل امرأة من بلي ، مما حدى بالرسول إلى اختيار عمرو لاستنفار تلك القبائل لمهاجمة الشام اعتماداً على صلة القرى بينه وبين أخوال أبيه في أرض بلي^(٣) .

(١) المقرئى ، المرجع السابق ، ص ٣٦

(٢) كان والد عمرو ، وهو العاص بن وائل ، من أعز أصدقاء أبي سفيان أيضاً والمعاوية

(٣) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ١٠٤

ومكثا كانت سياسة الرسول في إطلاق يد هذا الفرع من بني أمية وغيرهم من الموالين لهم سياسة صحيحة ، تستند إلى تأليف قلوبهم للإسلام والإفادة من مجهوداتهم في نشره . وتجلى ذلك حين خرج عمرو بن العاص إلى تخوم الشام ^(١) . إذ عندما بلغ عين ماء في أرض جذام يقال لها السلاسل توقف حتى يسير غور هذه البقعة ، وبعث إلى رسول الله يطلب منه مدداً . فوجه إليه الرسول أبا عبيدة من الجراح على رأس الأمداد ، ثم زود الرسول أبا عبيدة بتعليمات صريحة تجعلهم يصرّون على الصدارة على الجند جميعاً . ولما وصل أبو عبيدة إلى معسكر عمرو انضوى تحت لواءه إمتثالاً لأمر الرسول ، إذ حين خاطب عمرو أبا عبيدة قائلاً : « إنما جئت مدداً لي ، قال أبو عبيدة ، يا عمرو ، إن رسول الله قال لي لا تختلفاً ، وأنت إن عصيتني أطعته ، فقال عمرو فأنا أمير عليك ، فقال أبو عبيدة ، فدونك ذلك ^(٢) .

وكان الرسول حازماً خبيراً في إتخاذ هذه السياسة وكسب ولاء بني أمية وأنصارهم في غزواته لمنطقة تخوم الشام ، إذ رأى بعد غزوة مؤتة ضرورة نشر الإسلام بين عرب الشام وإخراجهم من حظيرة البيزنطيين . فقد واجهت حملة مؤتة عند معان من أرض الشام قوات البيزنطيين التي انضم إليها حال وصولها أرض البلقاء المستعربة من لخم وخدام وبهراء وبلي ، في مائة ألف رجل ، عليهم قائد من بلي ^(٣) . وهذا يدل على حصافة الرأي في انتداب عمرو بن العاص لكسب ود بلي ونشر الإسلام بينهم لما كان لهم من مركز الصدارة في تلك البقعة من تخوم الشام .

(١) كان خروج عمر إلى تخوم الشام لمحو آثار غزوة مؤتة ، ونشر الإسلام بين القبائل العربية في شمال بلاد العرب وإخراجهم من دائرة التبعية للبيزنطيين .

(٢) الطبري ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٤ ؛

Muir, The Life of Mohammad, 397

(٣) الطبري ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٧ .

ولما توفي الرسول كشف الأمويون القناع قليلا عن أطماعهم السياسية في إقليم الشام . إذ أبا عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية وأبناءؤه البقاء على عمالتهم في تبولس وفدك وغيرها ، ورفضوا طلب أبي بكر للدخول في إدارته لتصرف شئون تلك النواحي المتاحة للشام ، وأجابوا بقول يحمل الكثير من المعاني ، فسرتها الأيام فيما بعد حين قبضوا على أزمة الخلافة الإسلامية « نحن أبناء أبي أحيحة لا نعمل لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا ^(١) » .

على أن بني أمية وجهوا نشاطهم نحو إقليم الشام ، واشتركوا في المغازي التي أرسلت إلى شتى أرجاءه دون القناعة بإدارة بلدة من البلاد المتاحة له . إذ أدركوا أن الشام المسرح الذي يحذر بهم إظهار مواهبهم فيه ، وأن يكسبوا بحمل الدين الإسلامي إلى أهله أسمى الذكر ، ليعوضوا ما فاتهم من سبق في اعتناق الإسلام . فخارب أبناء سعيد بن العاص بن أمية في مغازي الشام وقتل منهم الكثير حتى قيل : « ما فتحت بالشام كورة من كور الشام إلا وجد عندها رجل من بني سعيد بن العاص ميتا » ^(٢) .

وهكذا خضب بنو أمية بدمائهم أرض الشام وغدوا به بذور سلطنتهم الذي أينع على عهد معاوية ، بعد أن استفاد بنفسه من أحداث الفتوحات زمن الخليفين أبي بكر وعمر . وتحلى إقبال الأمويين على الشام بعد انتهاء أبي بكر من حروب الردة واتجاهه إلى إعداد الجيوش لفتح هذا الإقليم . فكان نصيبهم هو الأوفر في المساهمة في العمليات الحربية من حيث قيادة الجيوش وعدد الجند الذين وضعوا تحت تصرفهم .

جهز أبو بكر أربعة جيوش ، جعل عليها يزيد بن أبي سفيان الأموي وعمر بن العاص وشرحبيل بن حسنة وأبو عبيدة بن الجراح . وضم جيش يزيد

(١) المقرئى ، المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٢) المقرئى ، المرجع السابق ، ص ٣٢ .

بن أبي سفيان أعظم الحاربيين سراساً وأعزهم نفراً وخرج أبو بكر بنفسه مع يزيد بن أبي سفيان يردعه ، وسار الخليفة ماشياً ويزيد راكباً ، إجلالاً لهذا القائد الذي رغب الخليفة في تكريمه لما له من شأن في هذه الحملة المتجهة إلى الشام ، ولجعل له مركز القيادة فيها عوضاً عن خالد بن الوليد الذي ذهب إلى العراق . وسار جيش يزيد في المقدمة ، يحمل علمه معاوية بن أبي سفيان آخر القائد ومؤسس الدولة الأموية فيما بعد ^(١) .

وانتجبه كل جيش من الجيوش الإسلامية صوب منطقة معينة من إقليم الشام ، لوحظ فيها مدى صلة القرى أو دراية قادة الجيوش بقبائلها وأحوالها . فنزل أبو عبيدة الجابية ، وشرجيل بن حسنة الأردن في المنطقة القريبة من بصرى وعمرو بن العاص القرى ، ويزيد بن أبي سفيان البلقاء . وكان اختيار القائد الأخير للبقاء على أساس معرفته الوطيدة بها . فكان لأبي سفيان بالبقاء قرية أو ضيعة تابعة له اسمها « بقبش » مما يبين جلياً مدى نشاط الأمويين وخبرتهم بالشام قبل ظهور الإسلام وإبان انتشار الفتوحات الإسلامية به ^(٢) .

ولم يقتصر نشاط الأمويين في هذه الفتوحات الإسلامية الأولى في إقليم الشام على يزيد بن أبي سفيان وأخيه معاوية وخروجهما معاً على رأس جيش واحد . إذ بعث يزيد بأخيه معاوية إلى جيش أبي عبيدة بن الجراح لشد أزرة في زحفه على بلاد الشام ، مما يحمل على الاعتقاد بأن قادة الجيوش الإسلامية الأخرى في الشام اعتمدوا على خبرة أفراد البيت الأموي بتلك البلاد . وفضلاً عن ذلك سارع سائر أفراد البيت الأموي إلى المساهمة في حملات المسلمين على الشام ، واضطلموا بمهمة بث روح الحماس والحمية في نفوس المقاتلين المسلمين . فاشترك

(١) الطبري ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٣٩ ؛

المقريزي ، المرجع السابق ، ص ٤٠ ، ٤١ ؛

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ١٣٥ .

أبو سفيان نفسه في جيش ابنه يزيد المحارب في الشام ، وصاحبه بعض أفراد بيته من النساء .

وكان للنسوة من البيت الأموي نصيب ملحوظ في العمليات الحربية التي قامت بها جيوش المسلمين ، فضلاً عن تشجيع الجند على مواصلة القتال . إذ أمر أبو سفيان النساء اللائي خرجن مع الجيوش وأجاسن نداف الصقوف بأن يقدفن بالحجارة كل من رجع إليهن من جند المسلمين . وكذلك اشترك نساء البيت الأموي اشتراكاً فعلياً في معركة اليرموك الحاسمة التي جلبت الشام إلى المسلمين ، إذا قانلت جيوية ابنة أبي سفيان مع زوجها في هذه الواقعة ، إلى جانب غيرها من النساء ، اللائي ظهر منهن أيضاً هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان . وتوج هذا النشاط الحربي الذي أبداه الأمويون في هذه المعركة الكبرى أعمال أبي سفيان نفسه ، الذي أصيبت عينه يومئذ مسطراً اسمه بذلك في سجل كفاح آل بيته في حروب الشام ^(١) .

وعرف الأمويون كيف ينعمون بثمار جهودهم في فتوحات الشام على عهد الخليفة أبي بكر وعمر . إذ استطاعوا أن يكسبوا ثقة هذين الخليفين وأن يحتفظوا بمركزهم الرفيع في إدارة شؤون إقليم الشام وأن يوسعوا سلطانهم فيه . فبينما ساءت العلاقات بين الخليفة عمر والقائد خالد بن الوليد ، وعزل الأخير عن قيادة الجيوش الإسلامية ، وعلى حين حاسب الخليفة عمر عمرو بن العاص فاتح مصر حساباً شديداً ولم يدع له فرصة يدعم فيها نفوذه في مصر ، نجد أبناء البيت الأموي في إقليم الشام يسرون قدماً في مدارج السلطان وتدعيم قبضتهم على شؤنه . إذ تجنب أبناء البيت الأموي في الشام التردى في المصير الذي لاقاه خالد وعمرو ، وزادت دعائمهم قوة على عهد الخليفة عمر بن الخطاب نفسه . وتعتبر سياسة هذا

(١) الطبري ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٣٦ ؛
كرد علي ، خطط الشام ، ج ١ ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

الخليفة تجاه أفراد البيت الأموي بالشام ، سواء جاء ذلك عفواً أو تحت إكراه
ظروف خاصة ، ظاهرة تسترعى الانتباه إذا ما قورنت بسياسة إزاء غيرهم من
القادة والولاة .

وتجلت هذه السياسة حين توفي يزيد بن أبي سفيان ، فقد عهد الخليفة عمر
إلى معاوية بن أبي سفيان إدارة ما كان خاضعاً لأخيه يزيد من بلاد الشام .
هذا إلى جانب توسيع الخليفة عمر سلطان معاوية في إقليم الشام حين نظم إدارة
هذا الإقليم ، إذ عندما توجه عمر إلى إقليم الشام للمرة الأخيرة سنة ١٧ هـ ، ورتب
الجيوش بها وقوى حصونها ، عزل شرحبيل بن حسنة وأقام مكانه معاوية .
واتضح ميل عمر إلى تفضيل أبناء البيت الأموي حين سأله شرحبيل « أعن
سخطه عزلتني يا أمير المؤمنين ؟ فأجاب لا ، إنك لكما أحب ، ولكني أريد
رجلا أقوى من رجل »^(١) ، وبذلك كان معاوية يتولى الأردن ودمشق عند
وفاة عمر .

وإذا كان الأمويون قد نمووا بميزات جعلت أبا بكر وعمر يفضلانهم على
غيرهم في إدارة إقليم الشام ، فإن الأمويين ساروا وفق سياسة مرسومة تهدف
إلى تجنب إثارة شكوك الخليفة عمر نحوهم ، وما ينجم عن ذلك من إقصائهم عن
الشام محط آمالهم . إذ قدم معاوية من الشام مرة وهو والى عليها من قبل عمر
ودخل على أمه هند بالحجاز لزيارتها ؛ فقالت له « يا بني ، .. قد استعملك هذا
الرجل (أي عمر) ، فاعمل بما وافقه أحببت ذلك أم كرهته » . ثم دخل على أبيه
أبي سفيان ، فقال له « يا بني ، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين ... قد قلدوك
جسما من أسرهم ، فلا تخالفن أسرهم ، فإنك تجرى إلى أمد لم تبلغه ، ولو قد بلغته
لتنفست فيه »^(٢) . وإن هذا الاتفاق في المعنى رغم اختلاف اللفظ يوضح تماماً

(١) الطبري ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٠٣ .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ١ ص ١٤ ، ١٥ .

آمال الأمويين في البقاء عمالاً على إقليم الشام ، فضلاً عن أن نصيحة أبي سفيان كشفت عماراً ودهم من طموح جهلوا على تحقيقه رويداً ، عامدين أولاً إلى كسب ود الخلفاء وعطفهم .

وتوالت الأحداث بما يكسب الأمويين نفوذاً وحظوة عند الخليفة عمر ، الذي أدرك بثاقب نظره أهليتهم عن غيرهم في تصريف شئون الشام . إذ حدث أن وفد عمرو ومعاوية على الخليفة ليتحدثا معه في شئون ولايتيهما ، واعترض عمرو على بعض أقوال معاوية مما حمل الأخير على أن يهيم بذكر مثالب عمرو في إدارة مصر . على أن عمرو أدرك بدهائه قصد معاوية ، وعمل على أن يصرفه عن الخوض في أحوال مصر بأن لطمه على وجهه . فاستاء الخليفة وأمر معاوية أن يقتصر لنفسه . ولكن كياسة معاوية تجلّت حين أجاب « إن أبي أمرني ألا أقضي أسراً دونه » ، فأرسل عمر إلى أبي سفيان ، الذي تجلّت كياسته كذلك في فض هذه المهاترة وما يحتمل أن تجلبه ورأى من أضرار بأن تنازل عما لحق بابنه من إهانة في هذا القول الحكيم « لهذا بعثت إلى ! أخوه وابن عمه ، وقد أتى غير كبير ، وقد رهبت ذلك له ^(٢) » .

ومن أمثلة نجاح معاوية في التخلص من المآزق والعمل على نيل رضى الخليفة عمر ليظل والياً على إقليم الشام ما حدث بينه وبين الخليفة حين قدم على ذلك الإقليم في إحدى زياراته المتكررة . إذ خرج معاوية في موكب حافل لاستقبال عمر ، لكن الخليفة لم يرقه ذلك وأعرض عنه ، فسار معاوية راجلاً إلى جوار الخليفة حتى قال له عبد الرحمن بن عوف ، أتعبت الرجل . حينئذ سأل الخليفة معاوية عما دعاه إلى الخروج في هذا الزهو والركب الحافل ، فأجاب معاوية « لأننا في بلاد لا نمتنع فيها من جواسيس العدو ، ولا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان ، فإن أمرتني بذلك أقت عليه ، وإن نهيتني عنه انتهيت » . وهكذا

(٢) ابن عبد ربه ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٠ .

استطاع معاوية بإبائته التي انتشر إليها غيره من الولاء أن يفوز برضى الخليفة ،
إذ أجابه عمر قائلا : « لأن كان الذي تقول حقا فإنه رأى أريب » ، وإن كان
باطلا فإنه خدعة أديب ، وما أسرك به ولا أنهارك عنه ^(١) .

وهكذا دعم الأمويون نفوذهم في هذه المرحلة الأولى من تاريخهم السياسي
في صدر الإسلام ، لاشتراكهم في الحملات التي بعثها الرسول إلى إقليم الشام ،
وكذلك في الجيوش التي فتحت هذا الإقليم . ثم سرعان ما بدوا غيرهم من قادة
المسلمين ، حتى مكثوا لأنفسهم في إقليم الشام . واسترعى علو شأنهم المقرئى
حيث يقول « فانظر كيف لم يكن في عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا في
أعمال أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أحد من بني هاشم ، فهذا وشبهه هو الذي
حد أنياب بني أمية وفتح أبوابهم وأترع كأسهم وقتل أصراسهم ^(٢) » .

ولما توفي الخليفة عمر بن الخطاب خطا الأمويون خطواتهم الثانية نحو تثبيت
أقدامهم في إقليم الشام ، واعتباره الحصن الذي يحميهم من النوازل والخطوب .
وكللت هذه الخطوة بالنجاح لأن البيت الأموي في الحجاز استطاع أن يفوز
بالخلافة بعد عمر بن الخطاب . إذ جاء انتخاب عثمان بن عفان خليفة فرصة أناحت
للأمويين في الشام أن يثبتوا دعائم سلطنتهم وهيلتهم ، مهتمدين على أن أحد
أفراد البيت الأموي هو الخليفة في الحجاز .

ولم يستطع الأمويون أن يخفوا شعورهم بأن انتخاب عثمان خليفة أصر حقوق
لهم ما كانوا يطمحون إليه من السيادة والرئاسة . إذ عبر عن ذلك أبو سفيان ،
والد معاوية مؤسس الخلافة الأموية ، حين وفد على عثمان غداة انتخابه خليفة
ومعه رهط من بني أمية . فقال أبو سفيان للمجلس الذي ضمهم من بني أمية ،
وكان إذ ذاك قد عمى « أفيسكم أحد من غيركم ؟ » فقال الحاضرون لا ، فقال عندئذ

(١) ابن عبد ربه ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٦ .

(٢) المقرئى ، المرجع السابق ، ص ٤١ .

« يا بني أمية تلقفوها تلقف الكرة ، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أربحوها لكم ، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثته^(١) » .

وإذا كان أبو سفيان تطلع إلى خلافة عثمان على أنها بداية للوصول بني أمية إلى تولى شؤون المسلمين ، فإن ابنه معاوية أدرك أهمية إقليم الشام والدور الذي يمكن أن يؤديه للاحتفاظ بالخلافة دائماً في بيت أمية ، وأنه المقر الذي يجب أن تنتقل إليه حاضرة هذه الخلافة . وتجلت هذه السياسة التي رسمها معاوية بشكل واضح حين أطلق له عثمان وأخبره من بني أمية السنان في إدارة الولايات الإسلامية . إذ دعم معاوية نفوذه وسلطانه في إقليم الشام وأصبح والياً عليه كله بعد سنتين من خلافة عثمان^(٢) . ولذا ما أن ثارت الولايات الإسلامية على عثمان لتحيزه لأقاربه وتفضيلهم على غيرهم في تصريف شؤون المسلمين حتى انطلق معاوية للدفاع عن عثمان معتمداً على جأحه وسلطانه في إقليم الشام .

وأفصح معاوية عن نواياه في نقل حاضرة الخلافة إلى الشام وعن اعتزازه بهذا الإقليم حين وفد على عثمان سنة ٣٤ هـ مع سائر الولاة من بني أمية وغيرهم للتشاور في هذه القلاقل والفتن التي انتشرت ضد عثمان . إذ حضر معاوية مع عثمان مجلساً ضم علياً بن أبي طالب وطلحة والزبير ، وفهم مدى سخط الناس على تفضيل عثمان لأبناء البيت الأموي ، وأن الموقف غداً بالحجاز خطيراً . فعندما انفرط عقد المجلس ونحى معاوية بعثمان أشار عليه قائلاً « يا أبا المؤمنين ، انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به ، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا »^(٣) .

وهذه الفكرة التي دان بها معاوية رفض تنفيذها عثمان ، وأبى مفارقة

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٣٣٧ .

(٢) الطبري ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٦٩ .

(٣) الطبري ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٠١ ؛

الحجاز . ولكن معاوية صمم على متابعة خطته ، وهي الدفاع عن بقاء الخلافة في بيت بنى أمية . إذ مر في طريق عودته إلى الشام بعد انتهاء مؤتمر الولاية الأمويين بقوم من المهاجرين في المدينة ، وخاطبهم قائلا « قد علمتم أنه ليس منكم رجل إلا وقد كان قبل الإسلام مغموراً في قومه ... حتى بعث الله رسوله ، فسبقتهم إليه ... فسدتهم بالسبق لا بغيره ... وسيدوم هذا الأمر ما استقمتم ، فإن تركتم شيخنا هذا (أي عثمان) يموت على فراشه ، وإلا أخرج منكم ولا ينفعكم سبقكم وهجرتكم ^(١) » . وكشف معاوية بذلك القناع تماما عن سياسة الأمويين في بقاء الخلافة بينهم ، وأن الاعتداء على عثمان والالتجاء إلى القوة في تنفيذ ذلك يرجح كفة بنى أمية بفضل مؤازرة أهل الشام لهم .

وكان معاوية حصيفاً بعيد النظر حين لوح لعثمان بترك الحجاز والانتقال إلى الشام والاعتماد على قوة ذلك الإقليم . إذ أثبتت الحوادث أن بلاد الحجاز لم تعد المركز الذي تدار منه شئون الدولة الإسلامية بعد أن اتسعت رقعتها . فقد هاجرت معظم القبائل الهامة من بلاد الحجاز وأقامت في العسكرات التي تحولت إلى مدن زاهرة في الأقاليم المفتوحة ، وفقدت بلاد العرب بذلك مكانتها باعتبارها محور ارتكاز الدولة الإسلامية . وعجل أهل المدينة أنفسهم بالقضاء على ما تبقى لحاضرتهم من هيبة وسلطان ، وبيّنوا أن منابع القوة غدت مركزة في مدن خارج إقليم الحجاز حين وفد الثوار من سائر الأمصار لشد أزر الناقمين على عثمان بالمدينة . إذ تطورت أحداث الثوار وقتلهم عثمان إلى أن المسألة أضحت مسألة قوة ، وأن إزالتهم شخصية عثمان لن تجدى فتيلاً ، لأن القوة كامنة خارج إقليم الحجاز والفوز لمن يسيطر على أعنتها ^(٢) .

وتجلت هذه الظاهرة بعد أن بويع على بالخلافة ، إذ أقام مقر حكمه في الكوفة

(١) الطبري ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٠٠ .

(2) Wellhausen, The Arab Kingdom, 53, 54.

تاركاً الحجاز ، وسيطر منها على الدولة الإسلامية عدا الشام التي تحصن بها معاوية
وناصب علياً النداء . ويعتبر النزاع بين علي ومعاوية نزاعاً بين العراق والشام ،
استطاع أن يصمد فيه معاوية ، رغم انتصارات علي بن أبي طالب الحربية ، بفضل
ملاحة أهل الشام وولائهم له . فقد تلى رجحان كفة علي في معركة صفين حادثة
التحكيم التي جلبت الفرقة في صفوف جيش علي بن أبي طالب ، على حين جنى
معاوية بعد هذه المعركة ثمار جهوده في إقام الشام وبقاء أهله على الولاء له . ثم لم
تلبث الأحداث أن هيأت الجولعاوية تماماً حين قتل علي بن أبي طالب . إذ آثر
الحسن التنازل لمعاوية ^(١) ، الذي أصبح بذلك خليفة المسلمين (٤١ هـ / ٦٦١ م) ،
وورثت جهود أسلافه وأبائه من بني أمية في إقليم الشام . وقد تابع معاوية
جهوده في إعزاز دولة الإسلام ، حتى سجل له التاريخ إحلال المسلمين مسكان
الميزنطيين في سيادة البحر الأبيض المتوسط .

(١) آثر الحسن التنازل عن حقه في الخلافة حين رأى تقاعس جند العراق عن نصرته ،
وعقد صراحة مع معاوية اعترف فيه بأن معاوية خليفة للمسلمين طوال حياته . ولكن جاء هذا
التنازل نقطة تحول في تاريخ معاوية وسلالته من بعده .

الفصل الثاني

معاصرة قاهر البيزنطيين

المرحلة الأولى في الجهاد الأموي

ضد البيزنطيين

استبهر معاوية على منجقة الشام الساجدة :

كان الرعيّل الأول من أولى الأصر في الدولة الإسلامية قادة من الطراز الأول في إدارة شئون دولتهم ، وإيثار ما يضمن لها الاستقرار والأزدهار ، ويهيء لها سبل العظماءينة والسؤدد ، على ما عداه من الأمور التي يزينها الهوى أو التي يعوزها رائد نفع أرض الإسلام . وحمل لواء هذه الطبقة الأولى من مؤسسي الدولة الإسلامية الخليفة عمر بن الخطاب ، الذي سجل له التاريخ الفوز بثصب السبق في تنظيم البلاد التي استظلت على عهدة بلواء الإسلام . إذ وضع لإدارتها دستوراً سار خلفاؤه على هديه في النهوض بشئون دولة الإسلام ، والعمل على رفاهيتها وتنظيم أحوالها ، حتى ساد السلام « دار الإسلام » على حد قول المصطلح الذي أطلقه الرحالة المسلمون الذين جاؤوا بقماع الدولة الإسلامية فيما بعد ، وأسهبوا في وصف ما رفلت فيه من أمن وهدوء وسعادة .

وكانت إحدى الخطوات التي اتخذها الخليفة عمر بن الخطاب في ميدان تنظيم الدولة الإسلامية وتدعيمها تفصيب معاوية بن أبي سفيان والياً على ما كان تابعاً لأخيه يزيد بن أبي سفيان من أرض الشام ، حين اختطفت المنية هذا القائد الأموي الأول من مسرح الأحداث في تلك البلاد . إذ جاءت خطوة

الخليفة عمر بن الخطاب فرصة أتاحت لمعاوية متابعة الجهود التي بذلها من قبل في الدفاع عن الدولة الإسلامية ، فرد غائلة البيزنطيين عنها وحصرهم في عقر أرضهم من « دار الحرب » على حد قول المصطلح الإسلامي ، الذي نعت الأمبراطورية البيزنطية بالعدوان والتحرش بأرض الإسلام .

تلقت معاوية أول دروس الجهاد ضد البيزنطيين في مدرسة الفتوحات الإسلامية التي قامت زمن الخليفين أبي بكر وعمر . وقد خرج منها بفائدة اختص بها وحده ، وجعلته قادراً على متابعة الرسالة التي ادخرها له الزمن في جهاد البيزنطيين بعد أن انفرد بحكم الشام وغدا المهيم عليه . إذ اضطلع معاوية بمهمة فتح المدن الساحلية من بلاد الشام ، وأدرك من العمليات الحربية التي دارت رحاها بينه وبين البيزنطيين في تلك المدن ما عليه خصومه من بأس وصلف وعناد . فقد عجم عودهم وعرف حقيقة أمرهم وطبيعة معدنهم مما خفي على غيره من قادة المسلمين الذين غابت عنهم هذه الأمور — التي مسها معاوية — وسط أحداث انتصاراتهم الباهرة وسحقهم البيزنطيين في ساحة اليرموك وأرض أجنادين . وكان لطبيعة الميادين الحربية بأرض الشام أثرها في تفتق ذهن معاوية وتحديد خطته إزاء البيزنطيين ، إذ دارت رحي الممارك الحربية بين المسلمين والبيزنطيين في الشام في جهات حددتها جغرافية هذا الاقليم ، ورتبت أحداث الوقائع حسب مسرحه الطبيعي . ذلك أن تضاريس الشام تمتاز بقتابع من أراضي منخفضة وأخرى مرتفعة ، تمتد موازية لبعضها البعض من الشمال إلى الجنوب مع ميل نحو الشرق . وكان لكل قسم منها مميزاته ، ولكن اقتضت هذه الأقسام على أربع مناطق متباينة ، الأولى على الساحل ، والثانية أرض جبلية بها الغابات ، والثالثة وديان الأردن ، والأخيرة المنطقة الملاصقة للصحراء^(١) .

(1) Hiiti, History of Syria, 130.

وبدأ المسلمون فتوحاتهم في المنطقة الأخيرة المتصلة بالصحراء ، حيث ينتهي
 بينها الشريان التجاري القديم الذي سارت فيه القوافل التجارية من مكة
 والمدينة إلى دمشق ، عبر هذه المنطقة الواقعة في الشام . وامتدت السلاسل الخربية
 الإسلامية إلى البلاد الواقعة شرق الأردن والبحر الميت ، التي كانت أولى البقاع
 التي استولى عليها المسلمون من أرض الشام . ثم تلى ذلك سقوط دمشق ومحاولة
 المسلمين تدعيم ما سيطروا عليه من أراضي الشام . فأصبحت ضرورة الزحف إلى
 ما وراء دمشق والاستيلاء على المنطقة الشمالية بمدنها من أنطاكية وحمص وحلب ،
 وتم لهم النصر في تلك الجبهة كذلك ، وثبتوا أقدامهم في شطر هام من إقليم
 الشام .

وهكذا انتصر المسلمون على طول الطريق القديم الذي ارتادته قوافلهم
 التجارية في رحلة الصيف ، تاركين المنطقة الساحلية التي فصلتها سلسلة جبال لبنان
 عن داخلية البلاد . وهذه المنطقة الساحلية كانت موضع اهتمام البيزنطيين ورعايتهم ،
 إذ أقاموا بمدنها الماقل للدفاع عنها وخصصوا حاميات كبيرة أشد أزرها ، منها
 حاميات قيصرية وعسقلان وغزة ويافا ، فضلاً عن الحاميات المربطة في المدن
 الأخرى الهامة مثل عكا وصور . وترجع العناية بهذه المدن إلى أنها نقط قريبة
 من أماكن يمكن أن يجتاز عندها الحاجز الجبلي الذي يفصل الساحل عن داخلية
 البلاد . فكان اتصال الساحل بالمنطقة الخلفية يتم عبر عدة فتحات هامة ، الأولى
 عند خليج الإسكندرونة ، حيث تؤدي إلى العراق ، والثانية فتحة عند وادي
 نهر السكلب شمال طرابلس ، وأخيراً فتحة عند مرج بن عامر شرقي عكا ^(١) .
 وأدرك المسلمون أثناء فتوحاتهم في إقليم الأردن خطورة بقاء المدن الساحلية
 ولا سيما صور وعكا في أيدي البيزنطيين ^(٢) . إذ جاءت الأمداد البيزنطية من هذه

(1) Hitti, History of Syria, 130, 131.

(٢) أطلق اليونانيون على المنطقة المحيطة بصور مباشرة اسم (سوريا) ، ثم عموماً الاسم =

المنطقة الساحلية لدفع المسلمين ، وعرفت تقدم عمرو بن العاص . واستمدح ذلك تآزر القوات الإسلامية ، حيث طلب القائد العام للمسلمين بالشام ، وهو أبو عبيدة بن الجراح ، من يزيد بن أبي سفيان أن يسير من دمشق لمعاونة القوات الإسلامية بمنطقة الأردن . وقد لبى يزيد الدعوة ، إذ سار بجيوشه إلى سواحل الأردن وعلى مقدمتها أخوه معاوية^(١) الذي بدأ منذئذ يدرك حقيقة هذه المنطقة وأنها مفتاح الشام واختناق الذي يجب انتزاع سيطرة البيزنطيين عنه لضمان بقاء المسلمين بهذا الإقليم .

أظهر معاوية في فتح هذه المنطقة الساحلية عبقرية مبكرة ، وبذل فيها جهوداً ذات « بلاء عسكراً وأثر جميل »^(٢) ، على نحو ما شهد له بذلك قادة المسلمين بالشام . فاستهل أعماله الموفقة في هذه المنطقة بالاستيلاء على عرقه ، على حين استعصمت سائر المدن الساحلية الأخرى على أخيه يزيد . إذ كانت هذه المدن فضلاً عن متانة حصونها ومنعتها متصلة بالبحر مباشرة تتلقى منه الأمداد البيزنطية والمؤن التي تضمن لها المقاومة والبقاء . فترك يزيد لأخيه معاوية مهمة إخضاع هذه المدن ، وعاد إلى دمشق^(٣) .

واتجه معاوية نحو مدينة من أهم المدن الساحلية بالشام وهي قيصرية . وكانت هذه المدينة قد استعصمت على عمرو بن العاص نفسه ، ذلك القائد الماهر الذي

فيما بعد حتى أصبح يشمل سائر الأراضي التي خضعت لهم . ولم يستخدم العرب ذلك الاسم للدلالة على الأراضي الواقعة شرق البحر الأبيض المتوسط كما فعل اليونان ، وإنما أطلق العرب اسم الشام على هذه المنطقة جميعها ، ابتداء من جبال طوروس التي بها ممرات قيليقياً شمالاً إلى شبه جزيرة سيناء جنوباً ، والتي يحدها غرباً البحر وشرقاً صحراء بلاد العرب . وتنقسم هذه المنطقة جغرافياً إلى أربعة أقسام ، الأولى المنطقة الساحلية تليها المنطة الجبلية ثم دويان الأردن وأخيراً المنطقة الملاصقة لصحراء بلاد العرب .

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٢٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

فتفتح منطقة فلسطين - إذ بعد مناصرة عمرو بن العاص فلسطين فتوجهها لفتح مصر ، ومار معاوية إلى هذه المدينة وألقى عليها الحصار ، وظل معاوية متاعراً في حصاره أمام المقاومة للمدينة وعنادها ، إذ كانت مثل سائر المدن الأخرى تلتقي الأسداد والآلات الدفاع من البحر ، وحدثت هجمات المسلمين المتوالية ، وظل الحصار الإسلامي على قيصرية عدة سنوات حتى تمكن معاوية أخيراً من اقتحامها سنة ٥٩٩ / ٦٤٠ م بفضل خيانة يهودى بالمدينة يدعى يوسف . إذ أتى ذلك الرجل إلى المسلمين ليلاً ودلهم على طريق يمكن مهاجمة المدينة منه بعد أن أخذ منهم أماناً لنفسه وأهله . ونجح معاوية بذلك في اقتحام المدينة ، وأخذ منها كثيراً من الأسرى والننائم أرسلها إلى المدينة بالحجاز ليعان السلطات المركزية بها نبأ هذا النصر المبين . واستقبل الخليفة عمر هذه الأنباء بالفرح العظيم وقدر لمعاوية هذه الجهود الطيبة والتفاني في تأدية واجبه (١) .

وكانت الأحداث تسير في الشام في ذلك الوقت بما يزيد في قوة معاوية ويحمله ينعم بثمار انتصاراته ، إذ كان انتقال عمرو بن العاص إلى ميدان مصر ، ثم وفاة يزيد أخى معاوية عاملاً مهد له الجو للانفراد بإدارة شؤون الشام واستكمال فتوحاته (٢) . فسكّتب إلى الخليفة عمر يستأذنه في فتح ما بقي من المدن الساحلية ويصف له حال المنطقة الساحلية بالشام الخاضعة للمسلمين ، ويذكر أنها معرضة للخطر البيزنطى . فأمره الخليفة بالعناية بتحصين المدن الإسلامية على الساحل ، وترتيب الجند فيها ، وإقامة الحرس على منازرها ، واتخاذ المواقف لها زيادة في الحيلة من أى هجوم مفاجئ . ثم أمره بعد ذلك بنزو ما تبقى من مدن فلسطين (٣) .

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ ؛ Miir, The Caliphate, 124, 143.

(٢) نولى أبو عبيدة بن الجراح إمرة الشام ، ولما توفى أثناء الوباء (الطاعون) الذى اجتاح الشام (١٨ هـ / ٦٣٩ م) عين الخليفة عمر بن الخطاب مكانة يزيد بن أبى سفيان ، ثم خلف معاوية أخاه يزيد .

(٣) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٩ .

سار معاوية لفتح مدينة عسقلان ولقي جهداً شديداً في حصارها ، إذ يستدل من أوصاف الرحالة المسلمين المتأخرين لها أنها كانت شديدة المنعة قوية الحصون ، لها أسوار مزدوجة ، وأهلها يستطيحون مقاومة الحصار مهما طال لكثرة أبار المياه العذبة بها ، وأشجار الجوز التي تقيم أود السكّان . وكانت هذه المدينة تدعى لأهميتها وعظمتها عروس الشام ، ويكثر بها الزيتون والسكر^(١) . ولذا لقي معاوية تعباً وعناءً في حصار المدينة ولم يستطع الاستيلاء عليها إلا صلحا . وما أن دخلها حتى أقام بها جنداً لحراستها والدفاع عنها^(٢) . على أن الطريقة التي خضعت بها هذه المدينة زادت معاوية يقيناً بما عليه أعداؤه البيزنطيون من عناد ، ودأبهم على قرض مضاجع المسلمين ، وأنهم لا يسلّمون أية مدينة في سهولة ويسر .

وأتت سياسة معاوية في تحصين المدن الساحلية التي استولى عليها ثمارها حين جدد البيزنطيون إغاراتهم بشكل عنيف على سواحل الشام أواخر عهد الخليفة عمر وأوائل خلافة عثمان . إذ تمسكت المدن الإسلامية من دفع هذا الخطر المفاجئ ، ثم سطر إليها معاوية حيث شد أزرها وأصلح ما خرب منها . ووضع معاوية في هذه المدن جنداً جديداً أغراه على الإقامة فيها بمنحه إقطاعات من الأرض يستثمرها ويتمتع بخيراتها .

وتابع الخليفة عثمان سياسة سلفه عمر بن الخطاب في السماح لمعاوية بفتح ما تبقى من مدن الشام الساحلية ، وزاد عثمان على ذلك بأن ترك الحرية التامة لمعاوية في تصرف شئونه بإقليم الشام . فاتجه معاوية إلى مدينة طرابلس التي كانت ميناء دمشق وفتح حياضها الاقتصادية . وكانت هذه المدينة تبرز سائر مدن الشام في حصونها وبهاؤها ، ولها ميناء عظيم يسع عدداً كبيراً من السفن .

(١) Le Strange, Palestine under the Muslims, 401, 402.

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٤٩ .

وامتازت هذه المدينة كذلك بأن البحر يحيط بها من ثلاث جهات ، تصل أمواجه إلى أسوارها ، على حين يحيط بسورها البرى خندق عظيم ، ويمتد انحدار آلات الدفاع من السرادات . وزاد في منعة هذه المدينة وسهولة حصولها على الأمداد وجود أربع جزر صغيرة تقع إحداها وراء الأخرى ^(١) في مياه البحر القريبة منها وتدخل في تهيئتها .

وجه معاوية إلى هذه المدينة سفيان بن يحيى الأزدي وأعد خفلة محكمة للاستيلاء عليها ، وكانت تهدف إلى تخفيف الحصار عليها براً وبحراً ومنع الأمداد من الوصول إليها من الأساطيل البيزنطية . فبنى القائد الأموي حصناً في مرج يقع على أميال من المدينة نسب إليه وسمى حصن سفيان ، وضيق الخناق على أهالي طرابلس . ولكن يبدو أن الحصار البحري لم يكن على نسق الحصار البري وأن البحر كان مفتوحاً أمام الأهالي . إذ لما اشتد الحصار كتب سكان المدينة إلى إمبراطور الدولة البيزنطية يطلبون منه إرسال أمداد أو إيفاد صراكب يهربون عليها . ولما لم يكن ثمة مناص من التسليم بعث إليهم الإمبراطور البيزنطي سفناً هربوا عليها في جنح الليل ، وخلت حصون المدينة من المدافعين عنها ^(٢) .

وفي صباح اليوم التالي حين هاجم المسلمون حصون المدينة لم يلقوا مقاومة ، حيث هجرها الجند ومن كان قادراً على الدفاع ، فاستولى عليها سفيان وأخبر معاوية بذلك . فاهتم معاوية بإعادة تعمير هذه المدينة لما لها من أهمية في حياة الشام الاقتصادية ، ولا سيما لمنطقة دمشق خاصة . فأرسل إليها جماعة كبيرة من اليهود وكذلك حامية عظيمة للدفاع عنها . وكان يحدد أفراد هذه الحامية كل عام ليحمل القوة المدافعة عن المدينة دائماً من الجند الشديدي البأس والراس ^(٣) . ويعتبر معاوية بذلك أول مدعم للفتوحات الإسلامية بالشام ، والمتمم للتنظيم

(١) Le Strange, OP Cit, 348

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٣٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

الإداري الذي سبق أن وضعه الخليفة عمر بن الخطاب لهذا الإقليم . إذ كانت الأجناس ، وهي الأقاليم الحربية التي أنشأها الخليفة عمر بن الخطاب في بلاد الشام عيين وقد إليها وعقد بها مؤتمر الجابية سنة ٦٣٩ م ، تفتقر إلى المنافذ الطبيعية لها على البحر . فجنّد الأردن كان مبعثراً لبقاء عكا وصور بأيدي البيزنطيين ، وجنّد دمشق مضيقاً عليه بسبب مقاومة مدينة طرابلس ، وكذلك جنّد فلسطين كان يعوزه الاستقرار بسبب بقاء عسقلان على المقاومة . وهكذا جاء معاوية واضطلع بمهمة الاستيلاء على هذه الثغور الحساسة ، وحقق المسلمين الاستقرار في ربوع الشام .

على أن معاوية أدرك الشيء الكثير عن البيزنطيين إبان العمليات الحربية التي اشتبك فيها معهم ، كما تفتحت مواهبه في تلك الفترة وهيأته لما ادخره له المستقبل من مشاريع كبرى في سبيل إعزاز الإسلام ورفع رايته . إذ عرف معاوية أن بقاء المسلمين في الشام لن يأخذ صبغة تامة ولن تستقر دعائمها طالما دأب البيزنطيون العناد ، وما تحدّثه به أنفسهم من الاعتداء على أرض الإسلام . فاتجه معاوية إلى التصدي للبيزنطيين وجعلهم يدركون حقيقة الفتح الإسلامي بالشام ، وأن العرب الجدد الذين حملوا لواء الإسلام يختلفون تماماً عما عرفوه عن عرب الغساسنة وغيرهم من بدو شمال بلاد العرب .

ولم يكن معاوية الشخصية التي ترتجل الأعمال وتقبل على ما تحدّثه به نفسه دون روية وإعداد ، إذ أدرك ضرورة الاهتمام أولاً بولايته بالشام وخلقها خلقاً جديداً حتى تصبح قادرة على أداء الرسالة التي ألقيت على عاتقه وكاهل رعاياه من هذا الإقليم . وأثبت معاوية في هذه المرحلة التمهيدية أنه حرى بأن يلقب « قيصر العرب » وقاهر البيزنطيين .

أداة الجهاد ضد البيزنطيين

عرف معاوية بمهاريته الفذة أن الجهاد يتطلب حسن إعداد طاقات البلد الذي يدير شؤنه ، وما يتصل بذلك من تأمين سلامته الداخلية بالقضاء على عناصر الاضطراب وإزالة كل ما يؤدي إلى القلق وعدم الاستقرار ، ثم انتفاء الأشخاص الذين يعرفون كيف ينفذون خطاه وأهدافه . وكان معاوية حراً في تنفيذ هذه السياسة وإعداد الأداة الحربية لمناهضة البيزنطيين منذ أطلق الخليفة عثمان بن عفان يده في إقليم الشام يتصرف في إدارته كيفما شاء . ولذا استهدف معاوية في سياسته الداخلية تحويل إقليم الشام وأهله ، بثروته وقواته وما به من شخصيات ذات مواهب عالية ، إلى الدافع عن أرض الاسلام وإعلاء كلمة المسلمين .

وضع معاوية نصب عينيه تحرق البيزنطيين أما لضياع ممتلكاتهم في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وأنهم لن يهدأوا إلا باستردادها وإخراج المسلمين منها صرة أخرى ، وألا طمأنينة للمسلمين ولا استقرار لهم إلا إذا اتحدت كلتهم وتم إعدادهم لتأدية ما يعهد إليهم به من واجبات الجهاد . وأظهر معاوية في هذا الاتجاه من ضروب الحذق والكياسة ما مكنه من أن يخلق من العرب سادة الصحراء أسراء للبحار ، وأن يقودوا الأساطيل عبر عباب المياه بنفس المهاراة والبراعة التي قادوا بها سفن الصحراء عبر الرمال والكثبان ، وحقق بذلك انقلاباً كفل للمسلمين الكلمة العليا على البيزنطيين . ثم دعم معاوية مجهوداته بلم شمل رعاياه في صعيد واحد ، جاعلاً من نظامهم القبلي وتقاليدهم البدوية مادة مدربة قادرة على زلزلة صرح أعدائهم .

أقبل معاوية على تنظيم المادة التي أمامه بمجد وحساسية وتهميتها لمهمتها الجديدة . فوجد في الشام غالبية عظمى من السكان العرب اليمنيين ، الذين حلوا

أرض هذا الأقليم منذ أمد بعيد قبل الاسلام . وقام إلى بطونهم جماعات من عرب الشمال^(١) الذين وفدوا إلى الشام مع تيار الفتوحات الإسلامية . وكان هذان العنصران يحملان في نفوسهما ما فطرا عليه منذ أقدم العصور من إحن وبغضاء تولدت عندهما قبل ظهور الاسلام . وقد عرف أهل الجنوب باليمنيين ، وكان لهم قديماً قسطنطا وقسطوافر من الحضارة والمدنية وكذلك السيادة على عرب الشمال الذين عرفوا بالمصريين . وقد جهد المصريون قبل الاسلام على التخلص من ربة عرب الجنوب ، ولكن لم يقيس لهم غير الزعامة الثقافية ، حيث أصبحت لغتهم العربية اللغة السائدة في أنحاء الجزيرة . وظلوا من الناحية السياسية يؤدون الجزية لعرب الجنوب ، واشتبكوا معهم في بعض الوقائع الحربية أججت نيران الحقد والبغضاء .

ولما ظهر الإسلام قضى على النزاع القبلي ، واستطاع الرسول أن يظهر قلوب العرب من الضغائن والأحقاد ، ونجلى ذلك بصورة واضحة في المدينة بصفة خاصة . ثم جاءت موجة الفتوحات الإسلامية وحملت كثيراً من المصريين معها إلى الشام ، واستقرت غالبيتهم في دمشق وفلسطين . ويظهر أن عوامل البغضاء كانت كاللظى في الرماد ، قابلة للاشتعال إذا ما تهيأت لها الفرص . غير أن عمر بن الخطاب لم يتح تلك الفرص أمام هذه الأحقاد لما ألقاه على عاتق العرب من أعمال الفتح الرائعة . ولكن ما أن جاء عهد الخليفة عثمان حتى وجدت البغضاء بين القبائل

(١) انقسم سكان بلاد العرب إلى قسمين رئيسيين ، هم عرب الشمال وغالبيتهم أقاموا في نجد والحجاز ، وكانت لغتهم هي العربية الفصحى ، والقسم الآخر عرب الجنوب وغالبيتهم سكنوا اليمن وعلى طول الساحل المجاور ، وكانت لغتهم السبئية أو الحميرية . وكانت السيادة دائماً لعرب الجنوب في النواحي السياسية على حين سادت لغة عرب الشمال سائر البلاد قبل الاسلام . وكانت العداوة منتشرة بين هذين القسمين ، ولم يضع حداً لها إلا ظهور الاسلام . على أن المظالم الشخصية فيما بعد أثارت العداوة القديمة ؛ وظهر التنافس بين عرب الجنوب وعرب الشمال في آخر أيام الدولة الأموية ، وكان من العوامل الهامة التي قضت على هذه الدولة .

العريضة متنفساً لها ، وبدأت تلاحقها جالية في إقليم الشام بين المضريين
واليمينيين (١) .

وهكذا وجد معاوية تركة مثقلة لا بد من تصفيتيها والاستفادة مما بها من
مميزات للقيام بمشاريعه الحربية ضد البيزنطيين . وكانت مهمته غير سهلة ، إذ هو
من المضريين أو عرب الشمال ، على حين معظم سكان إقليم الشام القدامى من
اليمينيين أو عرب الجنوب . ولسكن معاوية استطاع أن يذلل هذه القبيلة بتفريده
إلى القبائل اليمنية في الشام حتى استطاع أن يوجههم إلى حيث يريد . وخطى
خطواته الموفقة في تلك السبيل بضم قبيلة بني كلب ، التي كانت أهم وأقوى القبائل
اليمنية في الشام إذ ذاك ، إلى دائرة نفوذه .

وكانت هذه القبيلة وريثة مجد الفساسة وأفرادها سادة إقليم الشام حتى
أصبح اسم بني كلب مرادفاً لعرب الشام . وكانت عظمتهم تستند إلى أسس
اقتصادية قوية ، إذ كانوا يملكون غوطة دمشق ومنطقة جنوب جبل حرران
وواحة دومة الجندل وتبوك . وهيات لهم هذه البقاع السيطرة على الطرق التجارية
التي تخترقها فضلاً عن الينابيع المائية الكثيرة بها (٢) . وكان معاوية يدرك أهمية
هذه القبيلة منذ أيام الخليفة عثمان ، الذي تزوج امرأة من بينهم تدعى نائلة .

وأبدى معاوية مهارة وكياسة في إزالة طلائع التناحر التي كادت تندلع في إقليم
الشام بين قبيلة كلب وغيرها من القبائل اليمنية وبين المضريه من عرب الشمال .
إذ كان أولئك العرب اليمينيون بالشام ممن تأثروا بالنظم البيزنطية وتعودوا بذلك
الخضوع للنظام الذي يعتبر من أهم أركان الدول . ثم إنهم كانوا على وفاق مع
سكان الشام الأرامي الأصل ، وامتزجوا معهم في المدن الكبرى غير متخذين لهم
معسكرات خاصة يقيمون بها . وكان لهذه الظاهرة أثر كبير بعد الفتح الإسلامي ،

(١) سيد أمير عل ، نفس المرجع ، ص ٦٧ .

(2) Lammens, Etudes sur Le règne du Calife Mo' Awia Ier . 286, 289

إذ بينما أقام العرب الفزاة في العراق في معسكرات جديدة منفصلة عن السكان ، سار العرب النازحين حديثاً إلى الشام مع تيار الفتوحات على نهج أسلافهم القدامى وعاشوا داخل جدران المدن الشامية . ولذا كان من السهل القضاء على بوادر الشقاق القبلي بالشام ، إذ استطاع معاوية أن يجذب إليه عرب الجنوب القدامى ، الذين ألقوا طاعة الأمراء والحكام ، ولم يجدوا فارقاً في تحويل ولائهم إلى هذه الشخصية الإسلامية الجديدة^(١) .

وتوج معاوية جهوده في هذا الميدان بمحاكاة سلفه عثمان بن عفان ، إذ صاهر قبيلة بني كلب ليضمن له شيمة وأنصاراً ويحقق لنفسه استقراراً وأمناً . فتزوج بـأبنة أحد سادة قبيلة بني كلب وتدعى «يسون» وكانت من بيت عريق يقيم بالقرب من تدمر . وفحصاً عن ذلك كانت غالبية منازل هذه القبيلة لا تبعد عن دمشق ، مقر معاوية ، سوى بضعة أميال . وكان والده «يسون» يدعى بحمل من نال مكانة عالية في الشام بعد انفتح الإسلامى ، إذ منحه المسلمون إقطاعاً من الأرض في دمشق ، مما يدل على الخدمات التي أداها للمسلمين في فتوحاتهم في الشام^(٢) .

وجنى معاوية ثمار جهوده في تنظيم قبائل الشام وضمها إلى صفوفه ، إذ غدا اليمينيون يكونون غالبية الجيش الشامى وعدة معاوية في حملاته ضد البيزنطيين ، ورددوا له دائماً قولهم أنهم رهن مشيئته وطوع إرادته . وساهم اليمينيون كذلك بشكل رائع في الحملات البحرية ، حيث فضل معاوية الاعتماد عليهم في الميدان البحرى ، وتسبب أساطيلهم منهم للقيام بالجهاد في هذه الجبهة التي تتطلب إخلاصاً تاماً . وأثبت اليمينيون أنهم جديرون بثقة معاوية حيث امتازت حملاتهم البحرية على البيزنطيين بالعنف والشدة^(٣) . ولم يتردد معاوية في إجزال العطاء للجنود

(1) Weilhausen, op cit, 131, 133 .

كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب العربية ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(2) Lammens, op cit, 286.

(3) Lammens, op cit, 52, 53.

اليمنيين ، فكان السكليون منهم يأتون في المرتبة الثانية السفليتين في العطاء ،
ونال ألفان منهم صرخ العطاء ، لكل فرد ألف درهم من الخليفة . ومنحهم الخليفة
حق تنظيم شؤونهم المحلية دون تدخل من الحكومة المركزية ^(١) .

وأكل معاوية هذا العمل بمراقبة شيعته من بني أمية ، فعاملهم بحذر وتبصر
وحكمة ، حتى لا يصبحوا موضع خطر عليه في يوم من الأيام . ونجح في هذه
المهمة أيضاً لأنه أخفى عن نفسه مظاهر الطاغية في حكم أتباعه ، وإنما عاملهم
كسيد من سادة القبائل القديمة ، يعقد اجتماعات لهم بعد صلاة الجمعة في المسجد
ويباحثهم في شؤونهم ، كما عقد لهم أشباه هذه المجالس في القصر واستقبل
وفودهم التي تأتي من سائر الأمصار ، ويصغي إلى شكائاتهم ^(٢) .

واهتم معاوية بالنواحي الاقتصادية لإقليم الشام ، ليستطيع الانفاق منها على
مشاريعه الحربية ضد البيزنطيين . وكان هذا الاهتمام موضع عنايته منذ أن
انفرد يشئون الشام . إذ كتب إلى الخليفة عثمان بن عفان يطلب منه الحصول
على أراضي وضياع الشام التي يذهب ريعها إلى بيت المال في مكة نظراً
للحملات الحربية الواسعة التي يشنها ضد البيزنطيين ، فضلاً عما يتطلبه من نفقات
لاستقبال سفراء الدولة البيزنطية ، وتدريب مصاريق البعثات التي يوفدها إلى
القسطنطينية ^(٣) . وأجاب الخليفة إلى طلبه ^(٤) ، مما جعل معاوية يضع الحجر

(1) Kremer, Orient under the Caliphs, 319

(٢) كارل بركلان ، نفس المرجع ، ص ١٤٩ .

(3) Kremer, op cit, 125.

(٤) كانت الأرض التي طالب بها معاوية تابعة في الأصل للأنباط الذين دخلوا في الولاء
للدولة البيزنطية . ولما هزم البيزنطيون هرب عدد من بطارقة الأنباط وهجروا مزارعهم ،
على حين قتل كثير منهم أيضاً في حملات المسلمين على الشام . فصارت مزارعهم وقراهم تابعة
للسلطات المركزية الإسلامية مباشرة ، « ولم تزل تلك المزارع موقوفة مقبلة تدخل قبالتها بيت
المال ، فيخرج نفقة مع ما يخرج من الخراج » حتى كتب معاوية في إمرته على الشام إلى عثمان
أن الذي أجراه عليه من الرزق في عمله ليس يقوم بخون من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسول
أمرائها ، ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها . وصف في كتابه هذه المزارع الصافية =

الأول في بناء اقتصاديات الشام والاستقلال بمرافقه الاقتصادية ليوجهها حسبما يشاء في الفواحي الخيرية .

وانتقل معاوية من تنظيم الشام وأهلها ومرافقه إلى إعداد الهيئة المباشرة التي تقوم بتنفيذ مشاريعه الخيرية ضد البيزنطيين . وكانت هذه الهيئة من شيعته المخلصين له وغدت ساعده الأيمن في أداء كل ما يريد . وكان اختيار معاوية لهذه الطبقة من الرجال اختياراً سليماً دل على صدق فراسته وحسن مواهبه . ذلك أن اشتغال معاوية بعد إسلامه مع الرسول الكريم جعله يدرس عن كثب الشخصيات التي كتب له التاريخ أن يتصل بها فيما بعد سواء في ميدان الحبة والصدقة أو الدابة والبغضاء . إذ كان كثير من الشخصيات التي ناهضت معاوية فيما بعد ، وكذلك التي استطاع أن يجذبها إلى جانبه ، من صحابة الرسول ومن التفت حوله واضطلعت بأداء مشاريعه .

وكان للبيئة التي نشأ فيها معاوية أيضاً أثر كبير في اختيار معاوية ، فهو ابن أبي سفيان زعيم مكة وأعظم شخصياتها حنكة وتجربة ، وأوسعها اتصالاً بالبيوتات الكبرى في مدن الحجاز ومع القبائل العربية بها كذلك ، إذ استازمت أعماله التجارية توسيع دائرة اتصالاته ودراسته مع من يتعامل معهم ، ومعرفة كل واحد منهم معرفة دقيقة لا لبس فيها ولا غموض . فتلقن معاوية على يد هذا الرجل العظيم أصول الحكم وإدارته كما يفهمه أهل مكة ، ووفق وجهة النظر التي رآها أبوه ، من حيث تكوين الانصار والأشياع واصطلاح الرجال والعمال .

وهكذا أخذ معاوية يقلب النظر في صفحات رجال الحجاز ومدنها لينتقى منهم من هو جدير بثقته ، وحرى بالنهوض بمشاريعه التي تعينه على تأمين دولة

= وسماها له ، وسأله أن يقطعه لإياها ليقوى بها على ما وصف له . فكتب إليه عثمان بذلك كتاباً . ولم تزل بيد معاوية حتى قتل عثمان وأفضى إلى معاوية الأمر ، فأقرها على حالها :
أنظر ابن عساكر ، نفس المرجع ، ص ١٨٣ .

الإسلام وتقليم أظفار أعدائه البيزنطيين . فأنشد من أبناء مدينة الطائف ^(١) بعض رجالها الممتازين . وكان أبناء ثقيف أشهر أهالي هذه المدينة التي اعتبرها بحار قريش توأم مكة في الجاهلية والعظيمة ، كما نظر إليها المسلمون على قدم المساواة مع مكة والمدينة بعد انتشار الإسلام في أرجاء بلاد العرب . وكان لقريش اتصال وثيق مع بني ثقيف قبل الإسلام ، وعرفوا فيهم الذكاء اللامع والنشاط المافر ، فضلا عما كان لقريش من أملاك بالطائف جعلتهم أشد اتصالا ومعرفة بحقيقة سكانها والتمييز بين طبقاتها . ونبت من بني ثقيف على عهد مساوية شخصية المفيرة بن شعبة وزيد بن أبيه ^(٢) ، وكانت لهما جهود موفقة في تأمين سلامة الدولة في الداخل ، وتهيئة الجو لمساوية للتفرغ إلى مشاريعه الخارجية .

وظهر من شيعة معاوية في ميدان العمليات الخيرية ضد البيزنطيين عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وحبيب بن مسلمة ، وبصر بن أبي أرطاة ، والضحاك بن قيس ، وأبو الأعور السامي ، وشرحبيل بن الصامت الكندي . وكان الأربعة الأول من أصل مكى ، أما أبو الأعور فمن القيسية أو عرب الشمال الذين يمت لهم معاوية بصلة القرى . وفضلا عن ذلك كان والد أبو الأعور من الشخصيات التي حاربت إلى جانب أبي سفيان في معركة أحد ومن المؤيدين لبني أمية ، مما جعل ابنه موضع عناية معاوية ورعايته ^(٣) ، ولم تكن الحباة وحدها هي الأساس الأهم والأوحد في انتقاء معاوية لهؤلاء الرجال دون غيرهم ، وإنما كان كثير منهم من خدم أبا بكر وعمر ورأى أن يستفيد بجهودهم ومواهبهم ، ولا سيما أولئك الذين أظهرتهم أحداث الفتوحات الإسلامية بالشام ^(٤) .

(١) تقع مدينة الطائف على ارتفاع كبير من الأرض يبلغ ستة آلاف قدم ، وكثرت فيها الأشجار الظليلة حتى وصفت بأنها قطعة من أرض الشام ؛ وكانت مصيف الطبقة الارستقراطية من أهل مكة . واشتهرت بالورود ذات العطر والتي استمد منها أهل مكة ما احتاجوا اليه من طيب . وكثرت بالطائف الكروم والتين والزيتون ، وكان يبيذها رائجا ويقبل عليه سكان مكة .

(2) Wellhausen, op cit, 113.

(3) Lammens, op cit, 42, 43.

(4) Ibid, 44.

وتبين هذه السياسة حرص معاوية على اختيار ذوى التجارب الواسعة ،
أو ممن لهم مطامح يمكن استغلالهم عن طريقها لتدعيم نفوذه في الشام ، ثم متابعة
مشاريعه ضد البيزنطيين . وكان من يمثل هذه الظاهرة عبد الرحمن بن خالد
بن الوليد ، إذ هو ابن تلك الشخصية التي عزلها الخليفة عمر ، ورأى معاوية أن
يعيد لابن خالد بن الوليد شيئاً من النفوذ والسلطان . وأدى ذلك إلى ظهور طبقة
جديدة من الرجال « Homines novi » ساروا في ركاب معاوية وتقاتلوا في
نصرة قضيته وتحقيق أهدافه . ولذا أغدت هذه الطبقة الجديدة « من الرجال تتكون
من أبناء الطبقة الوسطى من قریش ، الذين لا يخشى معاوية منهم بأساً
أو ضرراً ^(١) » ، إذ آثر معاوية الابتعاد عن أقاربه ذوى المطامح الواسعة ووضعهم
تحت مراقبته ، واسكن أغرقهم بالمطايا والمنح ليضمن ولائهم وهدوئهم .

وآنت سياسة معاوية فوزاً محققاً ، فكان أولئك الرجال الذين اعتمد عليهم
في الدفاع عن أرض الإسلام وحمايتها ممن يملكون بشئون الشام ويعرفون أحواله
معرفة جيدة . إذ وفدوا جميعاً إلى الشام مع الجيوش الإسلامية الأولى وهم في ريعان
الشباب باستثناء شرجيل . وبدأ كثير منهم حياته العامة الأولى تحت إمرة يزيد
ابن أبي سفيان ، الذي كان معاوية على مقدمة جيوشه . ثم انتقلوا إلى التبعية
لمعاوية بعد وفاة أخيه يزيد ، واحتفظ بهم معاوية دون أى تغيير حيث كانوا أداة
مدرّبة صالحة للنهوض بأعباء مشاريعه . وأثبت معاوية بذلك أنه خير سلالة
بنى أمية وأجدرهم على تنفيذ سياستهم المرسومة في الاحتفاظ بالأعوان والأنصار
ومتابعة هذه السياسة على أحسن الوجوه ^(٢) .

وتقاتل أولئك القادة في الدفاع عن أرض الإسلام ضد هجمات البيزنطيين ،
فاشتهر حميد بن مسلمة بحملاته المظفرة البرية في أرض الجزيرة وأرمينيا وقبادوقيا

(1) Lammens, op cit, 43.

(2) Ibid. 44, 45.

بآسيا الصغرى ، على حين اشتهر بصر بن أبي أرطاة في عهدى الماركة والنزوات
البحرية في البحر الأبيض المتوسط . وعلى صدق وإخلاص هؤلاء القادة حين نشبت
الحرب الأهلية بين على ومعاوية ، إذ وقفوا إلى جانب معاوية وآزروه في فضاله .
فغارب حبيب إلى جانب معاوية في معركة صفين ، وسار أبو الأعور المساعدة
عمرو بن العاص في استرداد مصر من عامل على بن أبي طالب عليها ، على حين
توجه بصر بن أبي أرطاة إلى بلاد الحباز لإعادتها إلى التبعية لمعاوية (١) .

وبذلك تعاون أتباع معاوية على كسب النصر له في الحرب الأهلية بينه
وبين على ، على حين أتم بعض معاوية الآخر ، وشم المخيرة بن شعبه وزياد بن أبيه ،
تدعيم هذا النصر فيما بعد . إذ كانت الجبهة الشرقية من دولة معاوية تقطاب عنفا
خاصة من حيث نوع الولاة الذين يديرون شئونها ليتفرغ لحروب ضد البيزنطيين
على الجبهة الغربية . فسكان على أولئك الولاة تثبتت سلطتان الأمويين بين أهل
العراق الذين كانوا دائماً يرفعون راية العصيان ضدهم ، ويأتفون من الدخول في
التبعية لأهل الشام . فممن معاوية المخيرة بن شعبة وهو أحد رجال الطائفة من
بنى ثقيف النخاسين على الكوفة ، وأدى هذا الوالى مهمته خير أداء ، إذ أخذ
يفسد بدهائه البارع العلاقات بين الخوارج وبين الشيعة أتباع على بن أبي طالب
وشغلهم بذلك عن مناوأة معاوية ومعارضته (٢) .

وقام معاوية بعمل آخر رائع أكتسب به شخصية أخرى عظيمة من أبناء
الطائفة وهو زياد . وكان هذا الشخص ممن يحيط بأصله الفموض ، فاستقدمه
إلى دمشق واعترف به إبناً غير شرعى لأبي سفيان ، ورفعته إلى مصاف إخوته .
ومنذ ذلك الحين تفانى زياد في خدمة البيت الأموى وإعلاء شأنه . فولاه
معاوية على البصرة ، واستطاع أن يخدم الفتن والقلقل بها بعد أن كان لا يهدأ

(١) Lammens, op cit, 48, 49.

(٢) كارل برلمان ، نفس المرجع ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

لها قرار . وعندما توفي المغيرة سنة ٦٧٠ م صار زياد والياً على البصرة والكوفة كذلك ، وتابع سياسته في إخماد الفتن بالعراق وقضى عليها تماماً ، إذ حل منظمات القاتلين القبيلة القديمة العهد بهذه البلاد وأعاد تنظيمها على أسس جديدة . فقسم الجند بالعراق إلى أربعة أقسام ، جعل على رأس كل قسم منها رجلاً من المواليين للبيت الأموي ومن يستطيع كبح جماح أولئك الجند^(١) .

وغدا زياد يحكم من البصرة نصف الامبراطورية الإسلامية وأمن جانبها وجعل الهدوء يسود أرجائها ، مما مكن معاوية من استئناف جهاده ضد البيزنطيين . فتابع شيعة معاوية الأثرات على أراضي الدولة البيزنطية ، وخطوا بجهادهم « كتاب مغازي معاوية » . وبلغ من تفانيهم أن أطلقوا عليهم أسماء التكريم والفخر ، فلقب حميد بن مسلمة « بحبيب الروم » لإخاراته الموفقة على أرض الروم ، أي البيزنطيين^(٢) ، على حين أخذ عبد الرحمن بن خالد يغير سنوياً على تخوم الدولة البيزنطية ويوقع بجندها الهزائم القادحة . أما بصر بن أبي أرطاه فقاد أسطول معاوية الناشئ وسجل به تاريخ المسلمين البحري المبكر على صفحات البحر الأبيض المتوسط ، بما يرفع من شأنهم ويثبت جدارتهم وبسالتهم في العمليات الحربية في هذا الميدان الجديد .

وكانت آية تفاني أولئك القادة في جهادهم ضد البيزنطيين شخصية أمير البحر على عهد معاوية ، ويدعى عبد الله بن قيس الحارثي من بني فزارة . إذ قام هذا القائد بخمسين غزوة بحرية صيفاً وشتاء دون وجل ولا خوف . فكان يذهب ليستطلع أماكن البيزنطيين ويدرس طرق مفاجاتهم ، وإنزال الهزائم بهم . وقد دفع حياته ثمناً جرأته في آخر الأمر ، مسجلاً بذلك أروع الآيات على تفاني عمال معاوية في الجهاد من أجل إعزاز الإسلام ضد البيزنطيين . ولقى عبد الله بن قيس حتفه حين خرج في أحد قوارب الاستطلاع لدراسة أحد موانئ البيزنطيين . وكان مختفياً في زى أحد التجار ، ونزل على المرقأ دون

(١) كارل بروكلمان ، نفس المرجع ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(2) Encyc. of Islam (art Habib).

أن يفتنه إليه أحد . ولكن بعض الصلابة كشفت أسره ، إذ حدث أن كان على الميناء بعض الشعافين ، وتقدمت منهم امرأة تستجدي منه صدقة ، فأعطاهما وأجزل لها العطاء مما أثار ربيتها واستغلت نظرها . فهرولت إلى حراس الميناء ، وقالت لهم إن عبد الله بن قيس بالميناء ، مما يدل على شدة بأسه وسعاوته وأنه كان موضع حديث سكان الموانئ البيزنطية . فأسرع الجند إلى الميناء وهاجموا عبد الله على حين هرب الملاح المرافق له وجرى إلى المركب وأخبر أصحابه بما حدث . وكان سفيان بن عوف الأزدي خليفة عبد الله على المركب ، فجهد في مناوشة الجند ليشغلهم ويحملهم على إطلاق سراح عبد الله ، ولكن لم يستطع إنجاز ذلك العمل وعاد إلى قواعده بعد قتل عبد الله بن قيس . ويروى أن المرأة المستجدية سئلت بعد ذلك عن الطريقة التي عرفت بها شخصية القائد الإسلامي فقالت : إنه كان كالتاجر فلم أعرف عنه شيئاً في مبدأ الأمر ، ولكن حين سألته أعطاني كما يهب الملوك فعرفت أنه عبد الله بن قيس^(١) .

وهكذا استطاع معاوية أن يحمل من شيعته جنداً مخلصين ورجالاً صناديد ، لا يعرفون غير الشام وطناً لهم ، يزودون عن حياضه بأنفسهم في غير تردد ولا وجل . وكان أحب لقب يندق عليهم هو أنهم من أهل الشام ، فأطلق معاوية على بصر بن أبي أرطاه « سيد أهل الشام »^(٢) ، وغدوا بمن ينطبق عليهم لقبهم للدفاع عن الشام ضد البيزنطيين ، الغزاة الذين تفانوا في البلد المفتوح

« Graecia capta ferum victorem capit »^(٣) .

وكان من حسن طالع الدولة الإسلامية أن يتم معاوية تدعيم مركزه بالشام وينتهي من استعداداته في وقت قد أفاقت فيه الدولة البيزنطية على عهد الأباطورين قنسطانز الثاني وابنه قنسطنطين الرابع ، وجهدت في استرداد أملاكها من المسلمين وإيقاف تيار فتوحاتهم

(١) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٥٣ .

(٢) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٨٧ .

(3) Lammens, op cit, 56.

المسحوة البيزنطية على ظهر قنسطانز الثاني وقنسططين السابع :

في الفترة التي جهد فيها معاوية على تنظيم بلاد الشام وتسيئة مواردها للجهاد واصطناع الأشياع والعمال ، كانت الدولة البيزنطية تشهد فترة عمالة حاولت السلطات فيها أن تلم شعها وتضم صفوفها وتفيق من عثرتها التي أوقعتها فيها الفتوحات الإسلامية . وكان أباطرة الدولة البيزنطية يستهدفون إعادة ما فقدوه من أملاك أخذوا منهم المسلمون ، دون أن تحسبهم أنفسهم بصعوبة تحقيق هذه المشاريع ، ودون أن يدركوا ما عليه المسلمون من قوة وبأس وأنهم يختلفون تمام الاختلاف عن سائر القوى التي لحتكوا بها قبل ظهور الإسلام .

وكانت الدولة البيزنطية بأباطرتها تستلهم وعى ماضيها في استطاعتها الفوز على المسلمين ، وأن في قدرتها أن تقال من عثرتها وتستعيد سالف هيبتها . فالتاريخ البيزنطي يمتلئ بسلسلة متصلة الحلقات من الهزائم القاصمة والفوضى المريعة وبأخرى زاهرة بالانتصارات الرائسة والاستقرار التام ، مما جعل أهالى الدولة البيزنطية يشعرون بوجود عامل دائم يهيئ لدولتهم عمراً طويلاً رغم ما يحيط بها من أعاصير وأنواء . وكان هذا العامل قدرة الدولة البيزنطية على أن ترفع إلى عرشها في فترات الأزمات والشدائد أباطرة أصحاب مواهب عالية ، يأخذون بيدها ، ويجنبونها العثرات والغناء ، ثم ينهضون بها إلى مستواها الرفيع مرة أخرى .

ونجحت هذه الحقيقة قبل ظهور الإسلام مباشرة ، إذ اكتسح الفرس الساسانيون أراضي الدولة البيزنطية وهددوا عاصمتها نفسها بالدمار . ولكن انبجحت هذه الكارثة عن ظهور شخصية الامبراطور هرقل على عرش الدولة البيزنطية (٦١٠ م) ، واستطاع أن يقود سفينتها في حذق ومهارة ، وطرد الفرس وحول انتصاراتهم إلى هزائم فادحة ، واسترد مرة أخرى ممتلكاته من أيديهم .

ولكن ما كاد الامبراطور البيزنطى يعود إلى عاصمته حتى أخذت موجة الفتوحات الإسلامية تسكتسح أرض الشام ، وأنزلت بجيوشه من ألوان الهزائم ما جعله يودع سوريا نهائياً قائلاً « عليك يا سوريا السلام ، ونعم هذا البلد للمدو »^(١) .

وكان هذا الوداع البيزنطى وداعاً حقيقياً فى تلك المرة لا رجعة فيه ، رغم تشبث الامبراطور ودولته بالتعلق بأى معقل يمكن أن يعرقل حركة التقدم الإسلامى ، ويساعده على طرد المسلمين مرة أخرى ، ويعيد بذلك قصة الحروب الفارسية . وتجلى هذا الأمل فى دفاع البيزنطيين عن مدينة قيصرية التى حاصرها معاوية مدى طويلاً ، إذ تولى المقاومة فى هذه المدينة قنسطنطين ابن الامبراطور هرقل نفسه . ولم تسلم المدينة إلا حين اضطر قنسطنطين إلى الهرب والمودة إلى العاصمة لاضطراب الأحوال فيها فى أواخر حياة أبيه . فدب الوهن فى حامية المدينة وسامت آخر الأمر لمعاوية وقواته^(٢) .

عاد قنسطنطين إلى العاصمة تاركاً وراءه إقليم الشام نهائياً فى قبضة معاوية ، الذى أخذ يعد له مساعى أن تقوم به الدولة البيزنطية من محاولات لاسترداد هذا القطر الهام . وكان معاوية صادقاً فى فراسته وآرائه ، إذ كانت الدولة البيزنطية تعمل جاهدة إذ ذاك على التخلص مما حل بها من اضطراب ، وتسلم أعنتها لشخصية جديرة بتصرف شئونها وتبعد عنها تيار الزحف الإسلامى . فمذرجع قنسطنطين إلى عاصمة بلاده ألفى الفوضى متفشية فى إدارتها ، بسبب تدخل مارتينا زوجة أبيه هرقل فى شئون الدولة . فكانت هذه المرأة الجميلة الشابة تعمل على إقصاء ذوى الخطر عليها من القادة ، وتمهد الجولانها هرقلوناس ليقولى عرش الدولة . وساعد مارتينا على تنفيذ مآربها أن كثيراً من القادة البيزنطيين عادوا منهزمين من الميدان الشامى ، فأنهمتهم بالتقصير والعجز وأطاحت بالكبار منهم .

(١) أنبلادى : فحوخ البلدان ، ص ١٤٣

(٢) سيد أمير على : موجز تاريخ العرب ، ص ٣٧ .

وتمكنت الامبراطورة أن تحصل من هرقل على وصية تنص على أن تتولى هي ومعها ابنها هرقلوناس العرش ، بالاشتراك مع ابنه قنسطنطين الثالث . وكانت تبغى من وراء ذلك التمسكين لابنها الصغير وإعداده للحكم . غير أن الشعب البيزنطى أبى أن يشترك فى حكمه امرأة ، وكان يفيض هذه الامبراطورة الوصية بالذات ، وانقسم على نفسه فى هذا الصدد قسمين ، أحدهما يعادى الامبراطورة وابنها ، ويطلب أن ينفرد قنسطنطين الثالث بالحكم ، على حين نادى حزب آخر بمناصرة مارتينا وابنها . ولكن تغيرت الأحداث فجأة فى هذه الظروف ، إذ توفى قنسطنطين الثالث بعد أن حكم ثلاثة أشهر ونصف شهر . فشاع الاعتقاد بين الناس أن مارتينا دست له السم ليخلوها الجو . وترتب على هذه الشائعات أن نهض الجيش للدفاع عن حقوق قنسطنطين المتوفى ، وطالب بتنصيب ابنة على العرش الامبراطورى مكان أبيه . وانتهى الأمر بتولية هذا الابن العرش إلى جانب مارتينا وابنها ، وأطلق عليه الشعب اعتزازاً اسم قنسطانز . ولم تلبث الحركة الشعبية أن تطورت وعزلت مارتينا وابنها هرقلوناس ، وعاقبهما الثوار بقطع لسان الأم ، وجذع أنف الابن ، ونادوا بقنسطانز الثانى امبراطوراً بمفرده سنة ٤٢٤ م ، وكان عمره إذ ذاك أحد عشر عاماً .^(١)

وباعتلاء قنسطانز العرش وحده تغلبت الدولة البيزنطية على أزمة حادة قبل مضى السنة التى توفى فيها الامبراطور هرقل نفسه ، وتطلعت إلى حفيده ليعيد لها مجدها السالف ضد المسلمين . وكان للوسط الذى نشأ فيه قنسطانز أثر كبير فى السياسة التى اختطها لتصرف شئون دولته والدفاع عنها . إذ جعلت منه الدسائس والمؤامرات التى أحاطت به فى أولى أيام حياته رجلاً نشطاً يقظاً محباً للاعتماد على نفسه ، وبدأت تظهر ما انطوت عليه نفسه من صفات حين أصبح رشيداً قادراً على إدارة دفة الشئون العامة . فرأى أولاً ضرورة تطهير الدولة

(1) Bury : A History of the Later Roman Empire, II 281 287.

عما علق بها من أدران الحوادث السابقة ، قبل الانجاء نحو المسلمين الذين زلزلوا وعالم دولته .

بدأ قنسطانز بالقضاء على عناصر القلق والاضطراب في دولته ، وكانت مستوطنة إذ ذاك في إقليم آسيا الصغرى ، إذ غدا مقر الثائرين على الأباطرة البيزنطيين ومركز تجمع المناوئين لسلطانهم . فكانت بعض القوات البيزنطية بآسيا الصغرى خارجة عن طاعة قنسطانز بسبب تحريض بعض الحاقدين على هذا الإمبراطور من رجال العهد الماضى . وتطور الأمر بأن شق الجند عصا الطاعة ، وتحول تمردهم إلى ثورة ساقرة على الإمبراطور قنسطانز . ولكن هذا الإمبراطور قابل الثوار ببأس وعزيمة قوية ، وبرهن على ما تتمتع به من حزم وجلد حين حاصر مناطق القوات الثائرة سنة ٦٤٥ م ، وضيق عليها الخناق حتى سلمت ، ودخلت صاغرة في التبعية والطاعة مرة أخرى لسلطانه ونفوذه^(١) .

وأتبع قنسطانز سياسته الداخلية بحل بعض المشاكل الخارجية ليمتدح نهائياً للمسلمين . ولكن لم يستطع أن يفرغ منها تماماً ، واضطر إلى توزيع جهوده بينها وبين محاربة المسلمين ، حتى لقي حتفه أخيراً وهو منهوك القوى مشتمت الأفكار . وكانت أولى هذه المشاكل جماعات السلاف التي كانت قد استقرت في بلاد البلقان منذ أيام الإمبراطور هرقل ، وأخذت تعمل على الانتشار في سائر أرجاء الدولة البيزنطية وممتلكاتها بأوروبا . وكانت هذه الجماعات قد استقرت من قبل في بلاد البلقان على أساس التبعية للدولة البيزنطية والتعهد لها بأداء ما يطلب منها من خدمات ، وهو ما يسمى بقاعدة « المعاهدين »^(٢) . ولكن لم تلبث هذه العناصر أن عملت على السيطرة على المدن الساحلية ببلاد اليونان ، ثم صنعت أساطيل

(1) Bury, op cit 287.

(٢) كلمة المعاهدين من معاهدة باللاتينية « foedus » إذ كانت الدولة البيزنطية تعقد معاهدات مع العناصر التي ترغب في النزول بممتلكاتها مقابل تعهدتها بتنفيذ ما تطلبه الدولة منها .

لها وأخذت تغير بها علي سائر الجزر اليونانية ببحر إيجه . ووصلت طلائعها حتى البسفور ،^(١) وهددت العاصمة البيزنطية نفسها .

وخشى الامبراطور قنسطانز ترك هذه العناصر وشأنها ، وعول على إخضاعها قبل أن يستفحل خطرهما ، وما قد ينجم عن ذلك من اتفاق إغاراتهم مع هجمات المسلمين على أراضي الدولة البيزنطية . وكانت بعض العناصر السلافية قد حاولت فعلا الوصول إلى آسيا الصغرى ، والانضمام إلى جانب القوات الإسلامية التي كانت تستعد على أطراف هذه البلاد الجنوبية للقضاء على الدولة البيزنطية . ونجح قنسطانز في القيام بحملة تأديبية ، أعادت السلاف بشبه جزيرة البلقان إلى الولاء للدولة البيزنطية وتأدية ما كان مقرراً عليهم من التزامات ، كما حملهم على التخلي عن الإغارة على المدن الساحلية ، وأخذ منهم كثيراً من الأسرى عقاباً لهم.^(٢)

وما أن فرغ قنسطانز من خطر السلاف حتى انضمس في مشكلة دينية مع البابا في روما ، الذي كان يختلف مع بطريق القسطنطينية حول العقيدة الخاصة بطبيعة المسيح . ومهما يكن من أصول الجدل الديني في هذه المشكلة ، فإن الامبراطور كان صديقا لبطريق القسطنطينية ، وعول على انتهاء هذه المشكلة كيفما كانت الوسيلة ليمتجه إلى المسلمين ، الذين أخذت طلائع حملاتهم البرية والبحرية تحت قيادة معاوية تهاجم أراضي دولته . فألقى الامبراطور القبض على البابا وسجنه ، ثم نفاه أخيراً خارج إيطاليا^(٣) .

وظلت ذيول هذه المشكلة قائمة^(٤) بعد أن أحس قنسطانز أنه فرغ تماماً من مشاكله الداخلية والخارجية الخاصة بممتلكاته في أوروبا . ولكنه أقبل بعد ذلك

(1) Bury : op cit. 280

(2) I bid 292,

(3) I bid, 294, 295

(٤) انظر نتائج ذلك العمل في الفصل الخامس بشمال إفريقيا كذلك .

على محاربة المسلمين براً وبحراً ، وكله أمل أن يعيد قصة جده هرقل مع الفرس . غير أنه غاب عن قنسطانز أن المسلمين من معدن آخر غير معدن الفرس ، وأن معاوية بن أبي سفيان والى الشام قد أخذ تمام أهيمته واستعداداته لصد أى عدوان بيزنطى . فخرج الامبراطور قنسطانز من اصطدامه مع معاوية بدرس جديد جعل الدولة البيزنطية تتخلى عن مشاريعها وأحلامها القديمة في استرداد بلاد الشام وغيرها من أملاكها التي استولى عليها المسلمون ، وتذكر أن الملبسات والأوضاع الزمنية قد تغيرت ، وغدت السياسة والأمور الواقع يحتمان ضرورة المحافظة على البقية الباقية من أملاك الدولة المعرضة لتيار الزحف الإسلامى .

وجاءت هذه السياسة الجديدة بثمار طيبة للدولة البيزنطية وإن كان الامبراطور قنسطانز قد دفع حياته ثمناً لها . إذ اتجه بعد فشله في استرداد الشام إلى جزيرة صقلية ليتخذها مقراً له بعيداً عن هجمات المسلمين ، ومركزاً يتوسط كلا من إيطاليا وشمال إفريقيا البيزنطى ، ويدفع منه الزحف الإسلامى على ما تبقى لدولته من أراضى . ولكن لقي الامبراطور حتفه حين وصل مدينة سيرا كوز بصقلية سنة ٦٦٨ م ، إذ آتت عوامل البغضاء التي بذر بذورها في إيطاليا ثمارها حين دخل مدينة سيرا كوز ، حيث قتله شخص من خدمه يدعى أندرياس (Andreas) ، وهو بالحمام . ثم نودى بشخص يدعى ميزيزيوس (Mizizios) امبراطوراً ؛ اختاره الناس امبراطوراً بصقلية لوسامته وأناقته .^(١)

ولم تدم هذه المؤامرة طويلاً ، إذ جاء قنسطنطين بن قنسطانز إلى صقلية سريعاً وقبض على القاتل والامبراطور المزعوم وأعدمهما ، وكذلك أنزل العقاب بغيرهما من عليّة القوم الذين ثبتت عليهم تهمة التحريض على اغتيال أبيه قنسطانز . ثم عاد إلى القسطنطينية متعباً ، مرخياً لحيته حتى أطلق عليه الناس قسطنطين ذا

(1) Bury, op cit, 302, 303.

اللاحية « Pogonatos » . وقبل أن يبدأ بتنفيذ سياسة أبيه الجديدة التي وصل إليها بعد فشله في محاربة معاوية ، واجه ثورة جند الأناضول ، الذين ادعوا لأنفسهم حق الدفاع عن سائر أولاد قنسطانز الآخر ، وطالبوا بتفويضهم إلى جانب قنسطنطين على العرش . ولكن قنسطنطين استطاع بدهائه أن يخمد هذه الثورة ، حيث تظاهر بقبول مطالب الجند وأعادهم إلى أماكنهم ، ثم قبض على زعماء الثورة من القادة وجذع أنوفهم ، معلنا نفسه امبراطورا تحت اسم قنسطنطين الرابع .^(١) وبذلك حقق لامبراطوريته الاستقرار الداخلي وأعدّها لمقاومة حملات معاوية التي هدفت إلى الاستيلاء على عاصمته القسطنطينية .

وأنتم قنسطنطين تأمين دولته قبل الهجوم الإسلامي عليها بإكمال سياسة أبيه إزاء عناصر السلاف وغيرها من العناصر الضاربة في شبه جزيرة البلقان ، إذ كانت هذه المنطقة دائماً موضع قلق واضطراب ، تنتهز عناصرها الفرص المواتية وانشغال الدولة البيزنطية بحروبها مع المسلمين لتخرج على طاعة الحكام البيزنطيين رغبة في التمكن لنفسها في هذه الأرض اليونانية . فكان السلاف يكونون غالبية سكان شبه جزيرة البلقان باستثناء المدن الساحلية ولكنهم افتقدوا إلى الترابط والتعاون ، إذ كانوا يحيمون حياة متقلبة لا هدف لها . غير أنه ظهر على عهد قنسطنطين عناصر أخرى جديدة على أطراف شبه جزيرة البلقان من الفاحية الشمالية جهدت على توحيد هذه العناصر السلافية ، وتأسيس دولة لها البلقان . وكانت هذه العناصر الجديدة هي جماعات البلغار الذين ملأوا فيما بعد صفحات التاريخ البيزنطي بأحداث العدا والحروب المتكررة . على أن الأمبراطور قنسطنطين الرابع أسرع إلى تأديب هذه العناصر الجديدة وأبعد شبحها عن أراضي دولته^(٢) ، وأنهى بذلك ما كان يضطرب به جوف بلاده من قلق

(1) Bury, op cit, 303, 308 309.

(2) Ibid, 331 332.

وعدم استقرار ، ثم ولى جهوده شطر المسلمين .

ولذا ما أن وصلت حملات معاوية إلى أسوار القسطنطينية حتى كان
الأمبراطور البيزنطي قد كرس كل جهوده للدفاع عن عاصمته والاستبادة في المحافظة
عليها . واستطاعت الدولة البيزنطية أن تضمن لنفسها البقاء ، على نحو ما نجح
إليه معاوية من قبل في الدفاع عن إقليم الشام ، وإنزاله بالبيزنطيين من ألوان
الهزائم ما جعلهم يعترفون بدولة الإسلام الناشئة ومكانتها في حوض البحر
الأبيض المتوسط .

معاوية والبيزنطيون في شرق البحر الأبيض المتوسط

سياسة معاوية البحرية :

باستيلاء المسلمين على الشام ومصر فتحت صهجة جديدة في تاريخ البحر الأبيض المتوسط ، دوّن سطورها الأولى معاوية بن أبي سفيان بمداد الجهاد ، وملاًها بأخبار عظمة المسلمين ونشاطهم الرائع في ميدان العمليات البحرية . ويعتبر معاوية صاحب الفضل الأول في رسم سياسة المسلمين إزاء البحر الأبيض المتوسط منذ زمن مبكر ، وحلّ المشكلة البحرية التي اعترضتهم منذ فتوحاتهم الأولى في الحوض الشرقي من ذلك البحر . إذ أطل المسلمون على مياه البحر الأبيض المتوسط من شواطئ طويلة ، تمتد من طرسوس شمالاً إلى برقة جنوباً ، وتواجه في هذه المياه أعداء الماء ، دأبوا على الأغارة على هذه الشواطئ الإسلامية وقض مضاجعهم بها .

أدرك معاوية بثاقب نظره المقومات الضرورية اللازمة لبقاء المسلمين في حوض هذا البحر ، والاحتفاظ بهيبتهم بين دوله . فالبحر الأبيض المتوسط يعتبر منذ أقدم التاريخ المحور الذي دارت عليه أحداث النزاع بين قوى العالم الكبرى من أجل السيطرة والسيطان . وكان بقاء الدولة الفائزة رهناً يسيطرها على مياه هذا البحر وما به من مراكز استراتيجية هامة . فتطلع معاوية إلى إبعاد مخالب البيزنطيين التي كانت تتحفز لتنشب مرة أخرى في شواطئ الشام . وعمد إلى الاستيلاء على الجزر القريبة من مقر ولايته ، والتي كانت قواعد الأساطيل البيزنطية ، تخرج منها لتسيّد ضرباتها حيثما تشاء إلى أرض المسلمين .

وضع معاوية خطة سليمة لتحقيق أهدافه البحرية ، ثم تطورت مع الزمن حتى ترك خلفائه سياسة مرسومة واضحة المعالم والأهداف . ولم تكن خطته من وحي الارتجال ، أو من محض الصدف وتقدير المقادير ، وإنما كانت ثمرة تفكير صحيح وثيد بدأت طلائعه منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب . وتعتبر فترة ولاية معاوية على الشام الحبر الأسامي في صرح العمليات البحرية الأموية فيما بعد ، وفاتحة المجد البحري الإسلامي عند الإطلاق . وتجلت الخطوط الرئيسية لهذا البرنامج البحري الذي رسمه معاوية حين أرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في غزو جزيرة قبرص ، مبيناً له شدة خطورة هذا المعقل البيزنطي على سلامة مدن الشام . إذ جاء في خطابه : « يا أمير المؤمنين إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص » ، وختم خطابه بعد هذا الوصف الدقيق المؤثر طالباً السماح له بغزو هذه الجزيرة .^(١)

ولم يكن الخليفة عمر بالشخص الذي يندفع في آراءه ، ولا سيما في مهام الأمور التي تتعلق بسلامة جند الإسلام والمسلمين . وكان عمر بن الخطاب على صواب في استشارة قادة الدولة الإسلامية على عهده في هذا الموضوع الجديد الذي أثاره معاوية . ووقع اختياره على استطلاع رأي عمرو بن العاص وإلى مصر ، لما لهذه الولاية من شواطئ على نفس البحر الأبيض مثل بلاد الشام ، ولأنها كذلك معرضة للاغارات البحرية التي شنها البيزنطيون على سواحل المسلمين . وجاء رد عمرو بن العاص وصفاً رائعاً لطبيعة البحر وركوب مياهه ، وما يلاقيه المرء في ذلك من صعاب ، فكتب إلى الخليفة : « إني رأيت خلقاً كبيراً ، يركبه خلق صغير ، إن ركن خرق القلوب ، وإن تحرك أزاع العقول ... هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق وإن نجا يرق »^(٢) .

(١) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٥١ ، ٥٢ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٥٢ .

ولذا لم يكن عجيباً أن يؤثر عمر بن الخطاب التريث في إجابة طلب معاوية ، ولا سيما أنه رأى ألا توجد حاجة ملحة تتطلب دخول المسلمين في ميدان المغامرات البحرية ضناً منه بسلامة المسلمين ، إذ قال لمعاوية في رده « تالله لمسلم أحب إلى مما حوت الروم »^(١) . ولكن معاوية لم يكن بالوالى الذى يغمض عينيه تماماً عن أى خطر يلوح فى الأفق مهدداً ولايته وأرض الإسلام . فكتب إلى عمر بن الخطاب مرة أخرى يعرض عليه سوء حال سواحل الشام وما هى عليه من خراب وافتقارها إلى وسائل الدفاع القوية ، إذ كانت الخطة التى اتبعت فى الفتوحات على عهد عمر هو أن المسلمين « كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها إليه من المسلمين ، فإن حدث فى شىء منها حدث من قبل العدو ، سربوا إليها الأمداد »^(٢) . فكان هذا الأسلوب المتبع يتطلب العناية بحالة المدن الساحلية لتصبح مهياة لإقامة الجند الإسلامى ، وتمكنه من الدفاع عنها . ولم يتردد الخليفة عمر فى أن يطلق يد معاوية لإصلاح حال السواحل بما يراه كفيلاً لسلامتها من « مرمة حصونها ، وترتيب المقاتلة فيها ، وإقامة الحرس على منازرها واتخاذ المواقيد لها »^(٣) .

واستغل معاوية هذا التصريح واتخذ خطوة أساسية يبنى عليها فيما بعد مشاريعه البحرية . فبأن أن يحصن المدن الساحلية ويزودها بالقوات المحاربة ، بما يجعلها قواعد فى المستقبل تنقل منها الجنود بحراً إلى أى مكان يشاء . ووضع لهذه المدن نظاماً عرف بالرباط ، وهو ما يقصد به الأماكن التى تتجمع بها الجند والركبان استعداداً لقيام بحملة على أرض العدو . واعتنى معاوية بهذا النظام حتى أصبح جزءاً مرتبطاً أشد الارتباط بالجهاد أو الحرب المقدسة . إذ اجتذب

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٥٢ .

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٣٤ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ١٣٤ ، ١٣٥ .

الرباط إليه كل الأنقياء المتحمسين للمسلمين ، دائماً على إعزاز الإسلام ونصرتة ، ويبدو أن معاوية استعمار هذا النظام من البيزنطيين ، وأدخل عليه عدة تغيرات جعلته صالحاً لتنفيذ مشاريعه . إذ عرف البيزنطيون نظام الأديرة المساحة وهي الأماكن التي انقطع فيها الرهبان للعبادة واجتمعوا فيها سوياً لخدمة مطالبهم مبتعدين عن الحياة وزخرفها الباطل . ولكن لا توجد شواهد قاطعة على اشتراك أشباه أولئك الرهبان المقيمين في الأديرة المسلحة في العمليات الحربية التي قامت بها الدولة البيزنطية^(١) . على أن الرباط عدا دائماً مجمع المتحمسين والغلاة المتدينين الذين وقفوا حياتهم للزود عن حياض الإسلام ، حيث وفد إليه باستمرار المغامرون المسلمون لشد أزر إخوانهم من الجند النظامي .

وتدرج معاوية في تدعيم هذا النظام على نحو ما اتبعه في كل أعماله التي اتسمت بالدقة والابتعاد عن الارتجال والاندفاع . فأعد الرباط لتسكون حصوناً يتجمع فيها الجند للدفاع عن المناطق المعرضة لاغارات الأساطيل البيزنطية ، ولتسكون ملجأً يحمي بها الأهالي في المناطق التي يدهمها العدو . وقد خصص حاميات الرباط لإنذار الأهالي في المناطق الساحلية بأن يأخذوا حذرهم إذا ما لاح خطر السفن البيزنطية في المياه الإقليمية . فكان الحصن في الرباط يضم حجرات للجند ومساكن لهم ، ومخازن الأسلحة والمؤن ، وبرج المراقبة . ثم لم يلبث الرباط أن اتسع وازدادت أهميته حتى أصبح قاعدة للهجوم وشن الاغارات .

واكتفى معاوية بسياسة تقوية السواحل حتى ولى الخلافة عثمان بن عفان ، إذ خطا منذئذ خطوة ثانية في متابعة سياسته البحرية وتشجيع الناس على النزوح إلى المناطق الساحلية لينمي عندهم ملكة ركوب البحار . وساعد معاوية على تحقيق خطته أن الخليفة أمر بمنح كل راغب في الإقامة بالمدن الساحلية إقطاعات من

(1) Encyc. of Islam (art Ribat)

الأرض يستغلها ويتمتع بخيراتها . فترتب على ذلك ازدياد العمران بالسواحل وانشيئال الناس عليها للتمتع بامتيازات الإقامة بها ، دون أن يأنهوا بمخاوف التعرض لاعتمادات السفن البيزنطية . وذلك لأن معاويه أعاد جيوشاً دائمة في المدن الساحلية للدفاع عنها إلى جانب القوات التي تخرج للغزو والإغارات ، ودأب على أخذ أرض من يتخلف عن الغزو وإعطائها للجند المقيم على حراسة السواحل أثناء الخروج للإغارة .^(١)

وتعتبر سياسة منح الاقطاعات بالسواحل الخطوة الأخيرة في سلم السياسة البحرية الدفاعية التي رسمها معاويه قبل أن يستطيع ركوب البحر في عهد عثمان بن عفان . إذ أنهم بفضل هذه الامتيازات أعاد القواعد البحرية التي أخذ ينشئ فيها أساطيله . وكانت آية ازدهار المدن الساحلية نقل جماعات من أهالي بعلبك وحمص وانطاكية سنة ٤٣ هـ / ٦٦٢ م إلى صور وعكا وغيرها من المدن بسواحل الأردن . كذلك أصلح معاويه حصون هاتين المدينتين^(٢) ، ولا سيما عكا التي خرج منها بأولى حملاته البحرية ضد قبرص . وبسط معاويه اهتمامه إلى سائر المدن الساحلية ، فمنح الجند أراضى أيضاً في انطرسوس وصرقية وبلنيس ، واهتم اهتماماً خاصاً برباط عسقلان والجند الموكلين بحمايتها^(٣) . وأخيراً جدد بعض الحصون في المدن التي خربت معاقبتها القديمة ، كما فعل في مدينة جبلة ، إذ بنى لها حصناً آخر غير حصنها القديم الذي كان من قبل مقر رهبان بيزنطيين ، أقاموا به للعبادة^(٤) . ومن ثم آتت سياسة الاقطاعات ثمارها ، فعمرت الثغور البحرية لأن « الناس انتقلوا إلى السواحل من كل ناحية »^(٥) على حد قول المؤرخين المسلمين .

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٣٥ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٤٠ ، ١٤٩ .

(٤) نفس المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٥) نفس المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

وجنى معاوية ثمار هذه السياسة التمهيدية السابقة حين استطاع أن يغفر من الخليفة عثمان بن عفان يتصرّح ببيع له غزو قبرص . إذ سمح له الخليفة بالقيام بالغزو البحري على شرط ألا يكره أحداً على ركوب البحر ، وأن يعي أساطيله من المتطوعة فقط . ولم يلق معاوية عناءاً في اجتذاب الجند الذي أخذه معه في حملاته البحرية ، إذ كانت المدن الساحلية عاصرة بالمقامرين وغيرهم ممن ذاقوا ثمار الإقطاعات وامتيازاتها ، وتطلّسوا إلى خوض غمار الميدان البحري تحت راية معاوية ، مخلصين اسمهم في طليعة الحملات الإسلامية البحرية لتقليم أظافر البيزنطيين .

وظهر في هذه الفترة المبكرة من نشاط معاوية البحري مدى الارتباط والتعاون بين الشام ومصر في ميدان العمليات البحرية . إذ كانت مصر في تلك الفترة من ولاية معاوية على الشام تحت إمرة عبد الله بن أبي سرح ، أخى الخليفة من الرضاع . واشترك معاوية وعبد الله في الإغارات البحرية على جزر البيزنطيين في البحر الأبيض المتوسط ، وفي صد إغارات أساطيلهم ، وكانت بمصر إذ ذاك دور صناعة السفن ، وتخرج منها الأساطيل الحربية إلى قواعد الشام البحرية ، حيث جرى النظام البحري إذ ذاك على أن تتجمع السفن الإسلامية بموانئ الشام للهجوم على أراضي البيزنطيين القريبة منهم .

وحرص معاوية دائماً على تحقيق التعاون البحري بين مصر والشام ، لأنهما كانتا من قبل أهم ولايات الإمبراطورية البيزنطية في ميدان النشاط البحري كذلك ، سواء أيام السلم أو الحرب . فكان التقسيم الإداري للدولة البيزنطية قبل ظهور الإسلام يجمع بين الشام ومصر في العمليات البحرية ، ويقضى بتعبئة أساطيلهما معاً لإخضاع العناصر التي تشق عصا الطاعة على السلطات البيزنطية في أي بلد من البلاد التابعة لها في حوض البحر الأبيض المتوسط . وفضلاً عن ذلك ربطت العوامل الطبيعية بين مصر والشام في الشئون البحرية وجعلت كل

منهما لا تستغنى عن الأخرى . فمصر فقيرة في أخشابها التي تصلح لبناء السفن ، على حين تسكثر بالشام النباتات التي تزود دور صناعة مصر بما تحتاجه من أجود الأخشاب . وكانت مصر دائماً تطمع في الحصول على هذه الأخشاب ، ودفعها حرصها في بعض العصور القديمة إلى محاولة السيطرة على الشام . ولسكن في ظل الإسلام انتظمت العلاقات بينهما على أساس التعاون لما فيه نصرة أرض الإسلام ، ولا سيما أمام عدوهم المشترك من البيزنطيين .

وتجلى اهتمام معاوية ببقاء التعاون بين مصر والشام خلال الحروب الأهلية التي نشبت بينه وبين علي بن أبي طالب ، إذ صمم معاوية على إدخال مصر في دائرة نفوذه ليحمي ظهره بإقليم الشام ويشد أزره بمساعدة مصر . وظهر مدى حرصه على اكتساب مصر وانتزاعها من يد أعدائه أنه عهد إلى عمرو بن العاص فاتح مصر الأول وداهية قادة المسلمين بالاستيلاء عليها مقابل الحصول على خراجها سبع سنين . وباستيلاء عمرو على مصر استطاع معاوية أن يستفيد من مصر والشام في نشاطه البحري ، حيث نظم العلاقات بينهما بما يدعم سياسته البحرية في البحر الأبيض المتوسط^(١) .

واتسعت سياسة معاوية البحرية وأخذت مظهر أجدياً بعد سنة ٤٩هـ / ٦٦٩م . ففي هذه السنة شن البيزنطيون غارة على سواحل الشام ، وكانت من العنف والشدّة بحيث جعلت معاوية يفكر في إنشاء دور لصناعة السفن بالشام نفسها إلى جانب دور الصناعة بمصر . وهدف من وراء ذلك إلى إيجاد أساطيل دائمة بموانئ الشام على استعداد لدفع أي هجوم بيزنطي مفاجئ ، وليخفف العبء عن

(١) كشفت أوراق البردي التي وجدت بمصر والتي يرجع تاريخها إلى ولاية قرّة بن شريك ، والوالى الأموى على مصر سنة ٩٠ هـ ، عن حرص الأمويين على المحافظة هذا التعاون البحري بين مصر والشام ، الذى وضع أسسه الخليفة معاوية . فكان قسم كبير من بحارة الأساطيل الإسلامية يجتمع من مصر لتعارب إلى جانب أهل الشام . ولسكن كان جنود مصر يعودون بعد انتهاء الحملات البحرية إلى وطنهم . أنظر : Bell, Der Islam, III, 96; Papyrus 1435

أساطيل مصر . فأُسِر معاوية سنة ٤٩ هـ / ٦٦٩ م أى في نفس السنة التي حدثت فيها الإغارة البيزنطية على الشام^(١) بجمع الصناعات والنجارين وإرسالهم إلى عسكا ، التي وقع اختياره عليها لينشئ بها أول دار لصناعة السفن بالشام . وكانت عسكا تستطيع الحصول على ما يلزمها من أخشاب لبنان ، التي اشتهرت بصفة خاصة بصلاحياتها للمجاديف^(٢) .

وبذلك استطاع معاوية بجده ومثابرته أن يحقق ما جاش بنفسه من آمال في إنشاء قوة بحرية إسلامية ، وأن يتغلب على عقبات وصعاب كانت كقيلة بأن تدعه يطلق مشاريعه البحرية إلى الأبد . وكان من حسن طالع دولة الإسلام أن يتعهد معاوية شئونها في الميدان البحري ، ويوقف أساطيله على صد عدوان البيزنطيين ، إذ بينما استولى المسلمون نهائياً على دولة الفرس الساسانيين وضموها إلى رقعة الإمبراطورية الإسلامية ، ظلت الآمال تداعب البيزنطيين في معاودة الكرة على المسلمين وإخراجهم من الشام ومصر . ولكن بفضل حملات معاوية البحرية أفاق البيزنطيون إلى رشدهم ، وأدركوا أنهم أمام قوة منظمة ، تسير قدما وباضطراد من نصر إلى نصر ، وتعمل جاهدة وبنجاح على انتزاع السيادة منهم على البحر الأبيض المتوسط .

فتح قبرص :

استهل معاوية باكورة نشاطه البحري بمحاولة الاستيلاء على جزيرة قبرص التي كانت محور مكاتباته مع الخليفتين عمر وعثمان ، يطلب منهما الإذن له بتقليم أطراف البيزنطيين في هذا المعقل القريب من أرض الإسلام . وكانت استعدادات معاوية البحرية لغزو هذه الجزيرة تتناسب مع أهمية الحملة وضخامة أهدافها .

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٢٤ .

(2) Semple, op cit, 270, 271

إذا كانت هذه الجزيرة من أقدم المعاقل في شرق البحر الأبيض المتوسط . وحرصت القوى المتنافسة فيه على إبقائها في دائرة نفوذها . فنذ بزغت شمس الحضارات في حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي والصراع مستمر على سيادة جزيرة قبرص ، التي تعتبر حجر الزاوية في قوة أية دولة تهمل إلى مركز الزعامة في بلاد الشرق الأدنى . وتجلت هذه الظاهرة منذ أيام تحتمس الثالث امبراطور مصر الفرعونية حتى العصر الحاضر ، حيث حرصت الدول الكبرى التي عرفها حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي على السيطرة على قبرص ^(١) .

وتستمد هذه الجزيرة أهميتها من موقعها الجغرافي الذي يوحى للناظر أنها أشبه بمدفع يدوي (مسدس) فوهته مصوبة إلى إقليم الشام ^(٢) . وإلى جانب ذلك تحتل ركنا ممتازا في الزاوية الشمالية الشرقية من البحر الأبيض المتوسط الشرقي ، يجعل لها سهولة التحكم في مياه هذا الشطر الهام من البحر بما يُطل عليه من البلاد . إذ يمكن للمرء أن يرى من قبرص بالعين الجردة آسيا الصغرى والشام ، ويبحر منها مباشرة ، وفي وقت قصير ، متجهاً إلى بيروت أو بورسعيد أو الإسكندرية ^(٣) . غير أن أحداث قبرص اتصلت اتصالاً مباشراً مع إقليم الشام ، وارتبط مصيرها بأحوال القوى التي ظهرت في هذا الإقليم سواء في مشاريعها الحربية أو التجارية . إذ يقرب طرف جزيرة قبرص الشرقي من خليج الاسكندرونة ، الذي يقع خلفه الممر الجبلي الهام الممتد من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى شمال العراق . وكان هذا الطريق من أهم المسالك التجارية التي عبرتها قوافل التجار المحملة بالمنتجات الشرقية إلى أسواق البحر الأبيض المتوسط . وأدرك معاوية أهمية هذه الجزيرة ، وضرورة الاسراع بمهاجمتها بسبب إغارات البيزنطيين البحرية على الشام ، واتخاذهم جزيرة قبرص محطة تموين

(1) Hill, History of Cyprus I,1

(2) Semple, op cit, 201.

(3) Hill : op cit, 1

(م — ٦)

في الطريق ، وملجأ يعتصمون به حين تدفعهم الأحداث إلى الانسحاب . ودلت أحداث الحملة التي أعدها معاوية لغزو قبرص سنة ٢٨ هـ / ٦٤٩ م على الأغراض الملححة التي حملت المسلمين على البدء بالإغارة على هذه الجزيرة ، كما أن معاوية حرص على اختيار كبار الشخصيات الإسلامية لمصاحبته في هذه الحملة ليكسبها مظهر الجهاد الحق الرائع .

حشد معاوية أساطيله وقواته في ميناء عكا ، وكانت السفن جميعها من مصر ، على حين اشترك مع الجند الإسلامي كبار رجال الشام وغيرهم من مشاهير القادة المسلمين مثل عبادة بن الصامت . واتسمت هذه الحملة بخروج النساء معها حيث اصطحب معاوية معه زوجته فاخته ، وأخذ عبادة بن الصامت كذلك إمرأته أم حرام بنت ملحان الأنصارية . وكان الخليفة عثمان بن عفان هو الذي أمر معاوية بأن يأخذ زوجته معه ليضمن صدق عزمته في الإغارة على هذه الجزيرة ، وليعلم مدى قربها من الشام على نحو ما ذكره في مكاتباته ، إذ كتب إلى معاوية قائلاً : « فإن ركبت البحر ومعك امرأتك ، فازكبه مأذوناً لك ، وإلا فلا » (١) .

ولم يكن معاوية في حاجة إلى أن يقدم الدلائل على صدق مشاريعه البحرية ، إذ كانت حماسه لغزو قبرص تفوق في شدتها أي دليل . وأبحر من ميناء عكا على رأس أسطوله بعد انتهاء شتاء سنة ٢٨ هـ / ٦٤٩ م ، ونزل بالساحل مسجلاً أول عبور حققه جند الإسلام لياه البحر الأبيض المتوسط . وشاءت الأحداث أن تجعل هذه الغزوة رمزاً على صدق عزيمة المسلمين جميعاً رجالاً ونساء ، فقد استشهدت أم حرام زوجة عبادة بن الصامت على أرض قبرص ، إذ حين رست السفن الإسلامية الشاطئ وأخذ الجند ينزلون منها ، تقدمت أم حرام لتركب دابتها ، فنفرت الدابة وأوقعت أم حرام التي ألقت حتفها ، مخلفة ذكراها على أرض قبرص في أول غزوة بحرية إسلامية عرفها البحر الأبيض المتوسط .

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٥٩ .

«ودفنت أم حرام في أرض هذه الجزيرة ، وعرف قبرها منذئذ باسم « قبر المرأة الصالحة »^(١) .

وبعد أن أنزل المسلمون عدتهم وعتادهم إلى الشاطئ أرسلوا إلى أهالي قبرص يخبرونهم أنهم لم يأتوا طمعاً في جزيرتهم ، وإنما ليتفقوا معهم على ما فيه سلامة المسلمين وبلادهم . غير أن سكان قبرص أبوا الدخول في مفاوضات مع المسلمين واعتصموا بأسوار مدنيهم . فتقدم المسلمون نحو العاصمة قنسطنطينا 'Constantina' التي كانت غاصة بالسكان ، وبها جميع ثروات الجزيرة وذخايرها . وبعد حصار قصير اقتحم المسلمون هذه المدينة واستولوا على كنوزها ، وأخذوا كثيراً من الأسرى . واضطر حاكم المدينة ، أو أركانها ، إلى عقد صلح مع المسلمين^(٢) ، دلت شروطه على العوامل الحقيقية الكامنة وراء الحملة الإسلامية ، وأهداف معاوية في المبادرة بالهجوم على قبرص .

صالح أهالي قبرص معاوية والمسلمين على أن يدفعوا لهم جزية سنوية قدرها ٧٢٠٠ دينار ، على نحو ما يؤدونه كل عام كذلك للدولة البيزنطية ، وتعهدوا ألا يساعدوا البيزنطيين في إغاراتهم على أرض الشام ، وألا يطلعوهم على أسرار المسلمين ، كما قبلوا أن يزودوا المسلمين بأنباء أية حملة يزمع البيزنطيون القيام بها ضد الدولة الإسلامية . وبذلك كان على أهالي قبرص التزام الحياد التام في النزاع الإسلامي البيزنطي ، حيث لم يطلب منهم المسلمون تقديم أية مساعدة لهم في إغاراتهم على البيزنطيين ، « فسكان المسلمون إذا ركبوا البحر لم يعرضوا لهم ، ولم ينصروهم أهل قبرص ، ولم ينتصروا عليهم »^(٣) .

وعاد معاوية إلى الشام مظفراً ، مدوناً أول سطر في سجل النشاط البحري

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

(٢) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٥ ؛ البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

(٣) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

الإسلامي ، وحقق فوزاً في ميدان جديد ، أعلامه من روح المسلمين المعنوية ، وأزال ما انتصف به العرب من تهيب لركوب المياه ، وأظهر أنهم في سبيل عزة الإسلام وأرضه يذللون سائر العقبات . وكذلك برهن معاوية بانتصاره على أهالي قبرص أن سياسته البحرية قامت على أسس وطيدة لا بد أن تؤتي أكلها ، حيث كان خضوع قبرص لمطالب معاوية بداية طريق جديد سلكه المسلمون مظفرين .

وبعد عودة معاوية إلى الشام لم يركن إلى الدعة ، مطمئناً إلى الصلح الذي عقده مع أهالي قبرص ، وإنما أخذ يراقبهم ليرى مدى تنفيذهم لالتزاماتهم إزاء المسلمين . وكان معاوية صادقاً في حذره وفي تتبعه لحركات سكان قبرص ، إذ حدث في سنة ٣٢ هـ / ٦٥٣ م أن أخل أهالي قبرص بشروط الصلح ، وأمدوا البيزنطيين ببعض السفن في إغاراتهم على أراضي المسلمين . فصمم معاوية على الاستيلاء على قبرص وإدخالها في التبعية للدولة الإسلامية ، ليحرم البيزنطيين نهائياً من استغلال الجزيرة وأهلها . وجهز حملة بحرية كبرى في السنة التالية ، في عام ٣٣ هـ / ٦٥٤ م ، وكانت مكونة من خمسمائة سفينة وعدد كبير من الجنود . وتمكن بهذه الحملة الكبيرة من فتح الجزيرة عنوة ، رغم مقاومة أهلها ، وأخذ منهم كثيراً من الأسرى ، ونجح في تلقين السلطات بها درساً قاسياً لإخلالهم بشروط الصلح^(١) .

وعول معاوية على تدعيم نفوذ المسلمين بالجزيرة في هذه المرة ، إذ فضلا عن إلزام أهلها بأداء المطالب المالية وغيرها من الالتزامات ، التي كانوا متعهدين بأدائها طبقاً لشروط الصلح السابق ، بعث معاوية إلى قبرص اثني عشر ألف رجل من الجند النظامي . وأجرت لهم الدولة الإسلامية الرواتب ، ليسكونوا جيشاً مقيماً

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

بالجزيرة يصد عنها عدوان البيزنطيين ، ويتقضى على أية إغارة يحتمل أن تمر بهذه الجزيرة . وأتبع معاوية ذلك بنقل جماعة من أهل بعلبك إلى قبرص ، وأغراهم على البقاء بها بمنحهم الرواتب ، ليشد من أزر الحامية الإسلامية ، ويقال من تطلع السكان الأصليين بالجزيرة إلى العودة إلى مساعدة البيزنطيين وشيد معاوية لهذه الجالية الإسلامية مدينة جديدة في الجزيرة ، ومسجداً يؤدي فيه المسلمون شعائرهم^(١) . وهذه الظاهرة الأخيرة تنهض دليلاً على حرص معاوية على إبقاء جزيرة قبرص خاضعة للمسلمين ، إذ كان تأسيس المسلمين المدن في الجهات الجديدة التي ينزلون بها ، فضلاً عن بناء مسجد لهم ، من العلامات الدالة على عزيمتهم التوسع على الاستقرار بالسكان الذي نرحوا إليه .

ويعزى تشدد معاوية في معاملة أهالي قبرص بعد هذه الحملة الثانية إلى رغبته في وضع حد نهائي لتقلب أهوائهم وتكرار مساعداتهم للبيزنطيين . إذ كان موقف أهل قبرص من الدولة الإسلامية مثار جدل وتشعب في الآراء بين قادة المسلمين حين نقضوا شروط الصلح السابق ، وغدوا موضع شك من حيث إخلاصهم ، حتى قال أحد المسلمين في مناقشاته : « ما وفي لنا أهل قبرص قط »^(٢) ، وأشار آخر بإنزال أشد العقوبة بهم مستشهداً ببعض السوابق على عهد الرسول ، قائلاً « إنه من نقض عهداً فلا ذمة له »^(٣) .

وآثر معاوية أن يوفق بين الآراء السابقة باحتلال جزيرة قبرص وتجديد ما في الصلح السابق من مميزات للدولة الإسلامية ، دون أن يشتط في معاملة أهالي قبرص أنفسهم ، وليتجنب بذلك ما قد يثار في نفوسهم من حقد نحو المسلمين . إذ أدرك أن أولى الأمر في هذه الجزيرة المسئولون وحدهم عن مؤازرة

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

البيزنطيين ، وتشجيع أهاليهم على مناوأة المسلمين . وكان قادة المسلمين يهررون الاستيلاء على الجزيرة بحجة إنقاذ أهاليها من نير البيزنطيين قائلين « أهل قبرص أذلاء مقهورون ، يغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم ، فقد يحق علينا أن نمنعهم ونحسبهم »^(١) .

ولذا جاء احتلال معاوية لجزيرة قبرص حلاً لمشكلة اهتم بها المسلمون . وأضاف بهذه الجزيرة رقعة جديدة إلى أرض الإسلام ، كما استطاع بذلك أن يقلم أطراف البيزنطيين ، وجعلهم يدركون ما عليه بحرية المسلمين الناشئة من فتوة وقوة . وغدا إقليم الشام في مأمن من الأخطار المتكررة التي تهددته من جزيرة قبرص ، وصار المسلمون لا يخشون أى هجوم مفاجئ من البيزنطيين .

الوغارات الإسلامية على الجزر البيزنطية :

كانت الإغارة على قبرص بداية نشاط بحرى إسلامى اتسم بطابع الإغارات سنوياً ، ضيفاً وشتاءً ، على الجزر البيزنطية ، التي يخشى المسلمون خطرها ، أو التي قد ينبعث منها ضرر يحيط بأرض الإسلام . وأثبت المسلمون في هذه المرحلة المبكرة من تاريخهم البحري فهماً جيداً لطبيعة الجزر البيزنطية في البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، إذ رأوا ضرورة الاستيلاء عليها لما تتمتع به من مراكز استراتيجية هامة ، ولشغل حركات البيزنطيين البحرية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . فقد انتشرت هذه الجزر في الشطر الشرقى من البحر الأبيض المتوسط وقسمته إلى بحار داخلية صغيرة ، تتصل ببعضها البعض عن طريق مضائق وفتحات صغيرة تتحكم في مداخلها أطراف الجزر . وغدت هذه المضائق أشبه بعنق الزجاجة ، تكفل للسيطر عليها تمام السيادة على ما يليها من بحار

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ١٦٣ .

داخلية ، وما يطل على هذه البحار من أرض وبلاد^(١) . ولذا سارت الإغارات الإسلامية على هذه الجزر وفق خطوات منظمة مرسومة ، تهدف أولاً إلى تأمين سلامة البلاد الإسلامية من الجزر القريبة مباشرة من أراضيهم ، ثم الاستيلاء على غيرها من الجزر التي تتحكم في أكبر عدد من المضائق البحرية لسد الطريق في وجه الأساطيل البيزنطية . وأظهر أمراء البحار المسلمون في سبيل تنفيذ هذه الأهداف من المهارة والجلد ما رفعهم إلى مصاف كبار رجال البحار الذين عرفهم التاريخ .

استرعى نظر المسلمين أنباء إغاراتهم على قبرص وقوع جزيرة تدعى أرواد^(٢) بالقرب من ساحل الشام بين مدينة جبلة وطرابلس . ولم يكن معاوية الشخص الذي يتهاون في ترك أي معقل بيزنطي يهدد سلامة بلاده ، أو يكون شوكة في جانب دولته . فكانت هذه الجزيرة تمتع بشهرة عالية منذ أقدم العصور ، رغم ما بدت عليه من ضآلة الشأن في تلك الفترة الأولى من ظهور المسلمين في مياه البحر الأبيض المتوسط . فقد لاحظ استرابون^(٣) ، الجغرافي القديم ، أن أهل أرواد يحترفون القرصنة على التميمض من سائر البلاد القريبة منهم ، من أمثال قايقية ، والتي اتخذت لنفسها الطريق القويم في الاشتغال بالتجارة لتدعيم رخائها الاقتصادي . فكان أهالي جزيرة أرواد يستغلون ما حبتهم به الطبيعة من مراكز جغرافية ممتازة في ميدان التجارة ، وأبدوا جشعا في تنمية مواردهم الاقتصادية عن طريق القرصنة الخفيف . وهذه الأمور وصمتهم بالغدر وأبعدتهم عن أن يكونوا أهلا للنقة .

(1) Semple, op cit, 71.

(٢) تختلف هذه الجزيرة عن جزيرة أرواد التي تقع بالقرب من القسطنطينية ، والتي تعرف باسم كزيكوس (Cyzicus) في المراجع الأوربية .

(٣) استرابون جغرافي يوناني ، زار مصر سنة ٢٥ ق . م وقام بزيارات عديدة لبلاد الشرق . وصرف بدقة الملاحظة ، والاعتماد على السلطات الرسمية في البلاد لجمع المعلومات .

وعقد معاوية العزم على التخلص من مخاوفه من تلك الجزيرة بالاستيلاء عليها . وأعد حملة لمهاجمتها سنة ٢٨ هـ ، أى فى العام التالى لبعثته من جزيرة قبرص بعد إغارته الأولى عليها . واستطاع المسلمون أن ينزلوا بأرض الجزيرة ، ولكن رفض الأهالى الإذعان لهم والتسليم ، واعتمدوا بقلعة الجزيرة رغم وساطة أحد الأساقفة ويدعى ثوماريخوس (Thomarichos) ، إذ آثر أن يقوم بدور الوسيط بين المسلمين وأهالى أرواد ، ويبصر سكان هذه الجزيرة بمغبة الإصرار والعناد . وجاءت الأحداث بما تؤيد وجهة نظر ثوماريخوس ، إذ عاد المسلمون إلى دمشق مصممين على تأديب أهالى هذه الجزيرة فى العام التالى^(١) . وكانت هذه الحملة الإسلامية الأولى قليلة العدد ، واستهدفت أولاً عقد معاهدة مع أهالى الجزيرة لتأمين الشام من شرهم ، وضمان عدم مساعدتهم لأعدائهم . ولكن اضطرت الحملة أمام مقاومة الأهالى إلى الرجوع إلى مقرها ، لتعود مره أخرى باستعداد أوفى وأتم .

وفى العام التالى هاجم المسلمون جزيرة أرواد بقوة كبيرة ، وأحرقوا العاصمة وقلعتها ، وألزموا جميع أهالىها باخلاء الجزيرة تماماً جزاءً على عنادهم الذى تجلى فى مقاومتهم الشديدة فى المرة السابقة^(٢) . ولم يكن فى هذا التصرف الذى اتخذه المسلمون شيء من التعسف ، وإنما جاء وليد بعد نظرهم وفهمهم لطبيعة سكان هذه الجزيرة ، ووسائلهم التى اعتمدوا عليها لإنهاك مهاجميهم . فكان أهالى أرواد يتجنبون دائماً الهزائم القاصمة ، ويحتفظون بقوتهم ونشاطهم بالاعتصام بالياه ، حتى يزول الخطر الحقيق بهم . ولذا قضى المسلمون نهائياً على هذه الجزيرة ومنعتها ، وأمنوا ما قد يحش بنفوس أهالىها من عدوان ، ولا سيما بعد أن كشفوا القناع عن نواياهم فى وضوح وجلاء .

(1) Bury, op cit II, 289

(2) Bury, op cit, II, 289.

وهكذا لم يقيم المسلمون بجهودهم البحرية عفواً ، أو ارتجوا خططهم في الإغارة على الجزر البيزنطية حبا في تخريبها فقط وتدميرها . فقد سار المسلمون في أعمالهم البحرية وفق سياسة واضحة المعالم تهدف إلى تأمين دار الإسلام وحماية أى ركن به معرض لخطر بيزنطى قد يأتى من أى مقبل بحرى . وكانت آية ذلك استعداد معاوية لمهاجمة جزيرة صقلية ، إذ يبدو أن هذه الجزيرة بعيدة كل البعد عن أن تكون موضع خطر مباشر على إقليم الشام ، ولكن مجريات الأحداث دلت على أن صقلية غدت قاعدة للقوات البيزنطية المعدة لشن هجوم على مصر ، وشل حركة التعاون البحرى بين المصريين وأهل الشام . فاتخذ الحاكم البيزنطى السابق لمدينة قيصرية ، التى قاومت معاوية مدى طويلا ، مقره فى جزيرة صقلية ، وعول على أن يستعد بها ومعه غيره من البيزنطيين لاعادة الكرة على المسلمين من هذا المقبل البعيد عن حملاتهم البحرية المباشرة . وفضلا عن ذلك كان بمياه صقلية كثير من السفن والأساطيل البيزنطية ، التى ارتدت عن سواحل مصر والشام بعد سقوطهما فى أيدى الساميين .

وكانت صقلية بموقعها الجغرافى تتحكم فى المداخل الرئيسية الكبرى للبحر الأبيض المتوسط الشرقى ، إذ هى تقسم البحر الأبيض المتوسط عامة إلى قسمين رئيسيين ، تشرف على الاتصال بينهما عن طريق مضيق مسينا ، ومضيق صقلية الواقع بين طرف جزيرة صقلية الجنوبى وشمال إفريقيا^(١) . واستمدت جزيرة صقلية بفضل هذا الموقع كل معونة من الولايات البيزنطية الأخرى البعيدة عن متناول المسلمين فى هذه الفترة المبكرة من فتوحاتهم ، وغدت المقل الذى يمكنه الصمود تماما أمام الزحف الإسلامى إذا ما تجدد مرة أخرى . ولكن فى هذه الفترة الأولى ، أحست مصر خطر التجمعات البيزنطية بصقلية ، وتسكافت مع بحرية الشام على عرقلة هذه الاستعدادات البيزنطية القائمة فيها .

(1) Semple, op cit, 72.

وقامت من الشام حملة إسلامية سنة ٩٥٢ م ، اتجهت إلى صقلية تعاونها القوات البحرية المصرية . ونزلت الحملة بالشاطئ ومعهما المجانيق والعرادات ، وأعلنت التدمير في الحصون الساحلية . ثم اشتبكت القوات الإسلامية مع البيزنطيين في معركة دامت طول النهار ، وحملتهم على الانسحاب إلى داخل الجزيرة . واتبع المسلمون انتصارهم بالاغارة ليلاً على القرى والمدن القريبة من الساحل ، ثم عادوا مظفرين إلى الشام ^(١) ، بعد أن برهنوا للبيزنطيين أن يد البحرية الإسلامية الناشئة قادرة على أن تبطش بهم في أي مكان ، وأنها تقف لهم بالمرصاد . وتروى المراجع العربية أن معاوية بن حديج السكندري قاد هذه الأغارة الأولى على جزيرة صقلية ، ثم توالى عليها الاغارات بعد ذلك من شواطئ الشام ومصر أيضاً . واشتهر من أسراء البحار المسلمين الذين أغاروا على صقلية عبد الله بن قيس الدزقي ، الذي أخذ من هذه الجزيرة كثيراً من أصنامها الذهبية والفضية ^(٢) .

وسار أسطول معاوية بعد ذلك من نصر إلى نصر ، جاهدوا على توسيع رقعة الإسلام بالاستيلاء على ما يستطيع السيطرة عليه من جزر البيزنطيين . فاتجه الأسطول الإسلامي شطر رودس ، أهم جزر بحر إيجه ، وأعلاها مكانة في الدولة البيزنطية ، من حيث نشاطها البحري ، وحركة صفاعة السفن بها . فهذه الجزيرة أول حلقة في سلسلة أرخبيل بحر إيجه من ناحية الشرق ، وتمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي على بعد اثني عشر ميلاً تقريباً من الساحل لآسيا الصغرى ^(٣) . وأهلها هذا الموقع لأن تكون خطراً جاسماً على أطراف الشام الشمالية المتاخمة للحدود البيزنطية بآسيا الصغرى ، وشوكة مسلطة على إقليم العواصم والثغور الشامية .

(1) Vasiliev, Byzance et les Arabes, 62.

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٤٤ .

(3) Encyc. of Islam (art Rhodes)

بعث معاوية حملة لفتح رودس سنة ٥٣٣/٦٥٤ م تحت قيادة جفادة بن أمية الأزدي^(١) ، واستطاع هذا القائد الأموي أن يستولى على الجزيرة عنوة ، وكانت « غيطة في البحر . . . من أخصب الجزائر ، وهي نحو ستين ميلا ، فيها الزيتون والسكرور والثمار والمياه العذبة »^(٢) وجعلتها هذه المميزات مكاناً صالحاً لإقامة المسلمين به وتأسيس رباط لهم به يدافعون منه عن الشام . فأمر معاوية ببناء حصن بالجزيرة ، وبعث إليها جماعة من المسلمين يتولون الدفاع عنها . وبلغ من اهتمامه بحامية رودس أنه كان يجدد أفرادها دائماً ، ويسحب الدين قضاوا بالجزيرة مدى طويل لا يمتد على رأس الحامية وقوتها . وآثر معاوية أن يحيط المسلمين في رودس بالجوالا سلامي الديني ، ويملي راية الاسلام بين سائر أهلها ، فأرسل إليها فقيها يدعى مجاهد بن جبر يقرئ الناس القرآن^(٣) .

وأراد معاوية أن يتوج حملاته البحرية بغلق بحر إيجه وسد منافذه الرئيسية في وجه السفن البيزنطية ، ومنعها من الوصول إلى بلاد المسلمين . وعمل على تحقيق ذلك بالاستيلاء على جزيرة إقر بطش (كريت) ، إذ تسيطر هذه الجزيرة تماماً على بحر إيجه ، الذي يشبه طرفه الجنوبي فوهة قرية تمتد جزيرة إقر بطش عبرها ، باستدادها البالغ ١٦٠ ميلا ، وتقسّم الجزيرة هذه الفتحة إلى مدخاين تتحكم في كل منهما^(٤) . وأرسل معاوية جناده ، الذي استولى على رودس ، لفتح هذه الجزيرة الهامة ، ومنع الأساطيل البيزنطية من التسلل عبر الفتحات البحرية المتاخمة لها لمهاجمة الشام . على أن جنادة لم يستطع الاستيلاء على هذه الجزيرة لضخامتها ، واكتفى بالإغارة عليها والبطش بالبيزنطيين وأساطيلهم بها^(٥) .

(1) Lammens, La Syrie, 65.

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٢٤ .

(٣) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٢٤ .

(4) Semple, op cit, 74.

(٥) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٢٤ .

وهكذا وجه معاوية أنظار المسلمين شطر البحر الأبيض المتوسط ، وأوقفهم على أهمية جزره . فاستولى على ما استطاعت أساطيله أن تفتحه منها ، وطرق باب غيرها عمدا الطريق لمن يأتي بعده من الخلفاء الأمويين ، وكفل معاوية للمسلمين قوة بحرية نافست البيزنطيين سيادتهم القديمة على البحر الأبيض المتوسط ، ثم أخذ يعيئها لأهم عمل في تاريخها وهو ضرب عاصمة البيزنطيين أنفسهم والاستيلاء عليها . ولكن تراث معاوية في تحقيق الهدف الأخير حتى يمكن لنفسه من التفوق البحري على البيزنطيين .

ذات الصمري : ٣٤ هـ / ٦٥٥ م

كانت سلسلة الانقصارات البحرية الأولى ، ثم الإغارات البحرية الموفقة التي شنتها الأساطيل الإسلامية على الجزر البيزنطية بالبحر الأبيض المتوسط حافزاً شجع معاوية على توسيع خططه البحرية ، والقيام بمشاريع حربية على نطاق كبير . وسارت هذه الأهداف الجديدة التي عمل معاوية على تحقيقها في نطاق الفكرة العامة التي كرس نفسه لها منذ ولايته للشام ، وهي تأمين أرض الإسلام وإزالة أى شبح بيزنطى يحتمل أن يهدد هذا الأمن . وكانت أولى الخطط الجديدة التي رسمها هي محاولة الاستيلاء على القسطنطينية ، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية ، ورأس المقاومة لحركات الفتح والتوسع الإسلامى .

وتعتبر القسطنطينية المحرك الذى أدار شئون الدفاع البحرى عن الجزر البيزنطية وغيرها من البلاد . وأدرك المسلمون ألا استقرار لفتوحاتهم إلا بإدخال هذه العاصمة فى قائمة فتوحاتهم ، كما تم لهم من قبل الاستيلاء على المدائن عاصمة الفرس . ووقف المسلمون على أهمية القسطنطينية من حملاتهم البحرية على جزر بحر إيجه ، حيث صادفهم التوفيق مرة والفشل مرة أخرى . ولكن الفشل لم يكن ليفت فى عضد أولى الأمر فى الدولة الإسلامية ، وإنما زادهم تبصرة بحقيقة

موقفهم ، وتلافى ما يدهمهم من نقص . فكانت القسطنطينية الرأس المدبر للتنظيم البحري للدولة البيزنطية وجزرها في البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، ولا سيما السواحل الواقعة حول بحر إيجه الفنى بجزره الممتدة إلى مياه القسطنطينية المحلية . وانقسمت الإدارة البيزنطية البحرية إلى قسمين لسكل منهما اختصاصاته ، ومظاهرها تعاونه كذلك مع بعضهما البعض ، بما يكفل صدأى عدوان يقع على أراضي الدولة البيزنطية . فكان هناك نوعان من الأساطيل التابعة للإدارة البحرية البيزنطية ، الأولى أساطيل تابعة للأقاليم والمقاطعات التى تنظمها الدولة البيزنطية والثانية أساطيل خاصة بالعاصمة نفسها . وكانت الأولى موزعة بحيث تقاوم قدر طاقتها أية إغارة مفاجئة على أرض المقاطعات التابعة لها أو عرقلة أية حملة كبرى معادية قاصدة العاصمة حتى تأتى النجدة من أسطول القسطنطينية نفسها . وكانت جزر بحر إيجه وساحل آسيا الصغرى الغربى العمود الفقرى فى نظام أساطيل الولايات . إذ اشتملت جزر بحر إيجه على قواعد كبرى لأسطول الولايات ، على حين اختص ساحل آسيا الصغرى الغربى بشطر قائم بذاته من الأسطول العام للولايات ^(١) . وهذه الأساطيل هى التى شدت أزر البيزنطيين فى مقاومة حملات الفتح الإسلامى الأولى فى شمال الشام ، والتى عرقلت بعض مجهودات معاوية فى إغاراته البحرية على جزر البحر الأبيض المتوسط .

وكان التعاون بين الأسطولين البيزنطيين إبان إغارات معاوية البحرية غير وثيق ، لفساد الأحوال فى العاصمة البيزنطية ، وامتلائها بالمؤامرات والدسائس . ولكن ما كاد الامبراطور قنسطانز الثانى ينفرد بالعرش ويبلغ سن الرشده ، حتى عمد إلى مقاومة نشاط معاوية البحرية ، إذ أن تقدم المسلمين المضطرد فى جزر بحر إيجه ، واستيلائهم على قبرص وردوس مرق شمل النظام البحرى البيزنطى ، على حين كادت الإغارات الإسلامية البحرية أن تشد الخناق على العاصمة نفسها

(1) Bury, op cit II, 341 - 343

وتفصلها نهائياً عما تبقى لها من أملاك في البحر الأبيض المتوسط . ومن ثم أقبل قنسطانز على بث روح الحياة والنشاط في أسطول الماصمة لشد أزر أساطيل الولايات ، واستعدادا المناهضة حركات معاوية المقبلة .

وصدقت مخاوف الامبراطور قنسطانز من احتمال اتساع دائرة النشاط البحري الإسلامي ، إذ ترامت إليه في سنة ٦٥٥م أنباء استعدادات بحرية هائلة ، وأخرى برية يعدها معاوية ليضرب عاصمة البيزنطيين الضربة الأخيرة ، ويزيل عنادها في مقاومة المسلمين . فجهد قنسطانز على أن يتلافى هذا الخطر المقبل على عاصمته قبل اقترابه منها ، وعول على الخروج قاصدا الشام ليدمر الأساطيل الإسلامية قبل إبحارها من قواعدها . وفي الفترة التي أسرع فيها قنسطانز بإعداد سفنه الحربية ، نشط وكلاء الدولة البيزنطية بالشام لهرقلة الاستعدادات الإسلامية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . وكان معاوية قد حشد معداته الحربية في مدينة طرابلس استعداداً لقيام الحملة البحرية ، على حين عبأ القوات البرية بدمشق للسير عبر آسيا الصغرى . ولكن شخصين مسيحيين من مدينة طرابلس أسرعوا إلى سجن المدينة ، وكان به عدد كبير من الأسرى البيزنطيين ، وفتحوا أبوابه وأطلقوا سراحهم . ثم تابعا عملهم بدفع الأسرى إلى مهاجمة دار الحاكم الإسلامي بالمدينة وقتله هو وأتباعه ، ثم أحرقوا العدد والعتاد التي بذل معاوية في جمعها كثيراً من الجهود والعناء ، وهربوا جميعاً إلى القسطنطينية ^(١) .

وإذا كان وكلاء الدولة البيزنطية قد نجحوا في تنفيذ خططهم داخل أرض الإسلام ، فإن معاوية أعد من آلات الحرب ما فاق العتاد الذي دمر ، وأتم سائر استعداداته بسرعة . وتمخضت الحادثة السالفة عن إلهاب الحماسة بين المسلمين وحفزتهم على أخذ الحذر من عدوهم العنيد . وسار معاوية على رأس قواته البرية سنة ٦٥٥م إلى مدينة قيصرية في قبادوقيا بآسيا الصغرى ، على حين وصلت سفن

(1) Bury, op cit II, 290; Finlay, History of Greece I, 377.

حربية من مصر إلى سواحل الشام وانضمت إلى أساطيلها الزاحفة صوب القسطنطينية . على أن الأسطول الإسلامي ألقى مرساه بالقرب من ساحل ليكيا (عند فوينكس Phoenix ^(١)) ، حيث بلغه هناك نبأ اقتراب أسطول بيزنطى على رأسه الامبراطور نفسه يهدف ضد تقدمهم .

ودلت استعدادات الأسطول البيزنطى على أن قنسطانز صمم على وضع حد لاتساع الفتوحات الإسلامية وكسر شوكتهم نهائياً ، على حين دلت الجهود التى بذلها معاوية فى إعداد أساطيله على صدق عزيمة المسلمين فى الجهاد والزود عن أرض الإسلام ، وإظهار التعاون الوثيق بين قوات مصر والشام البحرية فى هذه المرحلة المبكرة من دخولها فى حظيرة الإسلام . فقد خرج على رأس أساطيل مصر واليهما نفسه عبد الله بن أبى سرح ، الذى خلد له التاريخ اشتراكه فى معركة من أعظم المعارك البحرية الفاصلة فى تاريخ البحر الأبيض المتوسط ، وصد أكبر خطر بيزنطى كاد يدهم المسلمين وأرضهم . ذلك أن قنسطانز « خرج فى جمع لم يجتمع للروم مثله منذ كان الإسلام ^(٢) » فكان أسطوله يتألف من خمسمائة سفينة مزودة بالآلات الحرب ، راع منظرها المسلمين ، ولا سيما الذين سبق لهم أن اشتبكوا مع البيزنطيين فى معارك بحرية . ووصف أحد المشتركين فى الحملة البحرية الإسلامية شعوره حين تقابلت الأساطيل الإسلامية مع سفن البيزنطيين قائلاً : « فالتقىنا فى البحر ، فنظرنا إلى سراكب ما رأينا مثله قط » ^(٣) .

وكانت الرياح غير ملائمة حين التقى الجمعان فى البحر ، فقفى المسلمون والبيزنطيون ليلتهما انتظاراً لما يسفر عنه الصباح ، وأخذوا يستعدان فيها ، ويعملان على تقوية روحهما المعنوية . فبات المسلمون ليلتهم يصلون ويدعون الله ، على

(1) Bury, op cit II, 200.

(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٦٩ .

(٣) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

حين قضى البيزنطيون ليلتهم يضربون بالنواقيس^(١) . وفي صبيحة اليوم التالي دارت المعركة ، واشترك فيها الامبراطور قنسطانز نفسه ، إذ أخذ يصدر من سفينته تعليمات لقتال المسلمين ، ويتابع منها الأنباء بانتظام عن سير المعركة .

وبدأ المسلمون القتال باستخدام الأقواس والسهم ، فأدرك قنسطانز تفوق جنده عليهم ، لأن المسلمين يجيدون هذا السلاح في الحروب البرية فقط ، وأن ذخيرتهم سوف تنفذ سريعاً . وتحقق ما رآه قنسطانز ، إذ اضطر المسلمون إلى استبدال الأقواس والرماح بالحجارة وقذف العدو بها . فأيقن قنسطانز أيضاً أن الفوز حليف أساطيله . ولكن لما رأى المسلمون نفاد ذخيرتهم من الحجارة كذلك وأن العدو ما زال بعيداً عن متناولهم ، وأنه يراوغ ويماطل لأنهم كانوا ربطوا سفنهم بعضها إلى بعض ، وقذفوا خطاطيف في البحر ، جذبوا بها سفن البيزنطيين إليهم . ثم اتخذوا من ظهور السفن جميعاً ميادين للقتال . وحين وصلت أنباء هذه الخطة الجديدة إلى الامبراطور قنسطانز أدرك فشل حملته ، وأن الهزيمة لا شك محيطة بجنده^(٢) .

وتحقق استنتاج قنسطانز ، إذ وثب المسلمون على البيزنطيين بالسيوف والخناجر ، وأعملوا فيهم التقتيل . واشتد الصراع وكثر القتل . حتى وصف شاهد عيان هذه الحالة قائلاً « رجعت الدماء إلى الساحل تضر بها الأمواج ، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركماً^(٣) . » وأبدى الفريقان المتحاربان من صنوف التفانى في الواجب ومن ضروب الشجاعة ما سجلته المراجع الإسلامية والبيزنطية . فكان لشجاعة المسلمين أثر عظيم في إحراز النصر ، على حين استمات البيزنطيون في الدفاع عن أنفسهم . وتبلى ذلك حين عمد الامبراطور قنسطانز إلى نشر الفوضى في صفوف

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٧٠ .

(٢) ابن عبد الحسك ، فتوح مصر ص ، ١٦٠ : ٣٥٧ ، Kremer, op cit, 357 .

(٣) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٧٠ .

المسلمين ، بعد أن صارت يدهم هي العليا في المعركة ، وأن كفتهم أخذت ترجح على البيزنطيين . إذ قذف جنده خطافاً على سفينة أمير البحر الإسلامي عبد الله ابن أبي سرح ، وأخذوا يجذبون المراكب الإسلامي إليهم . واستهدف البيزنطيون من ذلك الإطاحة بالرأس المدبرة لعمليات قتل المسلمين . وكاد البيزنطيون ينجحون في أسر مركب القيادة الإسلامية لولا شجاعة أحد الجنود المسلمين ويدعى علقمه . إذ رمى هذا الجندي نفسه على السلاسل التي جذبت المركب الإسلامي ، وأخذ يعمل فيها القطع رغم ما تعرض له من ضربات العدو . وكال عمل علقمة بالنجاح ، إذ قطع السلسلة وأنقذ السفينة الإسلامية من الوقوع في الأسر . ونال هذا الجندي ثناء زوجة أمير البحر التي تسمى بثينة ، إذ كانت على ظهر السفينة أثناء القتال ، واستطاع أن يظفر بزواجها فيما بعد ، حين توفي زوجها^(١) . وأظهر البيزنطيون أيضاً تفانياً في الدفاع عن سفينة الامبراطور حين هاجمها المسلمون . إذ أعمل المسلمون القتل في جندها ، وكادوا يظفرون برأس الامبراطور نفسه ، لولا أنه تنكر باستبدال زيه مع ملايس ابن أحد ضاربي الطبول على السفينة ، وهرب من المعركة على ظهر مركب آخر اتجه به إلى صقلية^(٢) . وبقرار الامبراطور قضى المسلمون على هذه الأرمادا البيزنطية ، وخرجوا ظافرين من معركة حامية الوطيس . ولا يعرف ما قام به معاوية في آسيا الصغرى في تلك الفترة التي دارت فيها المعركة البحرية ، ولكن يبدو أنه هدف إلى قطع الاتصال بين جند البيزنطيين في آسيا الصغرى وأساطيلهم البحرية ، إذ كانت الدولة البيزنطية تعتمد في ذلك الوقت اعتماداً كلياً في تعبئة قواتها والحصول على الذخائر من فيالق جيشها ورعاياها بآسيا الصغرى .

وتعتبر هذه الواقعة البحرية من المعارك الحاسمة القلائل التي غيرت مجرى تاريخ البحر الأبيض المتوسط ، إذ تقف وقعة ذات الصواري على قدم المساواة

(1) Kremer, op cit II, 358.

(2) Bury, op cit II, 290, 291.

مع معركة أكتيوم (سنة ٣١ ق. م) ^(١) في التاريخ البحري القديم لهذا البحر ،
ومعركة النيل (أو أبي قير البحرية سنة ١٧٩٨ م) ^(٢) في العصر الحديث .
فكما أن معركة أكتيوم جعلت البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية حتى آل
إلى الامبراطورية البيزنطية ، وكما أن معركة النيل رسمت الخريطة السياسية التي
نراها في عصرنا الحاضر للبحر الأبيض المتوسط ، فإن معركة ذات الصواري
قضت على انصاف البحر الأبيض المتوسط بأنه « بحر الروم » وجعلته حرياً أن
يدعى « بحر المسلمين » ^(٣) . فقد انطلقت فيه السفن الإسلامية في حرية تذهب
حيثما تريد ، رافعة علم الإسلام .

وتجلبت أولى النتائج الهامة التي ترتبت على هذه المعركة الفاصلة عندما تخلى
الامبراطور قنسطانز ومن جاء بعده من الأباطرة عن فكرة طرد المسلمين من
البلاد التي استولوا عليها في شرق البحر الأبيض المتوسط ، واستعادة ما كان لهم
من سالف النفوذ والسلطان هناك . إذ أدرك أولئك الأباطرة أن هذه الفكرة
ضرب من الأحلام التي فات أوانها ، وأن قدم المسلمين رسخت نهائياً على شاطئ

(١) أكتيوم اسم قديم لإحدى الرؤوس الأرضية الممتدة من شمال اليونان في البحر .
واشتهرت هذه البقعة لأنه دار بالقرب من مباحها ربحي معركة بحرية هامة سنة ٣١ قبل الميلاد
بين أساطيل البطالمة حكام مصر ، والقائد الروماني أوكتافوس . وكانت أهمية هذه
المعركة ترجع إلى أنها جلبت النصر الرومان ، وقضت على البطالمة الذين كانوا آخر قوة تنافس
الرومان على سيادة البحر الأبيض المتوسط . إذ تلا هذه المعركة سقوط مصر في أيدي الرومان
وأصبح البحر الأبيض المتوسط تابعاً كله لهم . وآلت سيادة هذا البحر إلى الإمبراطورية البيزنطية
عندما ورثت ما تبقى للدولة الرومانية من بلاد على هذا البحر .

(٢) معركة النيل حدثت سنة ١٧٩٨ م ، عندما فاجأ نيلسون أمير البحر البريطاني
أسطول نابليون في مياه أبي قير البحرية وحطمه . وكان لهذه الحادثة أثر كبير في مصائر الشرق
والبحر الأبيض المتوسط ، إذا آذنت بفشل حملة نابليون على مصر وفتحت باب النفوذ البريطاني
في البحر الأبيض المتوسط .

(٣) أصبحت الأساطيل الإسلامية تبدأ بالمحوم ، وتدفع أمامها سفن البيزنطيين ، ومهدت
الطريق لعظمة المسلمين البحرية فيما بعد على بلاد البحر الأبيض المتوسط . وقد أشاد ابن خلدون
بنشاط الأمويين البحري وما أفادته الدولة الإسلامية فيما بعد من جهادهم وإغاراتهم على أعدائهم ،
حتى أن « أساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد على فريسته » ، وقد ملأت الأكثر من
بسيط هذا البحر عدة وعدداً ، واختلفت في طرقة سلما وحرباً ، فلم تظهر للنصرانية فيه ألواح .

البحر الأبيض المتوسط الشرقى . فنجفحوا إلى الاعتراف بالأمر الواقع ، وادخار جهودهم وقوتهم إلى وقت قد يحتاجون فيه للدفاع عن دولتهم وحمايتهم من التردى نهائياً فى أيدي المسلمين .

ويضيف إلى أهمية هذا التخيير الجديد الذى طرأ على سياسة الدولة البيزنطية نجاح المسلمين بعد معركة « ذات الصوارى » أن الدولة الإسلامية نفسها دخلت بعد هذا الانتصار مباشرة فى دور من القلق والنزاع بسبب مقتل عثمان . ثم تطور الأمر بعد ذلك إلى نشوب حرب أهلية بين على ومعاوية ، وانقسام العالم الإسلامى نتيجة هذا الصراع إلى قسمين متناضلين . فكانت هذه الاضطرابات فرصة سانحة يستطيع البيزنطيون أن يوقعوا فيها أشد الأضرار بالمسلمين لو أنهم لم يتخلوا تماماً عن فكرة استعادة أملاكهم فى البحر الأبيض المتوسط من أيدي المسلمين . وقد كانت التخوم الإسلامية خلواً من الرباط المدافع عنها لأن معاوية سحب معظم قواته منها لتشد أزره فى حربه مع على بن أبى طالب .

وهكذا لم يتعرض معاوية بعد هذا النصر المبين فى وقعة « ذات الصوارى » لخطر البيزنطيين . إذ رأت الدولة البيزنطية أن الأجدى بها هو تصفية علاقاتها مع العناصر الضاربة على حدودها الشمالية ، والاكتفاء بتأمين أراضيها فى الجبهة الجنوبية من آسيا الصغرى لدرء ما قد يقوم به المسلمون من نشاط حربي جديد . فأنجبه الامبراطور قنسطانز إلى تأديب عناصر السلاف بالبلقان ، وكانت قد جددت نشاطها ضد البيزنطيين وأراضيهم أثناء انشغالهم بالحروب مع المسلمين . ثم ذهب الامبراطور بعد أن فرغ من هذه المشكلة السلافية إلى صقلية ليقوى جبهة دولته الغربية ضد أى زحف إسلامى قد يبدأ من مصر .

على أن معاوية لم يكتف بدوره بهذا النصر ، ولم يقنع بأنه غداً أول شخص ففتح للمسلمين صفحة رائعة فى تاريخ البحر الأبيض المتوسط . إذ اتجه إلى حدود الشام الشمالية ، وعهد إلى تحصينها ليقىها من أخطار البيزنطيين . وأصبحت الخطة

التي رسمها لهذه المنطقة من الشام النموذج الذي احتضاه العباسيون فيما بعد لدفع الخطر البيزنطي عن تخومهم المجاورة لآسيا الصغرى .

مناطق التّخوم (التّواصم والمقور) :

ارتبط بنشاط معاوية البحري ، وتحصين المدن الساحلية بالشام ، القيام بمجهودات أخرى لحماية أطراف الشام الشمالية من إغارات البيزنطيين . وكانت الفتوحات الإسلامية الأولى للشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب قد وصلت إلى أنطاكية وحلب ، اللتين دخلتا في حظيرة المسلمين ، وتبعتهما مدينة قنسرين التي قاومت المسلمين الفاتحين بعض الوقت . وكان أبو عبيدة بن الجراح القائد العام للجيوش الإسلامية بالشام هو الذي يدير عمليات فتح هذه المدن ، ولا سيما أن البيزنطيين كانوا يؤلمون القبائل العربية الضاربة في أطراف هذه المدن ، ويمدونها بالمساعدات الحربية^(١) . ولكن ما أن انهزم البيزنطيون وعادوا إلى آسيا الصغرى ، حتى دخلت المنطقة الشمالية من الشام في حظيرة المسلمين . وقد وضع لها نظام جديد يتفق مع متاخمتها لحدود آسيا الصغرى البيزنطية . إذ وقف المسلمون عند السفوح الجنوبية الشرقية لجبال طوروس ، على حين تحصن البيزنطيون خلف هذه السلسلة الجبلية في آسيا الصغرى .

أدى هذا الموقف إلى تخوف المسلمين والبيزنطيين من بعضهما البعض ، ودفعهما إلى تحويل المنطقة التي تفصل بين ممتلكاتهما إلى خراب موحش لا يشجع أحداً على ارتياده . فنقل كل منهما سكان تخومهما إلى داخل البلاد ، وترك حصونهما مقفرة ، ومنازلها خالية من العمران^(٢) . وكان البيزنطيون أشد اهتماماً من المسلمين بتخريب منطقتهم الواقعة شمال حلب وأنطاكية ، ليوقفوا

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٥٥ .

(٢) Kremer, op cit , 847 :

Hitti , History of Syria. , 447.

حركة الزحف الإسلامي فيما وراءهما . فنقل هراقل كثيراً من سكان أنطاكية معه حين ودع سوريا عائداً إلى عاصمته ، كما خرب معظم الحصون البيزنطية التي كانت فيما بين الأسكندرونة وطرسوس . فلم يجد المسلمون في إغاراتهم على هذه المنطقة أى أثر للبيزنطيين أو لمقاومتهم^(١) . وأدى ذلك في مبدأ الأمر إلى إثارة مخاوف المسلمين ، فجهدوا على معرفة أحوال البيزنطيين ، وما يخفونه من أهداف وأعمال . فاشترط أبو عبيدة على أهالى بعض هذه الجهات الشامية القريبة من الحدود البيزنطية أن يبذلوا جهدهم لمعرفة أخبار البيزنطيين ، وتزويد المسلمين بها مقابل تركهم أحراراً في شئونهم الخاصة .

ويعزى اهتمام المسلمين بتمصّي أحوال البيزنطيين وحركاتهم إلى ما لاقوه من متاعب وكوارث في بعض حملاتهم الأولى ، التي قاموا بها عبر هذه الجهات الجبلية التي تفصل شمال الشام عن آسيا الصغرى . إذ كان على المسلمين اجتياز بعض الدروب الجبلية في جبال طوروس لمهاجمة البيزنطيين؛ وأهمها ممران مشهوران الأول يعرف بالأبواب القيليقيّة التي تتحكم فيها مدينة طرسوس ، والثانى يسمى درب الحدث ويقع إلى الشمال الشرقى من الممر السابق . ولقى المسلمون متاعب جمة في اجتياز هذه الممرات ، إذ دأب البيزنطيون على الاختفاء لهم في كائن أعدوهم في هذه الجهات الخربة ، ثم ينقضون عليهم عند عودتهم وينزلون ضربات شديدة بمؤخرة جيوشهم التي قد تخطىء في طريق عودتها . ولذا كان الممر الثانى من المناطق التي حاق بالمسلمين فيها كثير من الهزائم، حتى سموه درب الحدث تطيراً من أحداثه السيئة^(٢) .

ولم يلبث المسلمون أن عمأوا على تلافى هذه الأخطار بترك حاميات عند

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٣) Le Strange , The Lands of the Eastern Caliphate, 128

النفرات الجبلية التي ينفذون منها لمهاجمة البيزنطيين ، ثم تطور الأمر إلى اهتمامهم بتحصين المدن التي تتحكم في هذه الممرات . وكان أمام المسلمين سلسلة طويلة من الحصون الخربة التي دمرها البيزنطيون أثناء تفهقهم ، على حين ظلت بعض معاقل أخرى خاضعة لهم ، وانتشرت هذه السلسلة من الحصون في المنطقة التي عرفت فيما بعد على عهد الخليفة الرشيد باسم العواصم ، وامتدت من طرسوس إلى سميساط على نهر الفرات ^(١) . وتمتعت جميعها بمراكز استراتيجية هامة في المنطقة الجبلية على الحدود بين المسلمين والبيزنطيين ، إذ سيطرت على مفارق الطرق الحربية المارة بها ، أو مداخل الممرات الجبلية الطبيعية ^(٢) الواقعة في دائرتها .

ورأى معاوية ، بعد أن انفرد بإقليم الشام ، ضرورة العناية بهذه المعاقل والتخلي عن سياسة تخریبها وترك منطقتها فلاة موحشة . فاهتم أولاً بمدينة أنطاكية التي كانت معرضة دائماً للاغارات البيزنطية المفاجئة ، واتبع في تعميدها السياسة التي سار عليها إزاء المدن الساحلية بالشام ، إذ أغرى الناس على الإقامة بأنطاكية بأن منحهم إقطاعات من الأرض ، وقوى الرباط المخصص للدفاع عنهم ، ثم نقل إلى المدينة جماعة من أهل بعلبك وحصن لنشر العمران فيها ^(٣) . وأخذ معاوية يوالى تدريجياً تعمير المدن الواقعة بين الإسكندرونة وطرسوس أثناء إغاراته على أراضي البيزنطيين ، حتى أصبحت حدود الشام تتأخم مباشرة جبال طوروس ، الحد الفاصل بين الشام وآسيا الصغرى . ففي سنة ٢٥ هـ / ٦٤٥ م عندما قام بغزوة على

(١) يطلق اسم العواصم والثغور عامة على الحصون التي أقامها هارون الرشيد في نفس المنطقة التي حصنها الأمويون ، لمواجهة البيزنطيين في جنوب آسيا الصغرى . فقد فصل الرشيد أرض قيسرين والتي تضم حلب ومبج وأنطاكية غرباً إلى الساحل وجعلها لإقليماً جديداً يشمل سائر الحصون . واهتم كذلك بسائر الحصون الأخرى ، وكان ذلك سنة ١٧١ هـ .

(٢) Cheira , Arabes et Byzantins , 109 .

(٣) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٥٤

عمورية بآسيا الصغرى ، شاهد الحصون ما بين أنطاكية وطرسوس وخلوها من السكان ، فأقام بها جنداً إسلامياً لتأمين ظهره أولاً ، ثم بدأ تجهيزها بعد عودته ، وعهد إلى الاستفادة منها في الدفاع عن الشام^(١) .

وعرفت سلسلة الحصون في الجهات الإسلامية الملاصقة للدروب والثغرات التي ينفذ منها البيزنطيون من جبال طوروس لهاجمة شمال الشام باسم « الثغور » على حين أطلق اسم « العواصم » على سلسلة الحصون الخلفية لمنطقة الثغور ، ولم تلبث منطقة العواصم والثغور أن اتسعت باتساع سلطان معاوية ، عندما ضم إليه الخليفة عثمان شمال الجزيرة وعهد إليه بالدفاع عنها أيضاً ضد البيزنطيين . إذ كان إقليم الجزيرة وشمال الشام وحدة تتمم بعضها بعضاً من حيث ارتباط حصونها ، وتعرضها كذلك لإغارات البيزنطيين . واتبع معاوية في تلك الجهات نفس الطريقة التي سار عليها في الشام . فأقام القبائل العربية المضاربة في شمال العراق في جهات بعيدة عن المدن المعرضة للفرز البيزنطى ، ثم حصن هذه المدن بسلسلة من الحصون أشبه بالعواصم والثغور الشامية ، وخصص لها حاميات دائمة للدفاع عنها من الجند النظامى للدولة^(٢) .

وتابع معاوية أعماله في تلك السبيل باستكمال سيطرته على المعازل الأخرى الهامة الواقعة في منطقة المخوم الإسلامية البيزنطية . فاستولى قائده حميد بن مسامة الفهرى على مدينة سميساط^(٣) ، ومنها سار إلى ملطية وفتحها . ووضع معاوية في هذه المدينة الأخيرة رباطاً قوياً ، ونقل إليها جماعة من خيرة رجال الشام والجزيرة ، وأصبحت قاعدة للاغارات الإسلامية على أرض البيزنطيين^(٤) . ثم جدد معاوية الحصون الأخرى التي خربها البيزنطيون ، فبنى مدينة مرعش ،

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٧١ ، ١٧٢ .

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٨٦ .

(٣) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٩٢ .

(٤) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٩٣ .

وأعاد ترميم حصن الحدث الذي يسيطر على الممر المعروف بهذا الاسم ، والذي لقي المسلمون عنده من قبل الكثير من الهزائم ، بسبب إغارات البيزنطيين المفاجئة . وأتم معاوية نشاطه بالإستيلاء على حصن زبطرة البيزنطى وإعادة تحصينه (١) .

وكان قادة جيوش المسلمين يحرصون في غزواتهم على الاهتمام بمناطق التخوم الإسلامية على نحو ما فعل معاوية . فجهدوا في تعميمها وتشجيع الناس على المجيء إليها ، إذ أقاموا في بعض جهات بالقرب منها طلباً للراحة بعد عودتهم من إحدى الإغارات ، وللترفيه عن جندهم ، حتى ظهرت في الأماكن التي عسكر فيها جند المسلمين مدن جديدة هامة . ومن القادة الذين كان لهم فضل الاهتمام بهذه الجهات مالك بن عبد الله الخثعمي ، إذ أقام بعد عودته من إحدى الإغارات على أرض البيزنطيين في مكان يدعى « رهوة » على بعد خمسة عشر ميلاً من درب الحدث . وقضى بهذا المكان ثلاثة أيام وزرع فيها الغنائم التي حصل عليها على الجند ، فعمر سوق هذه البقعة بحركة البيع والشراء ، وعرفت من بعده باسم رهوة مالك (٢) .

وكان من نتائج تحصين هذه الجهات أن انقسمت الحدود الإسلامية إلى قسمين ، إقليم العواصم والنغور الشامية للدفاع عن إقليم الشام ، وللإغارة على أرض البيزنطيين بآسيا الصغرى ، وإقليم العواصم والنغور الجزرية للدفاع عن شمال العراق ، وللحملات التي تقوم منه على أرض الدولة البيزنطية . وشجعت سلسلة الحصون على قيام إغارات دائمة منظمة أعدها معاوية لتخريب أراضي البيزنطيين . وعرف النظام الذي سار عليه معاوية « بالصوائف والشواتى » ، حيث كانت الأغارات الإسلامية تقوم صيفاً وشتاءً ، وتتوغل في بلاد البيزنطيين ،

(١) البلاذرى : نفس المرجع ، ص ٢٠٠ .

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

ابن عساكر ، نفس المرجع ، ج ١ ص ٥٦ ، ٥٧ .

وتعود إلى قواعدها مرة أخرى بعد أن تنتهى من مهمتها . وقد استهدف معاوية كذلك من هذا النظام في تلك الفترة المبكرة إيجاد ميدان يتدرب فيه الجند الإسلامى على أساليب القتال وإعدادهم للقيام بمشاريع الفتوحات السكبرى فيما بعد ^(١) .

وقاد معاوية بنفسه كثيراً من هذه الصوائف ، وهدف من وراءها إلى استطلاع أحوال المناطق التى يمر بها بنفسه . وكانت أشهر الحملات الاستطلاعية تلك التى قام بها فى عام ٢٥ هـ / ٦٤٥ م حيث أغار على عمورية ، واقترب من البسفور الذى تطل عليه القسطنطينية . وهكذا لم تخل إغارات المسلمين على بقاع آسيا الصغرى من فائدة ، إذ استطاعوا دراسة الطرق التى توجد فى هذه البلاد ، ولا سيما الطريق المؤدى إلى القسطنطينية ، حلم معاوية ومطمح أنظاره . واهتم معاوية ببعض حصون إسلامية أخرى أعد فيها جانباً من الصوائف لولاها بنفسه . فخرج فى سنة ٣١ هـ / ٦٥٢ م من ناحية المصيصة وأغار على البيزنطيين ، كما ذهب إلى ملطية بعد أن استولى عليها حبيب بن مسلمة واتخذها قاعدة لإحدى إغاراته . سالكاً الطريق الحام الذى تتحكم فيه والمؤدى إلى أرض البيزنطيين ^(٢) .

وأدرك معاوية من تجاربه فى ميدان الصوائف والشواقي ضرورة انتقاء قادة ممتازين يتولون إدارة عملياتها الحربية ، إذ تتطلب هذه الإغارات مهارة وحذقاً وسرعة بديهة من القادة ، وإلا تعرضت الحملة كلية للفناء ، لما عرف عن البيزنطيين من الدهاء والبراعة فى إقامة السكائن بالمرات التى يجتازها المسلمون ، ومفاجأتهم بالعدوان حين تتاح لهم الفرص . فكان معاوية يستدعى الأشخاص الأكفاء المشهود لهم بالمهارة ويجرى لهم نوعاً من الاختبار الشخصى يقف منه على مدى مواهبهم وتجاربهم ، ثم ينتقى من بينهم أحدهم لقيادة الحملة المعدة وفق أهميتها وخطورتها ^(٣) . وكان يرسم للقائد الذى يقع عليه الاختيار الخطة التى يتبعها فى

(١) Hitti , op cit , 443 .

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٧١ ، ١٩٣ .

(٣) العقد الفريد ، ص ١٥٦ .

إغاراته سواء من حيث تخريب الحصون أو تدميرها . إذ أسر أحد القادة الذي أوفده في إغارة على أرض البيزنطيين ، ويدعى يزيد بن الحر العبسي ، سنة ٦٤٨/٥٢٧ م بتخريب ما يلاقيه من حصون العدو وإقامة الحراس على المنافذ التي يمر منها إلى ما بعد عودته من غزوته ^(١) .

وأضحى ميدان الصوائف والشواتى مجالا يبدى فيه قادة المسلمين مواهبهم ويتدربون فيه على أساليب القتال . وعلاصيت كثير من القادة المسلمين لما أبدوه من شجاعة في هذه الإغارات حتى أغدفت عليهم ألقاب التكريم اعترافاً بجهودهم ونشاطهم ، فأطلق على مالك بن عبد الله الخثعمي وهو رجل من أهل فلسطين اسم « مالك الصوائف » ^(٢) لعلو كعبه في الميدان الحربى بآسيا الصغرى . وأثبت معاوية بذلك أن لديه شيعة وأنصاراً قادرين على تنفيذ مشاريعه في حماية أرض الإسلام .

وتجلى انتظام الصوائف والشواتى على أراضى الدولة البيزنطية بآسيا الصغرى بعد أن غدا معاوية خليفة المسلمين ، وانتهى من مشا كله الداخلية . إذ تسجل الحوليات الإسلامية نشاط جند معاوية في الأغارة على آسيا الصغرى التي تذكرها المراجع العربية بإسم « بلاد الروم » ، والتي أطلق عليها البيزنطيون أيضاً اسماً أشبه بالاسم العربى « Romania » . وظهر في هذه الجهة خلال تلك المرحلة من خلافة معاوية القائد عبد الرحمن بن خالد بن الوليد . إذ أغار على آسيا الصغرى سنة ٦٦٣ م ، وأخذ كثيراً من الأسرى وخرب بعض الحصون البيزنطية . وفي السنة التالية (٦٦٤ م) ، أعاد الإغارة على آسيا الصغرى ، وأمضى فصل الشتاء بها . وتمتاز هذه الاغارة الثانية بانضمام جماعة من السلافة التي عبرت الدردنيل إلى جيش عبد الرحمن ، حيث فضلت إعلان تبعيتها للخليفة.

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٧١ ، ١٧٢ .

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٩٩ .

المسلم عن الدخول في طاعة امبراطور البيزنطيين . وهذه الحركات التي قام بها السلاف ، وتعضيدهم للمسلمين في إغاراتهم على آسيا الصغرى تفسر مدى اهتمام أباطرة الدولة البيزنطية بانتهاء حركات السلاف وإخادها ببلاد البلقان ، وإعادتهم للتبعية لهم ، ومنع أى اتصال يقوم بينهم وبين المسلمين .

وعاد عبد الرحمن من هذه الإغارة ومعه خمسة آلاف من السلاف أسكنهم معاوية في شمال الشام ^(١) . وقد توفي هذا القائد المسلم حالما دخل حمص ، بعد أن خلف اسمه في سجل المجاهدين عن حياض الدولة الإسلامية وإعلاء راية المسلمين ضد البيزنطيين ، كما نال أبوه من قبل النصر المظفر ضد البيزنطيين في ميدان فتوح الشام .

وتسكاد تكون السنوات التي تلت إغارات عبد الرحمن على آسيا الصغرى حتى وفاة الخليفة معاوية سلسلة متصلة من الصوائف والشواتي اضطلع بها القادة المسلمون . وقد قضى بعضهم الشتاء بآسيا الصغرى متحملاً بردها القارص ^(٢) في سبيل تحقيق أهداف الدولة الإسلامية ^(٣) . وكانت أحداث هذه الإغارات تجري وفق نظم مقررة تسكفل للجند الإسلامي الأمن والسلامة . فروى أحد المجاهدين المسلمين على عهد معاوية أن أهل الشام كانوا يتخذون استعدادات وافية عندما يقومون بالصوائف والشواتي . فإذا نزلوا بأرض البيزنطيين ، قسموا أنفسهم أجناداً للحراسة والدفاع والإغارة ، وكفلوا وسائل الاتصال بين الأجناد بعضها

(١) Bury, op cit II, 307.

(٢) أظهر المسلمون شجاعة نادرة في تحمل التضحيات التي تنزل بهم في ميدان الصوائف . فن ذلك أن سيدها من كبار شخصيات الكوفة يدعى عبد العزيز بن زرارعة خرج مع يزيد ابن معاوية في إحدى الصوائف . وقد لقي هذا الرجل حتفه في الإغارة الإسلامية ، وكتب يزيد إلى أبيه معاوية بذلك الخبر . فبعث معاوية إلى زرارعة وقال له « أتأني اليوم نهي سيد شباب العرب ؟ فقال زرارعة : يا أمير المؤمنين ، هو ابني أو ابنتك ؟ قال : بل ابنتك ، قال للموت ما تلد الوالدة » . انظر العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٦٩ .

(٣) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٢١ ، ١٢٨ .

بعضاً ، كما أعدوا أما كن للخيول محصنة لدرء الاغارات المفاجئة التي قد يشنها العدو (١) .

وترك لنا أحد المؤرخين المسلمين المتأخرين وصفا لنظام الصوائف والشواتي على أرض الدولة البيزنطية . فذكر أن المسلمين قاموا بإغارات في فصل الربيع والصيف تسمى بالصوائف ، وأخرى في الشتاء تسمى بالشواتي . وكان غزو الربيع يبدأ من منتصف مايو حين تكون الخيول قد سممت وقويت من رعيها في كلاً الربيع ومراعيه ، ويستمر الغزو ثلاثين يوماً ، أي إلى منتصف الشهر التالي . وفي هذه الاغارات تجدد الخيول عذاء وفيراً في مراعي البيزنطيين التي تربيها . ثم يجنح المسلمون إلى السكينة ، ويرجعون خيولهم من منتصف يونيو إلى منتصف يوليو حيث تبدأ إغارات الصيف ، وكانت هذه الحملات تستغرق ستين يوماً . أما إغارات الشتاء فلم يقدم المسلمون عليها إلا في حالات الضرورة القصوى ، دون أن يعمقوا في التوغل داخل أراضي البيزنطيين ، فلم تستغرق الشواتي أكثر من عشرين يوماً . وكانت تلك الشواتي تقع عادة في الفترة ما بين أواخر فبراير والنصف الأول من مارس (٢) . وبذلك ترك معاوية خلفاءه نظاماً ساروا عليه في تضيق الخناق على الدولة البيزنطية ، وإشاعة الاضطراب والفوضى في آسيا الصغرى ، أهم أركان حياتها الاقتصادية .

المردة أو الجبراهمة :

اصطدم معاوية حين اتجه إلى تحصين العواصم والثغور بشمال الشام المتاخمة لأراضي الدولة البيزنطية بجماعة خارجة عن طاعة الدولة الإسلامية ، وعرقلت تقدم مشاريعه فترة من الزمن . والتقى معاوية بهذه الجماعة في جبل اللكام (Amanus)

(١) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٢١ ، ١٢٨ .

(٢) قدامة بن جعفر ، الحراج ، ٢٥٩ .

حيث أقامت به لا تعرف طاعة أحد منذ دخل المسلمون الشام . وكان سكان جبل الاسكام العصاة ، تابعين قبل الفتح الإسلامي لطريق أنطاكية وواليها. ^(١) ولما فتح أبو عبيدة بن الجراح مدينة أنطاكية اعتصم أولئك السكان بجبل الاسكام دون أن يتنبه لخطورتهم المسلمون ، وأخذوا يحيطون حياة شبه مستقلة في صياصي الجبال ، ولهم مدينة أشبه بالحاضرة تسمى الجرجومة ^(٢) . وهم ينسبون أحياناً إلى هذه المدينة ويدعون بالجراجمة ، على حين أطلق عليهم المسلمون اسم المردة ، لما لمسوه فيهم من العصيان ، والخروج دائماً على طاعتهم ^(٣) .

وكان أولئك المردة من قبل عصاة لكل سلطة حاكمة في الشام ، وتجلت هذه الظاهرة منذ أيام الدولة الرومانية الكبرى واستيلائها على الشام ، إذ وصف الرومان موطن المردة الجبلى بأنه مقر أعداء شديدي البأس ، « Mons hostium » ^(٤) ، كما فسّروا سكان الاسكام بالعداوة الدائمة « Hostis perpetuus » . وظل المردة على حياة العصيان حتى جاء الفتح الإسلامي للشام . وتنبه المسلمون لخطر الجراجمة بعد أن نقض أهل أنطاكية عهد الصالح الذي أعطاه لهم أبو عبيدة ، واسكن المسلمين فتحوا المدينة مرة ثانية وتولى شئونها حبيب بن مسلمة الفهري أحد شيعة معاوية وأمهـر قادة في الميدان الشمالى المواجه لأرض البيزنطيين . فأثر الجراجمة الهدوء مؤقتاً وتجنبوا الاصدام مع حبيب بن مسلمة ، إذ صالحوه « على أن يكونوا أعواناً للمسلمين ، وعيوناً وسالـح في جبل الاسكام ، وأن لا يؤخذوا بالجزية ، وأن ينقلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين إذا حضروا معهم حرباً في مغازيهم » ^(٥) . وبذلك أعفى الجراجمة من

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٦٦ .

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٦٩ .

(٣) Hitti, History of Syria, 448.

(٤) Lamens, op cit, 19.

(٥) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٦٦ .

دفع الجزية واحتفظوا باستقلالهم الذاتي ، ونسكنهم لم يخلصوا تماماً لشروط الصالح مع المسلمين وانتهزوا الفرص للعصيان ، ومؤازرة من يهدق عليهم أحززل العطاء . واستطاعت الدولة البيزنطية أن تجتذب تلك الجماعة المتاخمة لحدودها بإغداق المنح المالية عليها ووجهتهم لعرقلة حركات المسلمين . ومن ثم غدا الجراجمة وكلاء للدولة للبيزنطية ينفذون سياستها ضد مشاريع معاوية . فكانوا يستغلون وقوع مساكنتهم قرب درب أنطاكية المسمى درب بغراس ، طريق إغارات المسلمين على أراضي البيزنطيين ، ويوقعون بحموش المسلمين الفوضى عند عبورهم لهذا الممر . ولم تفلح محاولات المسلمين لإخضاعهم نهائياً « فكانوا يستقيمون للولاة صرة ويعوجون أخرى ، فيكاتبون الروم ويمالتوهم^(١) » . وسرعان ما أصبح الجراجمة نواة القف حولها كل الخارجين على السلطات الإسلامية في الشام مما قوى بأسهم . واعتاد الجراجمة السير وفي أيديهم قطع طويلة من الحديد جعلت البيزنطيين يطلقون عليهم اسم « أصحاب القضبان الحديدية » .

وتفانى المردة في خدمة أغراض الدولة البيزنطية حتى أصبحوا يكونون على حد قول المراجع البيزنطية ، التي أشادت بأعمالهم ضد المسلمين « ستارا حديديا »^(٢) . فصل الشام عن أراضي البيزنطيين بآسيا الصغرى وعرقل الهجوم الإسلامي عليها . واستهدف المردة باغاراتهم العديدة من جبل الاسكام إيقاع الاضطراب بين المسلمين ، وذلك بتشجيع الدولة البيزنطية التي أمدتهم بالمساعدات الحربية في الاغارات الكبرى . وظهرتعاون المردة مع البيزنطيين في عرقلة جهود المسلمين سنة ٦٦٦ م ، حين ترامت إلى السلطات البيزنطية أنباء الحملة التي أخذ معاوية يعدها براً وبحراً للهجوم على القسطنطينية . وكانت طبيعة جبل الاسكام تساعد المردة على تنفيذ مآربهم دون أن ينالهم ضرر أو أذى ، إذ أغاروا من موطنهم

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٦٦ .

(٢) في الأصل « جدارا نحاسياً » ؛ Bury, op cit, 317 .

بجبل اللكام على سلسلة جبال لبنان وإفادة أنفسهم من موقعها الجغرافي وخواوها من المحارس . فجبال لبنان تمتد من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى ، وتقسم إقليم الشام قسمين ، أحدهما يطل على البحر ويضم الأقاليم الساحلية ، والآخر الأقاليم الداخلية البرية . وكانت أقاليم الشام الداخلية تعتمد في حياتها على المدن الساحلية ، وتتصل بها عبر ممرات هامة في هذه السلسلة الجبلية . ولذا هدف البيزنطيون إلى القضاء على مجهودات معاوية بالشام واستعداده لحصار القسطنطينية بمحاولة الاستيلاء على هذه السلسلة الجبلية الممتدة بالشام ، وشل حركة التعاون بين أساطيل المسلمين في القواعد البحرية ، وبين الجنود البرية في الداخل .

وزاد أعمال الجراجمة خطورة أن إقليم الشام كان مقسما منذ زيارة عمر بن الخطاب للشام ، وعقد مؤتمر الجابية (٦٣٩ م) إلى أربعة أجناد ، جند دمشق ، وجند حمص ، وجند الأردن ، وجند فلسطين ، ولكل منها منافذ على الساحل . ولذا كانت خطة البيزنطيين في تشجيع الجراجمة تهدف إلى إيقاع الاضطراب في صفوف هذه الأجناد الإسلامية ، والتي كانت من قبل الأقسام الإدارية الأربعة في الشام أيام سيطرتهم على هذا الإقليم . وقد أرسل البيزنطيون خيالتهم إلى جبل اللكام واشتركوا مع المردة في الهجوم على إقليم الشام ، وقد تمسكوا من احتلال المناطق الاستراتيجية الهامة على امتداد جبال لبنان ، وفصلوا المنطقة الساحلية عن البلاد الداخلية . ثم قام الأسطول البيزنطى في تلك الفترة بحملات على القواعد الإسلامية البحرية بالشام للسيطرة على ما بها من معدات ، دون أن تستطيع النجديات الإسلامية الوصول إلى الساحل من المناطق الداخلية^(١) .

ولكن نجاح المردة لم يدم طويلا ، إذ اقتضت أعمالهم على الإغارات فقط ، ثم العودة إلى موطنهم واخلاء الأماكن التي يحولونها . فاضطر الجند البيزنطى

(1) Lammens, op cit, 91, 20 ; Hitti, op cit, 44g.

النظامى إلى القهقهر مع أولئك المرتزقة ، ولا سيما بعد أن حقق الأسطول البيزنطى أهدافه . غير أن هذه الإغارات المتكررة التى قام بها المردة لم تفت فى عضد معاوية ، وإنما عدل سياسته بحيث يشل حركات أولئك المفاشرين الأفاقين . فجلب جماعات شديدة البأس والسطوة من داخل الدولة الإسلامية ووضعهم بالقرب من مساكن المردة فى الجهات الشامية المعرضة أيضاً لخطرهم ، واستطاع معاوية بذلك مراقبة حركات الجراجمة ، والتصدى لهم فى بداية نشاطهم ، وقد انتقى جماعة « الزط »^(١) بالبصرة ، للاضطلاع بمهمة الوقوف فى وجه الجراجمة ، ونقل بعضاً منهم سنة ٤٩ هـ أو ٥٠ هـ / ٦٦٩ م إلى أنطاكية وغيرها من الثغور الإسلامية القريبة منها ، ولكن غالبيتهم استقرت بأنطاكية ، حيث غدا لهم حتى بها عرف « بمحلة الزط »^(٢) .

وكانت جهود معاوية ضد الجراجمة آخر خطواته فى تحصين العواصم والثغور . ولكن لم يستطع أن يحل نهائياً مشكلة المردة أو الجراجمة ، إذ تابعوا إغاراتهم على إقليم الشام حتى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان . فقد نجح هذا الخليفة بوسائله الدبلوماسية فى عقد اتفاق مع الدولة البيزنطية يقضى بإبعاد هذه الجماعة من موطنهم إلى داخل أراضى الدولة البيزنطية ، وحقق بذلك لدولته الهدوء والسلام ، وقضى على شوكة أرقتها مدى طويلا .

الاستيلاء على أرمينيا :

توج معاوية بن أبى سفيان مجهوداته فى الدفاع عن أرض الإسلام ضد هجمات البيزنطيين بالاستيلاء على إقليم أرمينيا ، الذى تمتع منذ أقدم العصور

(١) الزط قوم أصل موطنهم غير معروف ، ويحتل أنهم من هنود آسيا واستقروا على سواحل الخليج الفارسي فيما بعد . وعرفوا بالشراسة وحبهم للمغامرات ، مما جعل معاوية يختارهم للدفاع عن الحدود الإسلامية ضد البيزنطيين والجراجمة .

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٦٩ .

بموقع ممتاز ، جعله مطمح القوى المتصارعة على السيادة في الشرق . وقد اجتذبت أحداث الصراع الإسلامي البيزنطي زمن الخلفاء الراشدين نظر معاوية إلى إقليم أرمينيا حيث نطلع إلى إدخاله في رقعة أرض الإسلام . إذ جاء ذكر أرمينيا في حوليات المسلمين منذ السنة الثانية لخلافة عثمان بن عفان (٣٤ هـ / ٦٤٥ م) عندما شن البيزنطيون غارة كبرى على أرض الشام من معانهم بآسيا الصغرى (١) . ولكن معاوية رآى الشام إذ ذاك رد هذه الإغارة على أعقابها ودحر العيرين البيزنطيين . وجاءت هذه الإغارة بداية اتجاه جديد في خطط المسلمين الحربية ، إذ عزم المسلمون وجوههم شطر أرمينيا وأدركوا ضرورة الاستيلاء عليها والاتصال بزملائهم الذين يتابعون زحفهم في أرض الجزيرة بالعراق ، وإحكام حلقة الحصار على الأراضي البيزنطية بآسيا الصغرى ، ووضع حد لإغارات البيزنطيين المتكررة على الشام .

وكان اتجاه معاوية في هذه الفترة المبكرة من ولايته نحو إقليم أرمينيا من أعظم الدلائل على يقطته ، ودرايته بخير الوسائل لحماية دار الإسلام . فأرمينيا تتحكم بفضل موقعها في مفرق الطرق المؤدية إلى أراضي المسلمين في إقليم الجزيرة بالعراق وبلاد الشام والجهات التي احتلها المسلمون في جنوب آسيا الصغرى . وإلى جانب ذلك امتازت أرمينيا بأنها إقليم فريد في جغرافيته ، حيث يقترن وحدة طبيعية قائمة بذاتها وسط ما يحيط بها من بلاد . ويقصد بإقليم أرمينيا المنطقة الجبلية الوسطى العالية في غرب آسيا ، أى تلك البقعة الجبلية الواسعة التي تحدها آسيا الصغرى من الغرب ، وهضبة أذربيجان والشاطئ الجنوبي لبحر قزوين من الجنوب الشرقى والشرق ، وساحل البحر الأسود والقوقاز من الشمال والشمال الشرقى ، والركن الشمالى الغربى من أرض الجزيرة من الجنوب . وتبلغ مساحة هذا الإقليم ١١٥٤٠٠ ميل مربع تقريباً ، وتضم مواطن أنهار كثيرة

(1) muir, the Calphate, 303.

تنتجها إلى جهات شتى ، وتزود بعضها أرض الإسلام بمنابع دجلة والفرات ^(١) . وكانت أحوال أرمينيا بعد الفتح الإسلامي للشام تشجع معاوية بن أبي سفيان على غزوها . فكانت إذ ذاك ثن من آثار النزاع الذي نشب في أرضها بين قوتي العالم الكبيرتين الفرس والبيزنطيين ، وحرص كل منهما على السيطرة عليها لما لها من موقع استراتيجي هام في العمليات الحربية بينهما . وانقسمت أرمينيا قبيل الفتح الإسلامي نتيجة هذا الصراع إلى قسمين ، آل القسم الأكبر والذي يضم الجهات الشرقية من أرمينيا إلى دولة الفرس ، على حين استولى البيزنطيون على القسم الأصغر الذي يضم الأراضي الغربية . ونهج كل من الفرس والبيزنطيين في حكم قسميهما سياسة مهدت الطريق لاستيلاء المسلمين على أرمينيا بأسرها . إذ اعتمد الفرس في إدارة منطقتهم بأرمينيا على ولاية محليين دون أن يدركوا مدى ما يحمله هذا الحكم الذاتي من أضرار لهم . إذ كان الولاة الأرمن يتطلعون إلى البيزنطيين لاختلافهم مع الفرس في الدين ، ودأبوا على قرض مضاجع الفرس وبذر بذور القلق في منطقتهم بتحريض البيزنطيين ، حتى بدا أن السيادة البيزنطية تشمل سائر أرمينيا .

على أن البيزنطيين لم يستطيعوا الإفادة مما حدث في أرمينيا الفارسية (Persarmenia) ، إذ كان الاختلاف المذهبي المنتشر في بلاد الامبراطورية البيزنطية ، ومحاولة السلطات البيزنطية فرض مذهب واحد على جميع رعاياها ، من العوامل الهامة التي أدت بدورها إلى انتشار الفوضى في الشطر البيزنطي من أرمينيا كذلك . وتجلت هذه الظاهرة سنة ٤٥١ م حين رفض الأرمن اعتناق المذهب الذي تمّ الاتفاق عليه في مجمع خلقدونية ، إذ اعتبر البيزنطيون الأرمن خارجين على طاعتهم ، وبدأوا ضدهم سلسلة من الاضطهادات جعلت الأرمن على استعداد للارتقاء في أحضان أية قوة تأتي لإنقاذهم ^(٢) .

(1) Encyc of Islam (art Armenia.)

(2) Encyc. of Islam (art Armenia.)

وجاء خلاص أرمينيا من حالة الفوضى التي تفشت فيها على يد معاوية بن أبي سفيان، الذي أدرك أهمية موقعها وسهولة الاستيلاء عليها . وبدأ معاوية سلسلة الحملات المنظمة للاستيلاء على أرمينيا بعد أن ضم إليه عثمان بن عفان إقليم الجزيرة بالعراق لتوحيد العمليات الحربية ضد البيزنطيين . وعهد معاوية بإدارة دفعة العمليات الحربية في أرمينيا إلى حبيب بن مسلمة ، الشخصية التي عرفت بحسن جهادها ضد البيزنطيين ، وقيامها بإغارات مبكرة على أرمينيا إبان الفتوح الإسلامية الأولى في شمال العراق والشام ، إذ سبق لحبيب بن مسلمة أن أغار على أرمينيا سنة ٢١ هـ ، مما جعله أصلح شخصية لفتح هذا الإقليم .

سار حبيب بن مسلمة لفتح أرمينيا من قبل معاوية بن أبي سفيان سنة ٢٥ هـ / ٦٤٥ م . وكان هدف القائد الإسلامي الاستيلاء على عاصمة أرمينيا البيزنطية ، وهي مدينة ثمودوثيو بوليس (Theodosiopolis) ، التي تدعى « قاليقلا » في المراجع العربية . واستهل حبيب انتصاراته بالاستيلاء على هذه العاصمة بعد حصار يسير ، وفرّ من بها من القوات البيزنطية إلى آسيا الصغرى . وبقى حبيب في هذه المدينة شهراً يدعم لنفسه فيها ولقواته ، حتى بلغه أن قائد الفيلق البيزنطي في إقليم « الأرمينيا » بآسيا الصغرى ، الذي يضم المنطقة المتاخمة لأرمينيا ، جمع جيشاً كبيراً لخراج المسلمين من هذه البلاد ، وضم إليه بعض العناصر من الخزر^(١) وغيرهم من سكان البلاد القريبة منه^(٢) .

وبعث حبيب بن مسلمة إلى معاوية يصف له حالة الفتح ويطلب منه أمداً لتثبيت فتوحات المسلمين بأرمينيا . فأرسل معاوية إليه الأمداد سريعاً ، ثم التقى

(١) الخزر قوم استقروا في منطقة القوقاز تقريباً ، ولكن كان نفوذهم يتسع وينكش حسب التطورات السياسية . وقد عرف عن الخزر تحالفهم مع البيزنطيين قبل ظهور الإسلام . وقد ظلت الدولة البيزنطية تستعين بهم كذلك أثناء حروبها ضد الأمويين .

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٠٥ ؛ Encyc. of Islam (art Armenia)

المسلمون والبيزنطيون على شاطئ الفرات الأعلى ، حيث أنزل مسألة بأعداء هزيمة ساحقة ، وكتب للمسلمين الاستقرار في هذا الإقليم الهام . وأتبع مسألة انتصاره بوضع حامية قوية في مدينة فاليقلا ، وأغراها على البقاء فيها بمنح أفرادها إقطاعات من الأرض يستغلونها لأنفسهم وينعمون بنجاحها ^(١) .

تابع حبيب زحفه بعد انتصاره في الشطر البيزنطي من أرمينيا إلى الجنوب الشرقي للاستيلاء على أرمينيا الفارسية كذلك . وكان يلقى في طريق زحفه ترحيباً من الحكام المحليين حيث قدموا له فروض الطاعة والولاء . وأخيراً بلغ عاصمة أرمينيا الفارسية ، وهي مدينة دوين (Dwin) أودبيل في المراجع العربية . واضطر حبيب أن يحاصر هذه المدينة التي تحصن بها أهلها ، فنصب الجانيق وأمطهم بها حتى ألجأهم إلى طلب الصلح . وكشف عقد الصلح الذي أبرمه مع أهالي هذه المدينة بجلاء عن أهداف المسلمين في فتح أرمينيا ، وأنها كانت ترمى إلى تأمين بلاد الإسلام ، إذ شرط حبيب على سكان دويل ، إلى جانب تأدية الجزية المطلوبة منهم ، ضرورة « مناصحة المسلمين » . . . ومعاونتهم على أعدائهم » ^(٢) .

وأخذ حبيب يوالى انتصاراته بعد استيلائه على عاصمة أرمينيا الفارسية ، حتى التقى بقوات المسلمين في أرض الجزيرة بالعراق ، والتي كان يقودها غياض بن غنم . فاشترك القائدان في فتح شمشاط ، وهي منطقة تدعى أرمينيا الرابعة ، أي أنها كانت قسم من الأقسام الإدارية التي انقسمت إليها أرمينيا . وكان بعض سادة نواحي أرمينيا المتاخمة لأرض الجزيرة بالعراق قد أخذوا عهداً أمان من غياض بن غنم ، فأقرها لهم حبيب ، ثم تابع فتوحاته بعد ذلك منفرداً عن غياض ^(٣) .

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٠٥ ؛ Encyc. of Islam (art Armenia)

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٠٨ ؛ Encyc. of Islam (Art Armenia)

(٣) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٠٧ .

أتم حبيب فتوح أرمينيا بوصوله مدينة تفليس ، إذ منح أهلها عهد صلح وأمنهم على أنفسهم وبيعتهم وصرا معهم ، مقابل اعترافهم بالسيادة الإسلامية ودفع الجزية . ولم يترك حبيب أرمينيا إلا عام ٦٥٥ م بعد أن صد جيشاً بيزنطياً أخرجاء تحت قيادة ماوريانوس « Maurianos » ، وختم بهزيمة هذا الجيش آخر المحاولات البيزنطية لاسترداد أرمينيا ^(١) .

عاد حبيب بن مسلمة بعد ذلك إلى إقليم الشام ، مخلداً اسمه في سجل حوايات الكفاح الإسلامي ضد البيزنطيين . وقد اكتسبته انتصاراته على البيزنطيين شهرة فائقة جعلت معاوية يعهد إليه بإدارة إقليم الثغور المتاخم للحدود البيزنطية . فالتخذ حبيب من مدينة حمص مقراً لإغاراته السنوية على أرض البيزنطيين بآسيا الصغرى ، ولإبعاد شعبهم عن إقليم أرمينيا ^(٢) .

وارتبط مصير أرمينيا منذئذ بتاريخ الدولة الإسلامية ، وتأثرت بما سادها أحياناً من فترات الاضطراب . وتجلّى ذلك بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان ، وانفاس المسلمين في الحروب الأهلية التي نشبت بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان . إذ اضطر معاوية إلى سحب قواته المربطة في أرمينيا ليقوى جبهته في الصراع مع علي بن أبي طالب . وكان حبيب بن مسلمة نفسه ، القائد الإسلامي المظفر في الميدان البيزنطي بأرمينيا ، قائد جيش معاوية الذي اتجه أول الأمر إلى نجدة الخليفة عثمان بمكة حين حاصره الثوار ، ثم قفل راجعاً بعد أن علم بمقتل الخليفة عثمان واضطراب الأحوال في الحجاز .

وجاء خلوع أرمينيا من القوات الإسلامية فرصة موالية للبيزنطيين لاسترداد هذا الإقليم ذى الموقع الحربى الممتاز . فعادت جيوش الإمبراطورية البيزنطية

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ٢٠٩ ، ١٢٠ (Encyc of Islam (Art Armenia)

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ٢١٢ .

إلى مقرها القديم بأرمينيا ، مصطحبة معها سياسة البيزنطيين التقليدية في المداخلة المذهبية . عني أن المسلمين لم يعضوا الطرف عن أرمينيا ، ولم يتركوها لقمة سائغة للبيزنطيين ، إذ بعد أن حالف النصر معاوية ، وأصبح خليفة المسلمين سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م وجه همه لاستعادة أرمينيا . وكانت الأحوال التي تفشت في أرمينيا إبان سيادة البيزنطيين الثانية لها عاملا ساعد معاوية على الفوز من أسهل طريق وأيسر .

عانت أرمينيا في تلك الفترة من التبعية البيزنطية سوء الإدارة وانتشار روح التذمر والتمرد بين الجيوش البيزنطية بها . وأدى هذا الفساد إلى إدراك معاوية سهولة فتح أرمينيا ثانية ، إذ ثار قائد الجيوش البيزنطية بأرمينيا ويدعى إذ ذاك ساپور (Sapor) في سنة ٦٦٨ م على الإمبراطور البيزنطي قنسطنطين الرابع ^(١) . وبمث هذا الثائر مندوب من قبله إلى معاوية بن أبي سفيان يطلب منه المساعدة ويعده مقابل ذلك بتمهيد الطريق للمسلمين للاستيلاء على آسيا الصغرى وإبعاد الجيوش البيزنطية عنها ، ولا سيما المراقبة منها على تخوم الشام الشمالية ^(٢) .

وعمد الإمبراطور البيزنطي إلى عرقلة مجهودات هذا الثائر ، فأرسل بدوره إلى الخليفة معاوية يحذره من مد يد المساعدة إلى ثوار أرمينيا . وانسكن تصادف أن التقى المبعوثان الأول الذي أرسله الثائر ساپور ، والآخر الذي بعثه الإمبراطور في بلاط معاوية ، وتشاحنا وخرجا دون أن يظفر أحدهما بما قصد إلى تحقيقه . وأدرك معاوية من ذلك أن الوقت قد حان لاسترداد أرمينيا . فأرسل إلى أهالي أرمينيا يدعوهم إلى الاعتراف بسلطانه والدخول في التبعية المسلمين ودفع الجزية مقابل حمايتهم وطرد البيزنطيين . وحقق معاوية أغراضه واستردت جيوشه

(1) Finlay, A History of Greece I, 380.

(٢) رابن العري ، تاريخ مختصر الدول ، ١٨٧ ، ١٨٨ ؛

Cheira, op cit, 117, 118.

أرمينيا وطاردت فلول البيزنطيين المقطعة الأوصال^(١).

وضع معاوية بعد ذلك سياسة لحكم أرمينيا كفلت للمسلمين البقاء فيها طوال العصر الأموي ، إذ عهد بإدارة شئونها المحلية إلى أقوى الأسرات الحاكمة بها ، والتي اشتهر منها الماميلونيون « Mamilonians » ، والباجراتونيون (Bagratunians) .. ونصب على أرمينيا بأسرها والى مسلم يرقب أحوالها ويدير شئونها عن طريق الحكام المحليين^(٢) . وحقت هذه السياسة الإسلامية وما اتسمت به من ترك الأهالي يحكمون أنفسهم حكما ذاتيا مستقيرا ، هدوء الأوضاع واستقرارها بأرمينيا طوال العصر الأموي . وهكذا نعم الخلفاء الأمويون من بعد معاوية بما وضعه عميدهم من أسس الاستقرار في هذا الركن الهام من الأراضي الإسلامية المتاخمة للدولة البيزنطية .

(1) Bury, op cit II, 337 ; Muir , The Caliphate 297 ;

ابن العربي ، نفس المرجع^(٢) ، ١٧٧ :

(2) Laurent, L' Arménie, 92, 93 ; Encyc. of Islam (art: Armenia.)

الفصل الثالث

دمشق والقسطنطينية

أسس نمو المدن وازدهارها

أوضاع المدن :

المدن عصب الدول ، وميزان ما ينالها من ازدهار واحلال ، ورمز ما يتفجر فيها من ينابيع الحضارة والمدنية ، ومن ثم حرصت كل مدينة كبرى على العمل بما يهيئ للدولة التي تضمها سبل الرفاهية والعظمة ، والوصول إلى مركز الصدارة بين الأمم المجاورة لها سواء الدانية منها أو القاصية . وقد تفاوتت المدن الكبرى في قادية هذه الرسالة ، فمنها ما ارتقى سريعاً في سلم الزعامة العالمية ، ثم هوت في لمح البصر كشهاب ما كاد يضيئ حتى خبي . ومنها ما جعلت أحداث دولها تحتل المكان الأول بين أخبار العالم المعروف لها ، وسطرت لها صفحات خالدة في سجل التاريخ .

ويعزى ما أصابته المدن الكبرى من نجاح أو فشل ، وعلو بعضها فوق بعض درجات إلى عوامل شتى ، أهمها مدى ما حبته الطبيعة المدينة من مميزات جغرافية ، واستطاعة مؤسسو هذه المدن الكبرى استغلال هذه المميزات وتعميتها بما يحقق لها السيادة والازدهار . وكانت هذه العوامل التي تتحكم في مصائر المدن ونشأتها موضع التقدير والاهتمام من أولى الأمر في البلاد ، ودونوها في تقارير تداولها الخلف عن السلف للسير على هديها والعمل وفق إرشادها . وظلت هذه القواعد العامة متبعة منذ أقدم الأزمان حتى نهاية العصور الوسطى ، حيث تغيرت

أوضاع المدن وفن تأسيسها لما طرأ على العالم في العصور الحديثة من انقلاب في أساليب المدينة ومظاهرها .

وتناول ابن خلدون في مقدمته هذه القواعد التي أرسى عليها التمدن وأهل العصور الوسطى صرح مدنيهم ، وبين مدى أهمية مراعاة هذه القواعد حتى تحقق المدن الغرض المنشود منها . فذكر « أن المدن قرار يتخذ الأم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه ، فتؤثر الدعة والسكون ، وتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار ^(١) » . ولما كان الهدوء والاستقرار أهم ما تحرص عليه الدول ، فقد دأب أولو الأسر فيها على العناية بالمدينة التي هي عماد هذا الاستقرار وعمود الفقرى ، وحرصوا عند تأسيسها ولا سيما السكرى منها على أن تتوفر لها ثلاثة أمور هي : « دفع المضار ... وجلب المنافع وتسهيل المرافق » ^(٢) .

وكان دفع المضار عن المدن يتحقق بأن « يدار على منازلها جميعا سياجات الأسوار ، وأن يكون وضع (المدن) في مفتح من الأمكنة ، إما على هضبة متوشحة من الجبل ، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد السور على جسر أو قنطرة ، فتعصب منازلها على العدو ، ويتضاعف مناعتها وحصنها ^(٣) » .

وأما جلب المنافع والمرافق المدينة فقد تطلب عدة أمور منها الماء ، « بأن يكون البلد على نهر أو بيازائها عيون ... فإن وجود الماء قريباً من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء ، وهي ضرورة ^(٤) » . وكذلك المزارع ، « فإن الزروع هي الأقوات ، فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتخاذه ،

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٩٠ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩٠ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩٠ .

(٤) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩١ .

وأقرب في تحصيله»^(١). وأخيراً لابد للمدن من المراعى الجيدة ، « إذ صاحب كل قرار لابد له من دواجن الحيوان للفتاح والضرع والركوب ، ولابد لها من المرعى ، فإذا كان ذلك قريباً طيباً كان ذلك أرفق بمحاطم»^(٢).

ودال ابن خلدون على صدق هذه العوامل الثلاث الأساسية بسرد أسماء بعض مدن عمر شطر منها طويلاً وازدهرت ونمت مع الزمن ، على حين ذكر مدناً أخرى غفل مؤسسوها عن « حسن الاختيار الطبيعى » ، « ولم يراعوا الماء ولا للزراع ولا للخطب ولا مراعى السائمة من ذوات الفلاف ... ولهذا كانت أقرب إلى الحراب لما لم تراعى فيها الأمور الطبيعية »^(٣).

وهكذا حفل التاريخ بقوائم عديدة لمدن كبرى ظهرت على مسرح بلاد الشرق ، بعضها تحقق لها الكثير من القواعد التى ذكرها ابن خلدون ، والبعض الآخر لم يحظ من أسباب البقاء إلا بالقدر الضئيل ، ومن ثم ظلت بعض هذه المدن تؤدي رسالتها فى ميدان الحضارة العالمية حتى حان حينها وأن أفولها ، على حين اندثرت المدن الأخرى التى قامت على أسس غلب عليها طابع التصنيع والبعد عن « حسن الاختيار الطبيعى » . والسكن بذى مدن الشرق جميعاً مدينتان توافرت لهما أسباب الزعامة على سائر مدن الشرق الأخرى ، وخلد التاريخ اسميهما على مر العصور والأزمان ، معجوراً بأبنيان أهميتهما فى بناء صرح الحضارة العالمية . الأولى هى مدينة دمشق التى دار فى فلسكها كثير من أحداث التاريخ منذ أقدم عصوره حتى الوقت الحاضر ، والثانية مدينة القسطنطينية التى شاركت دمشق فى الخلود والبقاء حتى انقصر الحديث .

وقد أخذت هاتان المدينتان تشيدان صرحيهما ، كل جاهدة على الاستفادة مما حبته الطبيعة من مميزات جليلة ، حتى شاء كثر العصور أن يتصل تاريخهما معاً

(١) ابن خلدون ، المرجع السابق ٢٩١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٩٢ .

ويرتبط في ركا بهما أهم الأحداث العالمية . وجاء هذا الاتصال في المصور الوسطى حين ظهر الدين الإسلامي وأخذ يحتضن بلاد الشرق ويضفي عليها نوره وهدهده . ففي تلك الحقبة الزاهرة من تاريخ الشرق نالت كثير من المدن شرف السبق في اعتناق الدين الإسلامي على حين تأخرت أخرى في هذا المضمار . ومن ثم نشب بين الفريقين صراع اتصف بسماة جديدة تختلف اختلافاً كلياً عن أى صراع آخر عرفه الشرق من قبل ، إذ جهد الفريق الأول على تأدية رسالته العالمية بأن يحمل الفريق الآخر على اعتناق الإسلام والسير في ركاب حضارته وهدديه . واتخذت دمشق لواء الفريق الأول شعاراً لها ، على حين رفعت القسطنطينية راية عصيان الفريق الآخر .

على أن سبور دمشق في الإسلام جعلها تحتل مركز الزعامة العالمية في المصور الوسطى على عهد الأمويين ، وأرسلت جيوشها الواحدة تلو الأخرى تلتهم ما تشاء من الأراضى التابعة للقسطنطينية وتدق أسوار هذه المدينة العاتية نفسها ، حتى جمعات أنظار المسلمين تتجه إليها ، وتطلع إلى أهديتها ضمها إلى حضيرة الإسلام . وظلت رسالة الأمويين قائمة عند أولى الأمر من قادة الدولة الإسلامية حتى فتح الأتراك العثمانيون القسطنطينية ، وهياً وألها مكاناً جليلاً في التاريخ الإسلامي إلى جوار قرينتها دمشق .

دمشق — قبلة سفن الصحراء :

قامت عظمة دمشق على عهد الأمويين على أسس من الماضي التليد وفوق دعائم ثابتة الأركان . فهي ذات تاريخ قديم يبدأ منذ بزغ فجر الحضارات في بلاد الشرق ، ومنذ أدرك أهالى تلك البلاد أهمية اتصال بعضهم بالبعض الآخر ، واختيار نقط تصلح للتلاقى وتبادل المصالح . وقد رشحت الطبيعة مدينة دمشق لتسكون من التبايع الأولى التى تغذى أرض الشرق بالحضارة ، وأن تصبح

خير بقعة يتعارف فيها أهلها . إذ هي هبة أعظم طريق تجارى قديم ربط الشرق بالغرب ، وهبة نهر بردى أيضاً الذى خلق منها سبلة فيحاء وغروباً هادئاً يجد فيها التاجر والمسافر الراحة والاستقرار بعد عناء السفر ومتاعب الطريق .

وهكذا اختصت الطبيعة مدينة دمشق بموقع رائع خالده لا يضمحل مع الزمن ، ورفعتها إلى مصاف عدد قليل من المدن الأخرى العالمية التى شاركتها فى القدم وطول البقاء . فقد أصبحت دمشق بفضل موقعها الممتاز مركزاً تتلاقى فيه متاجر الأمم المجاورة لها ، وسوقاً لتبادل السلع التى ترد إليه من شتى الآفاق . فكانت المتاجر إذ ذاك تنقل من شاطئ الشام المطل على البحر الأبيض المتوسط ، ثم تسير بها القوافل عبر سهول الشام الخصبة المعروفة بالبقاع (Goale Syria) قاصدة مدينة دمشق ، حيث تنقل منها مرة أخرى إلى نهر الفرات . ثم تعود منتجات العراق وما يضاف إليها من واردات اليمن وفارس عن هذا الطريق إلى البحر الأبيض المتوسط مارة بمدينة دمشق كذلك^(١) . وكان هذا الشريان التجارى أهم طريق يصل بين بلاد الشرق الأقصى الغنية بالتاجر وغيرها من المنتجات التى احتاج إليها العالم القديم وبين أسواق ومراكز استهلاكها فى البلاد المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى . واختص هذا الطريق التجارى بالأهمية فى حلقة التبادل التجارى بين الشرق والغرب لأنه كان ذا شعبتين : الأولى ، وقد سبق ذكرها ، وتسير من مياه الخليج الفارسى ثم مع الفرات ومنه إلى دمشق وأخيراً إلى البحر الأبيض المتوسط ؛ وشعبة أخرى تواصل السير من الخليج الفارسى إلى البحر الأحمر ، حيث يبدأ عند اليمن طريق قوافل آخر يجتاز بلاد العرب إلى جنوب الشام حيث مدينة بصرى مفتاح الطريق إلى دمشق^(٢) .

وبعزى السبب فى اتجاه هذا الطريق التجارى ذى الشعبتين الكبيرتين

(١) Kremer : Orient under the Caliphs, 133, 134.

(٢) إبراهيم العدوى ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ، ص ١ ، ٢ .

نحو مدينة دمشق إلى تحكّمها في نقطة اتصال رئيسية بين منطقتين متباينتين لهما أهميتهما في ميدان التجارة والاقتصاد . فإلى الشرق من دمشق توجد بادية الشام التي تخترقها الطرق التجارية الآتية من شمال بلاد العرب أو من العراق ، وإلى الغرب منها السهل الخصيب الزاهر الذي أطلق عليه القدامى اسم البقاع لوقوعه بين سلسلتى جبال لبنان . واكتسب هذا الوادي شهرة كبرى في عالم التجارة لأنه سهل مهمة اجتياز هذه السلسلة الجبلية والوصول إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط^(١) .

وكان تحكّم دمشق في هذا الطريق التجاري عاملاً جعلها مطمح أنظار القوى التي ظهرت بحوارها . فحرصت كل دولة تبغى لنفسها السيطرة التجارية إدخال دمشق في دائرة نفوذها . على أن هذا التنافس أفاد دمشق نفسها حيث أتاح لها سبيل الظهور على مسرح الأحداث العالمية . وارتبطت أولى خطوات دمشق في سلم الزعامة السياسية ببلاد العرب ، وهي المهمد الذي سوف يحتضن الإسلام في مبدأ أسره فيما بعد . إذ فيما بين سنة ١٥٠٠ ، ١٢٠٠ ق . م خرجت من بلاد العرب هجرة بشرية تعرف بهجرة الآراميين استقرت في بلاد الشام وأسست لنفسها دولاً بها ، وكانت دمشق حاضرة إحدى هذه الدول الآرامية الناشئة ، ويشمل سلطانها الأراضي الممتدة من الفرات إلى اليرموك^(٢) .

وأخذت دولة دمشق منذ تلك الحقبة تخضع لما يطرأ على الدول السياسية من عاو وارتفاع ، ثم تدهور وانحلال . ولكن المدينة نفسها لم تندثر أو تفقد أهميتها رغم زوال سيادتها على ما جاورها من بلاد . وكان السبب في تدهور دولة دمشق السياسي هو إغارات البدو المقيمين في الصحراء المجاورة لها على القوافل التجارية القاصدة عاصمتها . وبلغ من كثرة أولئك المغيرين أنهم اتخذوا لأنفسهم كهولاً

(1) Kremer : op cit, 134, 136.

(2) Hitti, History of Syria (London 1951) 165.

يقيمون بها ، وكان أحدها يقع بالقرب من دمشق نفسها ، و يضم أربعة آلاف رجل . وظلت هذه الإغارات الشوكية التي تضايق دمشق لأنها آلمت بصفة خاصة طريق القوافل الهام الآتي من بلاد العرب السعيدة (الين) إلى إقليم الشام ، والذي يحمل إليها الخير العميم^(١) .

واستهدف البدو من إغاراتهم مشاركة دمشق في ثرائها ، على حين استقر بعضهم في المدينة نفسها حيث جذبتهم إليها حدائقها وحقولها الفضة . ومن ثم كان تاريخ دمشق الاقتصادي لا يمكن فصله عن نهر بردى وما أفاضه عليها من خصب وبهاء . فهذه المدينة بدت في نظر حيرانها من البدو ، وغيرهم من التجار والمسافرين الدرة الزاهية وسط عقد يحيط بها من حدائق زمردية اللون ، وكان الفضل في هذا إلى نهر بردى وحده الذي يسقي المدينة وبساتينها ، واستطاع بذلك أن يقطعها من المنطقة المجاورة لها ويجعلها وحدة قائمة بذاتها . فدمشق محاطة من ثلاث جهات بتلال عالية على حين تحف بها الصحراء من الجهة الرابعة ، وتقف وسط هذا المحيط كجزيرة قائمة بنفسها ، لا يربطها بالخارج إلا سفن الصحراء ، التي تهرع إلى المدينة بعد عبورها الصحراء حاملة المتاجر والمسافرين ، حيث تقضى هناك فترة للراحة ومتابعة الرحيل^(٢) .

ويعتبر نهر بردى من الأنهار التي لا ينضب ماؤها ، فهو ينبع من جبال لبنان الداخلية ، حيث تغذي الثلوج جداوله العليا بالمياه ، ثم ينساب الجرى الرئيسي من الشمال إلى سهل دمشق مغذيا حدائقه وأراضيه بالمياه . وكانت أراضي دمشق تحصل على مياهها من نهر بردى في سهولة ويسر^(٣) .

وهكذا تسكثف الموقع الجغرافي ونهر بردى على جعل دمشق غرة إقليم الشام ، وقبلة أنظار أية قوة تظهر في بلاد الشرق الأوسط والأدنى . ولكن

(1) Hitti, op cit, 308.

(2) Feddan, Syrai, 34 ; Hitti, op cit, 472.

(3) Ibid, 742.

أخذت دمشق منذ سنة ٨٥ ق . م تدخل في دور جديد من تاريخها السياسي ،
تجمعت فيه القواعد التي شيد عليها الأمويون فيما بعد صرح دولتهم . إذ دخلت
دمشق في القبة لأحدى الهجرات البشرية التي خرجت من بلاد العرب ،
وتعرف بهجرة الأنباط^(١) . وإذا كانت دمشق منذ هجرة الآراميين سر تبطة
أشد الارتباط بما نبع من جوف بلاد العرب من حركات فإن حكم الأنباط
لمدينة دمشق الحجر الأول في بناء صرح دمشق السياسي الذي شمش وعلا عندما
اتخذها الأمويون مقراً لهم .

وكانت أولى دلائل هذا العهد الجديد هو أن الطابع العربي أخذ يسود
دمشق ، فانتشرت اللغة العربية في أنحائها ، وأصبحت العبارات العربية تتردد
بين جنبااتها ، على حين توالى عليها هجرات عدد كبير من القبائل العربية
البدوية واستقرت في المنطقة المحيطة بها . وكان هذا التيار الجديد يسير مع طريق
القوافل التجارية الآتية من بلاد اليمن ، ويدفعه الرغبة والشوق إلى التمتع بثراء
هذه المدينة الزاهرة .

وأدى استقرار هذه القبائل العربية في المنطقة المجاورة لدمشق إلى درء
أية محاولة تهدف إلى إضعاف الطابع العربي لهذه المدينة . وتبقى ذلك حين
استولى الرومان على دمشق من الأنباط طمعاً في السيطرة على الطريق التجاري
الذي يمر بها . فلم يستطع الرومان وضع مقر حكمهم في الشرق في هذه المدينة خوفاً
من بطش القبائل العربية الضاربة في ضواحيها ، وتركوا المدينة تنعم بحكم
ذاتي عربي . ولكن اضطر الرومان إلى توجيه عنايتهم بهذه المدينة حين نشب
الصراع بينهم وبين دولة الفرس ، فأنشأ بها الأمباطور دقلديانوس داراً لصناعة
الأسلحة وتزويد الجيوش الرومانية بالعتاد^(٢) .

(1) Encyc. of Islam (art Damascus)

(2) Kremer, op cit, 130.

ولما خلفت الدولة البيزنطية أمها الأمبراطورية الرومانية الكبرى في بلاد الشرق زاد الاهتمام بدمشق ، ولا سيما أن الفرس الساسانيين جاهدوا على إكمال سيطرتهم التجارية في الشرق بالاستيلاء على هذه المدينة التجارية الهامة ، وتحلى إشراك البيزنطيين لأهمية هذه المدينة في سخط الدفاع البيزنطي ضد الفرس وغيرهم من القبائل العربية التي دأبت على مهاجمة القوات البيزنطية بها في أن الأمبراطور البيزنطي يوليان سماها « عين الأمبراطورية في سائر إقليم الشرق » ^(١) . وعمدوا في تقوية هذه المدينة إزاء الأخطار المحيطة بها إلى انتهاج سياسة جمعت في النهاية من دمشق مدينة عربية لحما ودما .

وكانت سياسة البيزنطيين هي اتخاذ قبيلة الغساسنة العربية التي استقرت في منطقة دمشق والصحراء القريبة منها عميلا لها يحمي حدود امبراطوريتها المظلة على أراضي دولة الفرس ، ويدفع عنها إغارات البدو التي تبغى السلب والنهب . وأدت هذه السياسة إلى أن أصبح بلاط الغساسنة يجمع بالشعراء والوفود من العرب ، وغدت دمشق قبلة العرب في الجاهلية يفعمون بخيراتها ويأخذون منها ما يحتاجونه من متاجر .

وجهد العرب الغساسنة في الدفاع عن دمشق ومنطقتها أيام الحروب الفارسية البيزنطية كأنما هي وطنهم ، وأكثر من الدفاع عن سائر الحدود البيزنطية . ودفع ذلك السلطات البيزنطية إلى التشكك في نوايا الغساسنة ، وأخذت تعمل على أضعافهم والقبض على رؤسائهم واقصائهم عن إقليم الشام . وكان لهذه السياسة البيزنطية أسوأ الآثار ، إذ سرعان ما غزا الفرس الشام أوائل عهد الأمبراطور البيزنطي هرقل ، واستولوا على دمشق منتهزين فرصة ضعف الغساسنة . ولم يتعرض الفرس بأي تخريب أو أذى لمدينة دمشق ، التي أمّلوا أن يبقوا عليها لنأدية رسالتها في ميدان التجارة والاقتصاد ، ومن ثم ظلت دمشق رغم الاحتلال

(1) Kremer, op cit, 139.

الفارسي محتفظة بطابعها العربي ونظام تخطيطها الحربي ، دون غيرها من المدن الشامية التي أعمل الفرس فيها التخريب^(١) .

ولكن الاستعمار الفارسي للشام لم يدم طويلاً ، إذا استطاع الامبراطور هرقل أن يعي قوات دولته ويحمل الفرس على إخلاء الشام دون أن يصطدم معهم في معارك حربية . إذ سار بجيوشه بحراً من القسطنطينية ، معلناً أن هدفه الزحف مباشرة من آسيا الصغرى إلى أراضي الدولة الفارسية نفسها . فاضطرت الجيوش الفارسية إلى إخلاء آسيا الصغرى والشام والتجمع في بلادها الرئيسية للدفاع عنها . وبذلك ظلت دمشق قائمة دون أن يطرأ عليها تغيير في تلك المرحلة الأخيرة من مراحل الحروب الفارسية البيزنطية ، والتي سبقت مباشرة حركة الفتوحات الإسلامية للشام .

على أن السيادة البيزنطية نفسها لدمشق على عهد الامبراطور هرقل امتلأت بأحداث هامة جعلت هذه المدينة بسكانها من العرب يتعلمون إلى إخوانهم في شبه الجزيرة العربية ، الذين أخذ الإسلام يضم صفوفهم ويعلى من شأنهم . ذلك أن الامبراطور هرقل أدرك جنوحاً عند أهل الشام في الانفصام عن جسم الدولة البيزنطية ، وأنهم اتخذوا من اختلافهم في المذهب الديني مع هذه الدولة تكتة للاستقلال . فعمد الامبراطور بعد طرد الفرس إلى نشر مذهب جديد يدعى بمذهب « التوحيد » ، يضم شمل ولايات الامبراطورية البيزنطية جميعاً في صعيد واحد ، ويقضي على عوامل التفرقة بينها . على أن عرب الشام الذين كانوا على الدين المسيحي كرهوا عودة الحكم البيزنطي ، وتشبهوا بمذهبهم القديم معلنين رفضهم في إباء لمذهب هرقل الجديد .

وكان من نتائج إصرار أهل الشام على عقيدتهم الدينية أن عين الامبراطور هرقل في مدينة دمشق حاكماً بيزنطياً أخذ يسوم أهلها العذاب ، ويعاملهم بمنتهى

(1) Encyc. of Islam (art Damascus)

للقسوة . وكانت هذه الخطوة البيزنطية إيذاناً بنهاية عهد سيادة البيزنطيين على الشام ، إذ سرعان ما تمّ للإسلام كلمته في بلاد العرب ، وأخذ تيسار الفتوحات الإسلامية يتجه صوب الشام لنشر هذا الدين الحنيف . ومن ثمّ بدأ للجيش الإسلامي أهمية الاتجاه صوب دمشق وضمّ عروس الشام إلى رقعة الإسلام .

دمشق الأصورية :

عندما بدأت جيوش المسلمين تفزو أرض الشام أخذ البيزنطيون يعملون جاهدين على عرقلة زحفها حتى تأتيمهم الأمداد من العاصمة البيزنطية . وجاءت النجذات البيزنطية سريعاً وتجمعت في دمشق للدفاع عنها ، لأنّ استيلاء المسلمين عليها يحطم سائر خطوطهم الدفاعية الأخرى . على أن السطّات الإسلامية المركزية أدركت خطورة التجمعات البيزنطية في دمشق وعمدت إلى حشد قواتها مجتمعة للتغلب على هذا الخطر . وكانت أولى الخطوات الإسلامية هو إرسال الخليفة أبي بكر إلى خالد بن الوليد ، الذي كان يوالى الفتوحات في العراق ، يأمره بالذهاب إلى الشام على رأس قواته لمساعدة زملائه من القادة المسلمين المقيمين بهذا الإقليم . وبانضمام خالد بن الوليد إلى القوات الإسلامية بالشام أصبح يتولى عمليات الفتوح أشهر قادة المسلمين وأكثرهم خبرة بأساليب القتال . فبادروا جميعاً بعد استيلائهم على أجنادين (٣٠ يوليو ٦٣٤ م) ، وتأمين خطوط مواصلاتهم مع بعضهم البعض ، بالزحف على دمشق لقطع سبل الاتصال بين الجيوش البيزنطية في سائر مدن الشام والنجذات التي تأتي إليهم من آسيا الصغرى . واستهل المسلمون غشائهم في ميدان دمشق بأن شتتوا شمل البيزنطيين في مرج الصفر (٢٥ فبراير سنة ٦٣٥ م) ، وهو سهل يبعد عشرين ميلاً إلى الجنوب من دمشق نفسها . وبذلك أصبح الطريق مفتوحاً أمام الجيوش الإسلامية للزحف مباشرة على هذه المدينة العتيقة (١) .

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ، ١٢٤ ، ١٢٥ ؛ Hitti, op cit, 412, 414

[illegible]

171

خالد بن الوليد
القاضي

10

३०

3

۱۰۰

4.

۱۰۰

33

3

30

2

الحجر الأبيض المتوسط
(بحر الروم)

نحو الفاء

١٠٠

3.

ॐ

10

استولى المسلمون على المنطقة المحيطة بمدينة دمشق ، الغنية ببساتينها وحقولها ،
وهي المعروفة باسم « الفوطة » ، وتابعوا سيرهم حتى وقفوا أمام أسوار المدينة التي
تحصنت بها الحاميات البيزنطية . ومن ثم بدأ التعاون والتنسيق بين خطط سائر
القادة المسلمين ، الذين كان من بينهم أحد أبناء البيت الأموي . فوزع أولئك
القادة قواتهم على الأبواب الرئيسية لهذه المدينة لتضييق الخناق والحصار عليها ،
وحملها على التسليم . فعسكر خالد بن الوليد على « الباب الشرقي » ، ونزل القائد
الأموي يزيد بن أبي سفيان على « الباب الصغير » ، واختص عمرو بن العاص
« باب توما » ، على حين نزل شرحبيل على « باب الفراديس » (١) .

وكانت هذه الأبواب والأسوار الممتدة حول المدينة محصنة تحصيناً قوياً ،
حيث تجنبت عوامل التخريب والهدم رغم ما تعرضت له فيما سلف من هجمات
الفرس أو البيزنطيين . ولذا مكث المسلمون في حصار دمشق ستة أشهر ، جاهدين
على دراسة تحصيناتها وأسوارها ليفيدوا أنفسهم منها ، ويذهبون حامياتها
وأهلها المدافعين عنها . وكانت دمشق كما وجدها المسلمون في حصارهم ، عبارة عن
مدينة مستطيلة الشكل ممتور شطر منها في الركن الشمالي الغربي ، وكان في هذا
المكان قلعة حصينة تداعت منذ زمن بعيد وظل مكانها شاغراً . أما الأسوار
فبلغ ارتفاعها عشرين قدماً وسمكها حوالي خمسة عشر قدماً ، وبنيت من حجارة
متينة . وكانت بعض هذه الأسوار مشيدة على أسس مباني قديمة ترجع إلى
ما قبل العصر الأموي (٢) .

وتوج أسوار المدينة أبراج بارزة مربعة الشكل ذات أسقف مخروطية الشكل ،
ويبعد كل برج عن الآخر بمسافة قدرها خمسين قدماً . وكانت هذه الأبراج معدة
بما يسكفل للمدافعين ، ولا سيما الرماة وسائل الطلأ نينة ، وكافة ما يحتاجون إليه من

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ، ١٢٧ .

(2) Kremer, op cit, 141.

ذخيرة وعدد . أما الأبواب الكبرى التي يمكن دخول المدينة منها فكانت منظمة بما يحقق الدفاع عن المدينة . فمكان كل باب يشمل ثلاث فتحات ، أحدها كبيرة واسعة وهي الوسطى ، وفتحتان صغيرتان على جانبي هذه الفتحة الوسطى . واقتصررت الفتحتان الجانبيتان على حركة مرور الناس ، إحداهما للخروج والأخرى للدخول ، أما البوابة الوسطى فكانت تستخدمها الجنود أو قوافل الجمال وغيرها من دواب الحمل . وزاد في منعة هذه الأسوار وأبوابها خندق عميق يحيط بها ويزود بالماء من نهر بردى ، حتى لا يستطيع المهاجمون الاقتراب منها^(١) . ولذا لم يكن عجيباً أن تقضى القوات الإسلامية مدة ستة أشهر في حصار دمشق . ولكن امتازت هذه القوات بالثابرة في الحصار وبأن روحها المعنوية ظلت عالية . وكان جيش يزيد بن أبي سفيان خير نموذج لهذه الصفات التي تجلت في الجند الإسلامي ، إذ عبر أحد جنده ويدعى عبد الرحمن بن صهيل عن روح زملائه المعنوية في أبيات من الشعر، تكشف كذلك عن قرب سقوط دمشق في أيدي المسلمين^(٢) .

وتشير بعض المراجع إلى أن جيش يزيد استطاع أن يدخل دمشق عنوة من « الباب الصغير^(٣) » ، ولكن حدث في تلك الاثناء أن السلطات البيزنطية في دمشق فاوضت خالد بن الوليد على تسليم المدينة بعد أن أدركت إصرار المسلمين على الاستيلاء عليها . وتم تسليم دمشق في سبتمبر سنة ٦٣٥ م بعد أن غادرتها الحامية البيزنطية ، ثم دخلتها سائر الجيوش الإسلامية . ومنح خالد بن الوليد أهلها عهداً أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم ، وصدق على هذا العهد سائر القادة

(1) Kremer, op cit, 141.

(٢) قال ذلك الشاعر :

أبلغ أبا سفيان عنا بأننا على خير حال كان جيش يكونها
وأنا على بابي دمشق نرعى وقد حان من بابي دمشق حينها

أنظر ابن عساكر ، تاريخ دمشق ص ١٧ .

(٣) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ص ١٤٧ .

المسلمين ، بما فيهم يزيد بن أبي سفيان ، مما يوضح اتفاق كلمة المسلمين في سياستهم
إزاء المدن المفتوحة .

ويعتبر هذا العهد الذي نالته دمشق نموذجاً للإجراءات التي اتبعها المسلمون
فيما بعد مع سائر مدن الشام الأخرى التي تم لهم فتحها . وجاء في نص وثيقة التسليم
« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق ، إذا دخلها
أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وسورهم — لم يهدم — ولا يسكن شيء من زورهم ، لم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم
والخلفاء المؤمنين ، لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية »^(١).

وإذا كان تسليم دمشق يعد من أهم أحداث الفتح الإسلامي ، فإن تعيين
القائد الأموي يزيد بن أبي سفيان حاكماً عليها من قبل القائد العام للجيوش
الإسلامية ، وهو أبو عبيدة بن الجراح ، يعد حدثاً هاماً آخر في التاريخ الإسلامي
لا يقل عن تسليم المدينة نفسها . إذ أصبح يهيمن على هذا المركز الحضاري القديم
في بلاد الشرق أحد أبناء البيت الأموي ، الذي آل على نفسه إعادة هذه المدينة
إلى سيرتها الأولى وسالف عظمتها بين دول العالم . واتضح أهمية تعيين يزيد
واليها على دمشق حين اختطفه الموت من مسرح بلاد الشام ، إذ عهد الخليفة
عمر بن الخطاب إلى معاوية بن أبي سفيان إدارة الجهات التي كانت تابعة لأخيه
يزيد بن أبي سفيان . وهكذا أخذت تنمو في دمشق بذور دوحه البيت
الأموي ، التي ترعرعت على عهد معاوية ، وأخذت تظل هذا المعقل الحضاري
وتزوده بثمار جديدة .

وبدت طلائع العهد الجديد ، الذي نعمت به دمشق بإبان ولاية معاوية .
ابن أبي سفيان ، حين أخذ المسلمون الفاتحون يمتزجون مع أهالي دمشق . وكان

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٢٧ — ١٣٠

أولئك الذائحون قد استقروا باديء الأمر في الأماكن التي هجرها البيزنطيون في الطرف الشمالي الغربي من المدينة بالقرب من نهر بردى . ولم يجدوا في مقرهم الجديد أى وحشة ، حيث كان يقطن في الجهات الصحراوية القريبة منهم عرب من بنى جلدتهم وفدوا إليها منذ زمن بعيد^(١) . وكان أولئك العرب ممن ساعدوا الفاتحين في الاستيلاء على دمشق ، وقدموا لهم كافة ما احتاجوا إليه من تسهيلات . وسرعان ما تم الامتزاج بين الفريقين وتعاونوا على العمل لما فيه رفاهية مدينتهم في ظل العهد الجديد .

وزاد الامتزاج بين المسلمين وأهالى دمشق في الفترة التي أصبح فيها معاوية يحكم الدولة الإسلامية بأسرها من دمشق ، بعد أن نودي به خليفة على المسلمين ، ودعم أركان البيت الأموي في هذه العاصمة الجديدة . إذ غدت دمشق حاضرة العالم الإسلامى ، تتطلع إليها أنظار سائر الولايات المسلمين في شتى الأرجاء يتلمسون منها الهداية والإرشاد . وبدأت دمشق منذ تلك الفترة تفقد ما علق بها من صفات العهد البيزنطى البائد وتستبدل بها مظهر إسلامية عربية . وظهرت دلائل هذا الانقلاب حين أخذت قبائل عربية عديدة تهاجر من بلاد العرب وتغد إلى المنطقة المجاورة لدمشق . فقد أدت هذه الهجرات إلى اتساع رقعة دمشق ، وكثرت أحيائها ، إذ أقامت القبائل العربية في أحياء خاصة بها ، بكل منها مسجد خاص وسوق خاص . ويفصل كل حى من الآخر باب خاص ، حتى أصبحت هذه الأحياء أشبه بمدن صغيرة . واتخذت القبائل الأخرى التي لم تستقر في قلب المدينة منازل لها في ظاهر دمشق حتى أصبحت هذه المنازل أشبه بقرى متصلة بعضها ببعض^(٢) .

واحتفظت مدينة دمشق على عهد معاوية بمبانيها العامة وأسوارها وأبوابها .

(1) Kremer, op cit, 147: Encyc. of Islam, (art Damascus).

(٢) ابن عساكر، نفس المرجع ، ٢٤٣ : ١٤٧ . Kremer, op cit 147.

فضلات مستطيله الشكل على نحو ما كانت عليه من قبل ، ويشقها نفس الطرق الرئيسية التي وجدت منذ العصر البيزنطى . فكان يشق دمشق طريق سعى « بالشارع الأعظم » ، واسكنه عرف غالباً باسم « المستقيم » ، وبلغ طوله ١٦٠٠ متراً ، ويمتد من الشرق إلى الغرب ، ويضم على جانبيه عمران أحدهما للمشاة والآخر للركبان^(١) . وكذلك بقيت مظاهر النشاط الاقتصادى والاجتماعى بالمدينة مركزة فى الأحياء التى كانت عاصمة بها أيام الحكم البيزنطى . فكان قلب المدينة النابض يقع بالقرب من كنيسة القديس يوحنا ، التى حولها الأمويون فيما بعد إلى الجامع الذى نسب إليهم . وأقام معاوية بالقرب من هذه الكنيسة « قصر الخضراء » الذى اتخذ مقرأ له ومركزاً لإدارة حكومته . وكانت الخضراء من المباني التى شيدت من قبل أيام السيادة البيزنطية ، فجددها معاوية بأن هدم المتداعى منها ، وبنّاها بالطوب أولاً ، ثم ما لبث أن أعاد بناءها من الحجارة . وزين هذا القصر بالذهب والمرمر ، وحجراته بالفسيفساء ، وأحاطه بالحدائق الغناء^(٢) . وقد أشاد بهذه الأوصاف أحد الرحالة المسيحيين الذى وفد من غرب أوروبا فى زيارة للشرق بعد انتشار الإسلام فى مصر والشام بثلاثين سنة . إذ زار هذا الرحالة المدعو « أركولف » إقليم الشام فى خلافة معاوية وأشار إلى احتفاظ دمشق بذا نهر نشاطها السابق قبل دخولها فى حظيرة الإسلام^(٣) .

ولم تلبث دمشق بعد عهد معاوية أن شاهدت حركة واسعة فى البناء والتعمير ، وغدت مدينة إسلامية محصنة . وكانت دلائل هذا العهد الجديد ببناء المسجد

(١) Encyc. of Islam (art Damascus)

(٢) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ص ٢٤٣ ؛ Encyc of Islam (art Damascus)

Sayed Ameer Ali, A short History of the Saracens 159

(٣) عبر عن ذلك أركولف قائلاً :

« in que (Sc. Ciuitate) Saracenorum rex adeptus eius principatum regnat, et ibidem in honorem Sancti Johannis baptistae quandis fundata ecclesia incredulorum et ipsa in eadem ciuitate, quam ipsi frequentant, fabricate est. »

الأموى ، إذ استولى الوليد بن عبد الملك سنة ٧٠٥ م على كنيسة دمشق المعروفة بكنيسة القديس يوحنا ، وأقام عليها المسجد المسمى بالجامع الأموى . وأدخل الوليد من التعديلات الكثيرة على مظاهر الكنيسة القديمة بما جعلها تأخذ صبغة مسجد إسلامي رائع ، وجعل له مآذن جميلة كان أهمها المئذنة الشمالية . وكانت هذه المئذنة تستخدم منارة لكشف أى حركة هجوم قد يشنها عدو على المدينة ، وأصبحت نموذجاً يحتذى فى سائر المباني التى شيدت فيما بعد فى سائر أنحاء دمشق والشام . وبذل الوليد جهداً عظيماً فى هذا المسجد ، الذى أصبح رمزاً لعظمة المسلمين فى الشام ، وشاهداً ينطق بقوة دولتهم أمام الزائرين من الأقطار المختلفة . فيروى أن الوليد قضى فى بنائه تسع سنين ، وأنفق عليه خراج مملكته سبع سنين ، حتى أصبح يضم من الروائع ما جعل الإنسان « لو عاش مائة سنة وكان يتأمله كل يوم ، لرأى فى كل يوم ما لم يره فى سائر الأيام من حسن صنائعه واختلافها »^(١) .

وكان أهم مظهر اشتهرت به دمشق على عهد الأمويين إلى جانب مسجدتها الجامع هو نظام مياه الشرب ، وتحقيقه أسباب الرفاهية والراحة لجميع سكانها . فقد بذل الأمويون جهداً كبيراً فى تنظيم مياه نهر بردى الذى تعتمد عليه المدينة وغوطتها . ووصف ياقوت هذا النهر واعتماده على الينابيع وانسيابه إلى دمشق وحدائقها قائلاً : « بردى أعظم نهر دمشق ، يخرج من قرية على خمسة فراسخ من دمشق مما يلي بعلبك ، يظهر الماء من عيون هناك ، ثم يصب إلى قرية على فرسخين من دمشق ، وتنضم إليه عين أخرى فإذا صار ماء بردى إلى قرية يقال لها دُمَّرَ افترق على ثلاثة أقسام وتمتزج هذه الأنهر الثلاثة بالوادي ثم بالغوطة حتى يمر بردى بمدينة دمشق فى ظاهرها »^(٢) .

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١١٩ .

استغل الأمويون مياه بردى في إمداد البيوت الكبيرة والصغيرة على السواء بما تحتاجه منها ، فزودوها بأحواض خاصة تنبثق منها المياه : على حين حفروا سبع جداول رئيسية تناسب في أنحاء المدينة لضمان إمداد المنازل بالمياه من مجرى النهر الرئيسي . وتولى الخلفاء الأمويون العناية بمجاري بردى الرئيسة ، ورعايتها خالفا عن سالف . قشق يزيد بن معاوية النهر الذي عرف باسمه ، وكان هذا النهر في الأصل مجرى صغير به قليل من المياه تروى ضيعتين في منطقة الغوطة . وفي خلافة معاوية آلت ملكية هاتين الضيعتين إلى الخلافة وإدارتها . فلما ولي يزيد وجد أن الأرض التي تحيط بهاتين الضيعتين واسعة وتفتقر إلى الماء لإصلاحها واستثمارها . فأمر بتوسيع النهر الصغير الذي كان يروى الضيعتين وأصبح نهراً كبيراً عرف باسمه تخليداً لاهتمامه بمياه دمشق وتنظيمها ^(١) .

وبذل الخلفاء الأمويون جهوداً كبيرة في دراسة مياه بردى وتنظيمها بما يكفل للجميع الراحة والهناء . ففي خلافة سليمان بن عبد الملك قلمت المياه في نهر بردى ، وشكك الناس إلى الخليفة الحال التي أصبح عليها النهر . فعهد سليمان إلى مهندس من رجاله بدراسة جهات يمكن أن يوجد بها عيون ماء جديدة تسكفل تحسين مستوى مياه بردى . وتمت الدراسات على عهد الخليفة هشام ، واستفاد من العيون الجديدة بحفر قنوات أخرى إلى سائر الضياع التي شكت من قلة المياه ؛ ثم نظم بعد ذلك توزيع المياه بالتناوب على نهيرات دمشق ، وزود كل منها بما تحتاجه من المياه . وغدت هذه الأنهار مما ينتفع به الداني والقاصي « وينقسم منها الماء إلى الأرضين في الجداول . . ويدخل من بعدها إلى البلد في القنى ، فينتفع به الناس الانتفاع العام على الوجه الهنيء ، ويتفرق إلى البرك والحمامات ويجرى في الشوارع والسقايات ^(٢) » .

(١) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(٢) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

وهكذا خلق الأمويون من دمشق عاصمة زاهرة جديدة بأن تصبح المدينة الأولى في العالم الإسلامي ، وتضم أسباب الرفاهية لسكانها ورفع شأنهم في العالم المجاور لهم . وكانت هذه المنزلة الرفيعة التي نالتها دمشق على عهد الأمويين مشار تنافس بينها وبين مدينة القسطنطينية . إذ عز على هذه المدينة الأخيرة التي كانت منذ زمن غير قصير سيده دمشق أن ترى تابعتها تبذلها سلطانا وسهاءا . ونشب بين المدينتين صراع استطاعت فيه دمشق أن تلقن القسطنطينية درسا ، خلاصته أن الدين الإسلامي جعل من الشرق وحدة متماسكة تشد بعضها بعضا ، وأنها أصبحت بفضل خلفاء بني أمية رمز هذه الوحدة الجديدة ، وطريقة تشكيل لها أشد الضربات في سبيل إعزاز دولة الإسلام الناشئة والدفاع عنها .

نشأة القسطنطينية

في الفترة التي خرجت فيها هجرة الأنباط من بلاد العرب ، وأخذت تصبغ إقليم الشام وحاضرتة دمشق بأولى ألوان الطابع العربي وهيأتها لتبوء مركز الصدارة فيما بعد على العالم الإسلامي زمن الأمويين ، كانت هناك هجرة بشرية مماثلة قد سبقت هجرة الأنباط بقليل ، خرجت من بلاد اليونان واستعمرت شواطئ آسيا الصغرى الغربية والشمالية ، وتمخضت عن ميلاد مدينة عرفت فيما بعد باسم القسطنطينية ، منافسة دمشق أيام بني أمية . وكان أنشط جماعات اليونان في هذه الهجرة هم سكان مدينة ميجارا ، إذ ائصفوا بالمهارة والمقدرة الحسنة في اختيار أصلح الأماكن التي يشيدون عليها صرح مستعمراتهم ومدنهم الجديدة . فأسس بعض أولئك السكان مدينة خلقدونيا على الشاطئ الآسيوي قبالة مضيق البسفور ، حيث يتمتع هذا السكان بمميزات جغرافية هامة ^(١)

(1) Runciman, Byzantine Civilisation, 11.

على أن فريقاً آخر من سكان ميخارا بد أقرانه جميعاً في انتقاء المواضع التي تشيد عليها المستعمرات ، إذا انتقل إلى الشاطئ ، الآخر الأوربي المطل على البسفور قبالة مدينة خالقدونيا ، وأسس لنفسه في هذا المكان الجديد مدينة عرفت باسم بيزنطة (Byzantium) . وحببت الطبيعة هذا المكان بمميزات جميلة جعلته يتحكم في مفرق طرق هامة . ذلك أن مساحتين كبيرتين من الماء وها البحر الأسود وبحر إيجه يفصلان قارة أوربا عن جنوب غربى آسيا . ولكن يمتد بين البحرين إقليم تراقيا قبالة آسيا الصغرى ، ويقترب الشاطئان الآسيوى والأوربي حتى لا يفصلاهما عن بعضهما البعض سوى مجريان ضيقان فقط ، هما البسفور والدردينيل وبحر مرمرة الممتد بينهما ^(١) .

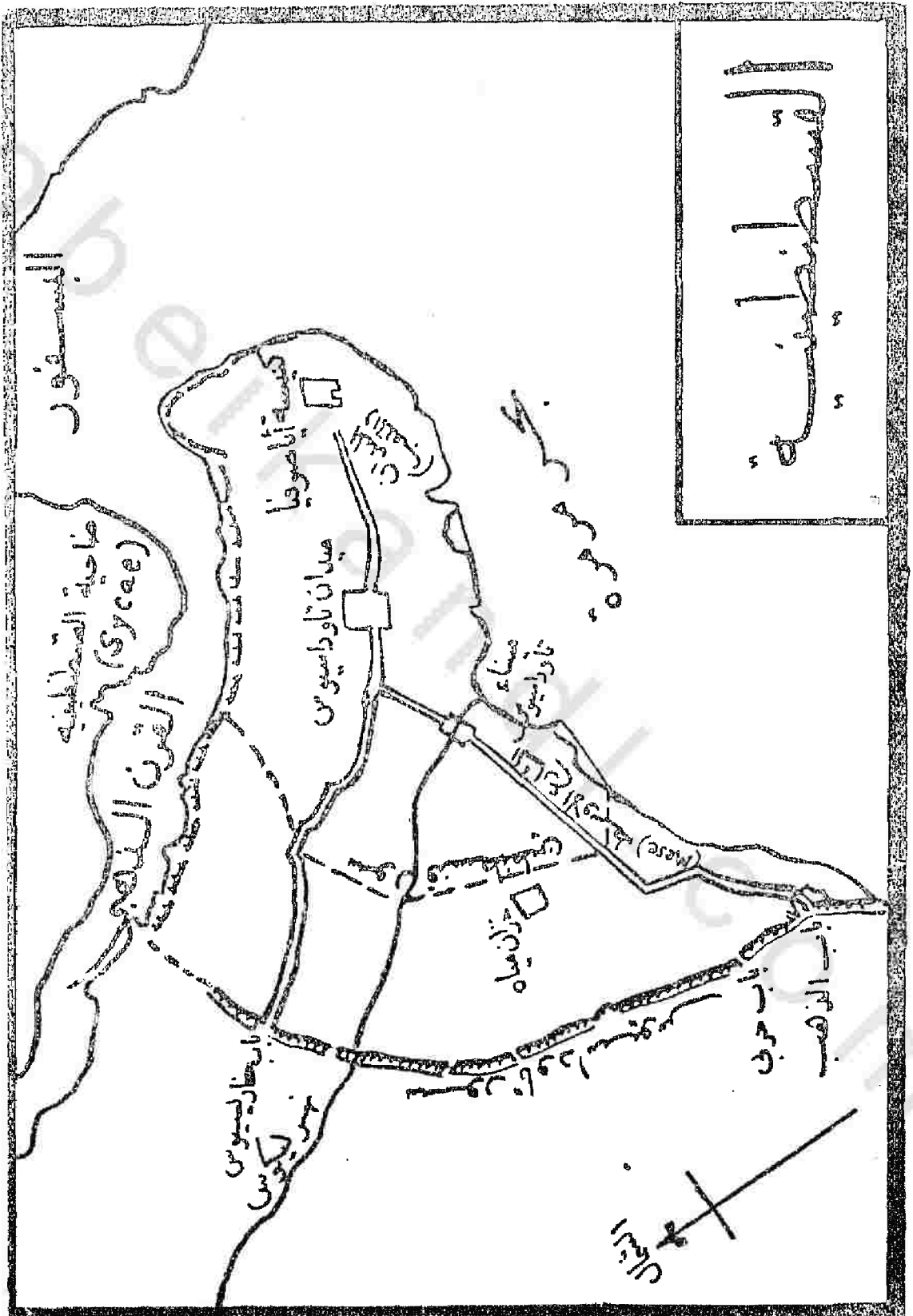
ويعد مضيق البسفور الذى أسست عليه مدينة بيزنطة أسهل الممرات التي يمكن عبورها بين آسيا وأوربا . إذ أن المسافرين عبر هذا المضيق يتجنب تسلق جبال آسيا الصغرى ، على حين يجد طريقه إلى أوربا بعد اجتياز المضيق سهلاً ميسوراً عن طريق جبال تراقيا . ولذا أصبح المسافرون والتجار بين أوربا وآسيا يمرون بمدينة بيزنطة ، على حين تسير بالقرب من شواطئها السفن التي تبهر بين البحر الأسود وبحر إيجه متجهة إلى البحر الأبيض المتوسط . ذلك أن البسفور يقع في ممر طريقين هامين من طرق التجارة الكبرى بين أوربا وآسيا ، ويكفل المدن التي تقام عليه سيطرة تجارية فضلاً عن الموقع الممتاز ^(٢) .

وإذا كانت بيزنطة تشترك مع خالقدونيا في أن كلا منهما يطل على البسفور ، إلا أن الأولى بذت الأخرى بسبب تمتع الشاطئ الأوربي بمميزات يفتقر إليها الشاطئ الآسيوى . إذ قبل اتصال مياه البسفور وبحر مرمرة يمتد داخل الشاطئ الأوربي خليج عظيم طوله سبعة أميال في انحناء أشبه بالمنجل أو القرن ، جعله

(1) Runciman, op cit, 11 :

Bury, History of the later Roman Empire (1931) , 67.

(2) Runciman, op cit, 11, 12.



يعرف في التاريخ بالقرن الذهبي . وأصبح محصوراً بين القرن الذهبي وبحر مرمرة رأس أرضية ثلاثية على شكل مثلث متساوي الضلعين تقريباً ، رأسه تقابل الشاطئ الآسيوي^(١) . فكانت أى مدينة تقام على هذا الرأس تفعم بمياه طبيعية يهيء لأساطيلها مرفأ آمناً هادئاً ، فضلاً عن الحصانة من ناحية البحر ، لأن المياه تحيط بها تقريباً من جميع الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية ، وقبضت بيزنطة على ناصية هذه المميزات الهامة وحدها .

على أن مناخ مدينة بيزنطة شاب مميزاتها الجغرافية وانتقص منها . إذ يهب على المنطقة التي تقع فيها المدينة رياح باردة في فصل الشتاء ومطالع الربيع تأتي من الاستبس الآسيوي وتعتبر البحر الأسود . وكان المستعمرون الأغريق يقشرون من زمهرير هذه الرياح ، ولا سيما أنهم اعتادوا الحياة في وديان بلاد اليونان التي تقيهم شر هذه الرياح . ولم يقتصر سوء المناخ على ذلك ، إذ أن الصيف في هذه المنطقة حار جداً ، مما يجعل الإقامة فيها أمراً غير محبوب . وامتدت آثار هذه الرياح السيئة إلى الملاحة في مياه هذه المدينة ؛ إذ أن هذه الرياح الشمالية تعرقل سير السفن في تيار السفور المتجه جنوباً وتعوقها عن السير حول رأس مدينة بيزنطة والوصول إلى القرن الذهبي . فالرياح تسير في نفس اتجاه التيار المائي وتزيد من صعوبة الملاحة فيه^(٢) .

وظل هذا المناخ من أهم العوامل التي أعجزت مدينة بيزنطة عن النمو والازدهار مدى ألف سنة بعد تأسيسها . ولكن سرعان ما ظهرت أهميتها وما تمتعت به من موقع فريد حين بدأ الصراع بين قوى الشرق والغرب على السيادة والسيطرة . فاهتمت أثينا بمدينة بيزنطة إبان الحروب البليبونيزية^(٣) لأنها المدخل المؤدى إلى

(1) Bury, op cit, 7 , 8.; Runciman, op cit, 12.

(2) Runciman, op cit, 12 ; Bury, op cit, 7 , 8.

(٣) نشبت الحروب التي عرفت باسم البليبونيزية بين أسبرطة وحلفاءها من المدن اليونانية وبين امبراطورية أثينا في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد .

شواطئ البحر الأسود الشمالية ، حيث تحصل على ما تحتاجه هناك من غذاء من حقول القمح الغنية . واعتبرها فيليب المقدوني وابنه الاسكندر الأكبر البوابة الرئيسية التي تؤدي إلى آسيا ^(١) . ثم جاء أباطرة الرومان أخيراً وأدركوا أهمية هذه المدينة التجارية في حلقة الاتصال التجاري بين الشرق والغرب ، فأقاموا بها جنداً نظامياً من الرومان لمساعدة الجند المحلي على حفظ الأمن بها وتنظيم أحوالها ^(٢) . وأخذت مدينة بيزنطة منذ عهد الرومان تتأرجح علواً وانخفاضاً ، إذ سرعان ما ثارت على السلطات الرومانية مما حدا بأباطرة الرومان على منع أهالي المدينة من تسليح أنفسهم أو بناء حصون لهم . وظلت المدينة على هذا النحو من الحياة المستكنة حتى عهد الامبراطور دقلديانوس . فقد ظهر إذ ذاك جماعة من القوط ^(٣) أقاموا على شواطئ البحر الأسود الشمالية ، واحترفوا القرصنة وأخذوا يتوغلون بسفنهم حتى يبحر إبحه عبر البسفور للقيام بأعمال النهب والسلب . فاضطر الامبراطور دقلديانوس إلى إعادة تسليح المدينة وتقوية أسوارها وحصونها لتقف سداً مانعاً في وجه القراصنة القوط . ^(٤)

ولم تلبث مدينة بيزنطة أن دخلت في دور جديد من أدوار حياتها حين بدأ النزاع على العرش الروماني بين الامبراطور قنسطنطين الكبير ومنافسه اميكنيوس . إذ اتخذ الأخير مدينة بيزنطة مقراً لإدارة دفة عملياته الحربية وحصنها يحتمي به من منافسه القوى . ولكن تحطمت آمال اميكنيوس في النصر حين حطم قنسطنطين أسطوله في البسفور وأتبعه بايقاع هزيمة بجندة . وسيطر قنسطنطين على المدينة وأصبح السيد المطلق في الدولة الرومانية . ولكنه لم يغض الطرف

Runciman, op cit, 12. (١)

Charlesworth, Trade Routes, 118 , 119. (٢)

(٣) القوط جماعات جرمانية اقترنت من حدود الامبراطورية الرومانية الكبرى ، وأخذت تغير على أراضيها تبتغى لنفسها العيش بها والتهب أحياناً .

Runciman, op cit, 13. (٤)

عن هذا الموقع الممتاز الذي كشفه في مدينة بيزنطة خلال حروبه السالفه ، وبدأ يستقله بما فيه الصالح العام لأمبراطوريته^(١) .

وكانت الأمبراطورية الرومانية قد أحست منذ عهد دقلديانوس ضرورة تعديل نظمها الإدارية لمواجهة الأخطار الملحة التي حاظت بها على حدودها الشرقية . فكانت حدودها مهددة بعناصر جديدة من القبائل الجرمانية التي أخذت تنثال على أراضي الدولة في الشرق تبغى العيش والاستقرار فيها ؛ فضلاً عن أخطار دولة الفرس العدو المزمع لها . واضطر الأباطرة الرومان إلى البحث عن مكان يقيمون به بالقرب من الحدود الشرقية لدفع هذا الخطر ، وأحسوا أن عاصمتهم روما لم تعد صالحة لأن تكون مراكز إمبراطوريتهم المتباعدة . فأقام الإمبراطور دقلديانوس في مدينة نيقوميديا خاصة ليستطيع مراقبة الأحداث على الجبهة الشرقية .

ولما جاء الإمبراطور قنسطنطين سار على نهج دقلديانوس في ضرورة البحث عن مقر في الشرق يتخذ عاصمة جديدة للدولة الرومانية بعد ما حاظ بها من أخطار جسيمة . وتعلقت أفكاره ببعض مدن آسيا الصغرى وتنقل بينها ليدرس أحوالها . ولكن حين نشب الصراع بينه وبين ليكيانيوس ، ورأى أن منافسه قد اتخذ من مدينة بيزنطة معقلاً يحتمى به تفتحت عيناه واسعة عن أهمية هذه المدينة ، وزاد إدراكه لأهميتها بعد أن تم له الفوز ، ووقف على عجزاتها الطبيعية البرية والبحرية . وسرعان ما زال عنه التردد في اختيار مقر جديد لحكمه ، وانتقى بيزنطة ليقل إليها عرش إمبراطوريته .

وفي نوفمبر سنة ٣٢٤م أرسل الإمبراطور قنسطنطين المهندسين والمخططين إلى مدينة بيزنطة وضواحيها للبدء في تعميمها وبنائها ، بما يجعلها جديرة بتولى إدارة شؤون الإمبراطورية الرومانية ومقر الجالس على عرشها . وتمت عمليات البناء

(1) Runciman, op cit, 13.

والتعمير بعد خمس سنوات ونصف سنة ، واحتفل الامبراطور بانتقال ملكه إلى العاصمة الجديدة في ١١ مايو سنة ٣٣٠ م . وأطلق قنسطنطين على هذه المدينة اسم روما الجديدة تشبها بروما القديمة ، ولكن رعاياه أبوا إلا أن يسموها القسطنطينية نسبة إليه واعترافاً بفضلها ، شأن أى عمل جليل يقرن دائماً باسم صاحبه ^(١) .

وهكذا ارتفعت مدينة بيزنطة ، المستعمرة الإغريقية ، إلى مصاف المدن الكبرى العالمية ، واستطاعت أن تظل محتفظة بمكاتها السامية التي نالتها إلى أمد طويل . ذلك أن العناصر الجرمانية المهاجرة لأطراف الإمبراطورية الرومانية استطاعت أن تصتولى على الأراضي الرومانية في غرب أوربا وأسست لنفسها هناك دولا ، ولكنها لم تستطع القيام بأشبه ذلك في الأراضي الرومانية في الشرق بفضل يقظة القسطنطينية وأباطرتها . وحدا هذا المظهر الجديد إلى تسمية التراث الباقي من الإمبراطورية الرومانية باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، أو الإمبراطورية البيزنطية نسبة إلى الإسم القديم لحاضرة الإمبراطورية ، ودلالة على العهد الجديد الذى أخذ يظل بلاد القسم الشرقى من الامبراطورية العتيدة .

القسطنطينية البيزنطية :

لم يكن ارتفاع مدينة بيزنطة إلى مصاف العواصم الكبرى أمراً أفقدها طابعها القديم أو أكسبها سمة جديدة . إذ ظلت هذه المدينة محتفظة بطابعها الإغريقى دون أن تؤثر عليها اللاتينية السائدة في روما العاصمة القديمة . فاضطر الأباطرة الذين أقاموا بها أن يعرفوا اللسان اليونانى حيث عاشوا في وسط جديد يتحدث بهذه اللغة ، ويحرص على الاحتفاظ بتراته الثقافى الإغريقى . كذلك جهد أولئك الأباطرة الذين أقاموا في العاصمة الجديدة على الإفادة من مميزات مدينتهم الطبيعية واستغلالها لما فيه صالح الدفاع عنها . ومن ثم أضحت هذه المدينة

(1) Runciman, op cit, 14.

رغم توالى العصور ثابتة الدعائم ، حرية أن تجمع بين اسمها القديم خلاود مظاهرها القديمة وبين اسمها الجديد لمسكاتها الجديدة في الامبراطورية الرومانية الشرقية . ورسم الامبراطور قنسطنطين خلفائه من بعده السياسة التي يسرون عليها للنهوض بأمر عاصمة ملكهم الجديدة ، وتوجيهها لمهمة الدفاع عن كيان امبراطوريتهم . ونجحت سياسته لأنها قامت على القواعد الرئيسية الكبرى التي حرص القدامى على اتباعها لإعلاء شأن مدنها والحفاظ علىها . فحصن الامبراطور قنسطنطين عاصمته بأن بنى لها حائطا في الجهة البرية يمتد من البسفور إلى القرن الذهبي ، بحيث أصبح هذا الحائط قاعدة المثلث الذي قامت عليه بيزنطة . ولكن المدينة لم تلبث إن اتسعت بسبب كثرة سكانها ، مما اقتضى إحداث تجديدات وتغييرات جوهرية في وضع الحائط وبناءه . فكان الحائط ينقل تدريجيا إلى المنطقة الخلفية بحيث يضم البقاع الجديدة التي تعمر بسكان العاصمة^(١) . وكان يدفع الأباطرة على تجديد هذا الحائط أيضا باستمرار الزلازل التي تكرر حدوثها في منطقة القسطنطينية وتحيطها بعض تحصيناته . وكان أهم هذه الهزات الأرضية الزلزال الذي حدث سنة ٤٤٧ م وإصابته الحائط بأضرار جسيمة . فافتضى ذلك تجديد بناء أسوار المدينة وحائطها ، وظلت على هذا الطابع الأخير دون تغييرات جوهرية^(٢) حتى وقفت أمامها جيوش المسلمين . ويعتبر هذا الحائط جزءا لا يتجزأ من المدينة ومن نظام تخطيطها ، كما أنه كان أول نقطة في سياسة الامبراطورية العامة في تنسيق وسائل الدفاع عن أراضيها ، حتى أصبحت شؤون هذا الحائط المقياس الذي يتحكم في طول أعمار الحكومات البيزنطية وقصرها . وانقسم هذا الحائط إلى عدة مناطق لكل منها تصنيفاتها الخاصة . فكان يشمل جداراً داخلياً يحيط بمباني المدينة ويكون خط الدفاع الرئيسي عنها .

(1) Bury, op cit, 68.

(2) Ibid, 70.

ولذا بلغ سمك هذا الجدار ١٤ قدماً ، عليه أربعة وتسعون برجاً شديدة الارتفاع ، ويبعد كل واحد عن الآخر بمسافة قدرها حوالى ٥٠ متراً . وكانت هذه الأبراج مقرر حراس يرابطون فيها بصفة دائمة ، وعلى أهبة الاستعداد لرد أى عدوان يقع على المدينة . إذ يشتمل البرج على دهليزين ، يحوى أحدهما الذخيرة والعتاد الضرورى والآخر يقيم به الجند . ثم يحيط بهذا الجدار الداخلى سور خارجى يفصل بينهما مسافة سعتها تتفاوت بين خمسين إلى أربعة وستين قدماً^(١) .

والسور الخارجى أقل سمكاً من الجدار الداخلى ، إذ يتفاوت سمكه بين قدمين وست أقدام ونصف قدم . وله تقريباً نفس أبراج الجدار الداخلى ، إذ تبلغ ستة وتسعون برجاً يتفاوت ارتفاع كل منها بين ثلاثين وخمسة وثلاثين قدماً . وأحاط بهذا السور جسر من الأرض عرضه ٦١ قدماً ، ثم يدور حول هذا الجسر خندق عرضه كذلك ٦١ قدماً ، ولكن عمقه يتفاوت من مكان إلى آخر . وهذه الأسوار البرية أتمت حلقة تحصين القسطنطينية ، التى تولى البحر حماية جهاتها الثلاثة الأخرى^(٢) . ويتضح من استعراض هذه الأسوار وتحصيناتها مدى ما بذلته السلطات البيزنطية من نفقات فى سبيل صيانتها والاحتفاظ بها معدة دائماً لدفع الأخطار عن المدينة .

وكانت تمتاز هذه الأسوار وتحصيناتها من عشرة أبواب رئيسية ، خمسة منها خصصت للأغراض الحربية وانتقال الجيوش عبرها ، والأخرى اقتضت على استعمال المدنيين وشئونهم . ورتبت هذه الأبواب بحيث يكون هناك باب حربى وعلى بعد منه باب مدنى ثم باب حربى ، وهكذا حتى يتم وضع الأبواب الحربية والمدنية بالتبادل عبر الأسوار . وكانت أعظم هذه الأبواب وأهمها « باب الذهب » الذى شيده الامبراطور تاوداسيوس العظيم (٣٧٩ — ٣٩٥ م) تخليداً لذكرى

(1) Bury, op cit, 70 , 71.

(2) Ibid, 71,

انتصاره في القضاء على ثورة عانية أعلنها أحد أعدائه ومنافسيه . واشتمل هذا الباب على ثلاث فتحات أشبه بأبواب دمشق الرئيسية ، منها فتحة كبرى في الوسط وعلى جانبيها الفتحتان الأخريتان . وكان هذا الباب أقرب أبواب المدينة لبحر مرمرية ويتلوه سائر الأبواب الأخرى التي تضمها الأسوار^(١) .

أما الأبواب الأربعة الأخرى الرئيسية الحربية ، فكانت تحمل أسماء « باب ميلانتياس Melantias » و « باب ريجيون Rhegion » و « باب القديس رومانوس St. Romanus » و « باب خاريسيموس Charisius » . وكان الجزء من السور الممتد من باب القديس رومانوس إلى باب خاريسيموس يعرف بالخط الأوسط ، واستهدف دائماً لهجمات الأعداء على المدينة ، حيث اعتبروه أصلاً بقعة للهجوم على قلب المدينة . على أن هذه الأبواب قسمت سور المدينة إلى ست مناطق حربية للدفاع عنها ، قام بحراسة كل جزء منها فيلق من فيالق الجيش ، يتعاونون فيما بينهم بما يحقق المدينة السلامة والطمأنينة^(٢) .

وإلى جانب هذا السور البري العظيم أنشأ الأباطرة جدراناً للدفاع عن المدينة من ناحية البحر . وكانت تحيط بجميع الجهات البحرية ، وتعتمد على القلاع والحصون أكثر من اعتمادها على سمك الجدار وضخامته . فكان على امتداد القرن الذهبي وبحر مرمرية أسوار بحرية تتصل بخط الدفاع البري الذي تم إنشاؤه في القرن الخامس الميلادي . وأصبحت المدينة الجديدة التي أسسها الإمبراطور قسطنطين تامة الحصون ومستكملة لوسائل الدفاع عنها على عهد خلفائه^(٣) . وكان المدافع على هذا النشاط الحربي الذي بذله الأباطرة لإعداد القسطنطينية رغبتهم في جعل عاصمتهم تبذروا العاصمة القديمة في المنعة والقوة ، وتشجيع الناس

(1) Bury, op cit 71.

(2) Ibid, 71 , 72.

(3) Ibid, 72.

على الانتقال إليها بجعل وسائل الطمانينة مكفولة لهم . وقد وقفت هذه الأسوار سداً منيعاً حتى بطش بها المسلمون على عهد الأمويين ثلاث مرات كبرى .

وقامت إلى خارج أسوار القسطنطينية خلف القرن الذهبي ضاحيتان هامتان من ضواحي المدينة ، أشبه بأقليم الغوطة الواقع خارج أسوار دمشق . وكانت هذه الضواحي مهمة في حياة القسطنطينية لأنها تطل على القرن الذهبي أعظم موانئ العاصمة . ولذا حرصت السلطات البيزنطية على إيجاد حلقة اتصال بينها وبين هذه الضواحي ، فأعدت سفناً منظمة تعبر الخليج جيئة وذهاباً ، فضلاً عن إنشاء جسر خشبي عليه ، ولكن لم يلبث أن أعيد بناء هذا الجسر من الحجر ^(١) . وكانت هذه الضواحي قبلة أنظار مهاجمي القسطنطينية ، يعملون على الاستيلاء عليها عرقلة حركات الأساطيل في القرن الذهبي ، فضلاً عن قطع الأمداد التي تأتي إلى العاصمة من هذه الناحية .

واهتمت السلطات في العاصمة بالموانئ التي ترسو بها الأساطيل المدافعة عنها . فإلى جانب القرن الذهبي كان للمدينة موانئ أخرى صغيرة تطل على البسفور ، منها ميناء اليوثيريوس (El eutherius) الذي عرف فيما بعد باسم ميناء تاوداسيوس ، وكذلك ميناء أياصوفيا . ولعبت هذه الموانئ رغم صغرها دوراً هاماً في تسهيل الملاحة في مياه القسطنطينية . إذ كانت تجد السفن فيها أما كن هادئة تأوى إليها عند اشتداد التيار المتدفق من البحر الأسود إلى بحر مرمرة وهبوب الرياح الشمالية العاصفة . فقد ترتب على هذا التيار والرياح معاً عرقلة سير السفن التي تبغى الطواف حول رأس مدينة القسطنطينية ودخول القرن الذهبي ، فأصدة ميناءاً في هذا الخليج يدعى « بروسفور يانوس » (Portus prosphorianus) ، تلقى عنده مراسيها ^(٢) .

(1) Bury, op cit, 72.

(2) Ibid, 71, 72.

وكان الميناء الأخير في القرن الذهبي محصناً بسلسلة موضوعة في مدخل الخليليج تمنع السفن التي لا يرغب فيها من الدخول ، شأن الموانئ الهامة في المصور الوصلى . وبذلك استطاعت القسطنطينية أن تنظم حركة الملاحة في مياهها المحلية لمصنفيها التجارية وأساطيلها الحربية ، وفي نفس الوقت جهدت في منع الأعداء من الاستيلاء على هذه الموانئ الصغيرة أو الاستفادة منها في حصار المدينة ، ولا سيما في الاقتراب من الميناء الأخير في خليج القرن الذهبي . إذ كان هذا الميناء يقع بالقرب من « باب الذهب » في الركن الجنوبي الغربي للمدينة ، ويعتبر مفتاح الطريق الذي تدخل منه الامداد الحربية وغيرها إلى القسطنطينية . وظل هذا الميناء صعب المنال على القوى المهاجمة للعاصمة بسبب صعوبة التيارات المائية التي تدفع السفن الآتية من بحر مرمره ، وإن كان كثيراً ما نال هجمات مفاجئة من السفن التي تأتي من البحر الأسود . ومن ثم اهتمت السلطات في العاصمة بتقوية باب الذهب المشرف على هذا الميناء حتى أصبح أهم الأبواب الحربية في المدينة^(١).

وكانت جهات القسطنطينية المطلة على القرن الذهبي تشمل أهم مرافق العاصمة . ففي الركن الشرقي للمدينة الذي يحده القرن الذهبي والبسفور يوجد قصور الأباطرة والملعب (المبدروم) وكنيسة أياصوفيا^(٢) . ويصل بين هذه الجهات الهامة طريق رئيسي يعرف بالشارع الأوسط (Mesé) أشبه « بالطريق المستقيم بدمشق » . وكان هذا الطريق طويلاً ، على جانبيه أعمدة تعطي المدينة طابعاً شرقياً^(٣) . ويمتد هذا الشارع من باب الذهب الذي اعتاد كبار الزائرين الذين يقدون إلى العاصمة الدخول منه : ويؤدي الطريق إلى نصب من الحجر يتخذ

(3) Bury, History of the Later Roman Empire, 52 , 53.

(2) Bury, op cit, 52 , 53.

(3) Ibid, 53.

نقطة مركزية تقاس منها الأبعاد (Milestone) . ولم يكن هذا النصب مجرد عمود حجرى ، وإنما هو عبارة عن مبنى مسقوف مفتوح من الجوانب ، ويحمل السقف على سبعة أعمدة ، بينها تماثيل للإمبراطور قسطنطين الكبير مؤسس المدينة ، وأمة القديسة هيلانة وغيرها من التماثيل التى تمثل الشخصيات الكبرى للإمبراطورية . وكان الأباطرة يتخذون من هذا البناء نقطة تتجمع عندها الوفود عند القيام بالمواكب الرسمية^(١) .

وكان العابر لهذا الطريق يرى بعد أن يجتاز هذا النصب الحجرى قبة كنيسة أياصوفيا الهائلة ، التى بناها الإمبراطور جستنيان . وعندما يتجه الزائر لدخول هذه الكنيسة من الباب الغربى يجد على يمينه الملعب (الهيدرورم) ، مقر لهُوأهالى العاصمة وندوة اجتماعاتهم . وإذا ما انتهى الزائر من مشاهداته للكنيسة وخرج من بابها الجنوبى رأى أمامه القصر الإمبراطورى الذى تدار منه دفة شئون الإمبراطورية^(٢) .

واهتم الأباطرة البيزنطيون بتهيئة أسباب الرفاهية لسكان عاصمتهم . وكان موضع رعايتهم جميعاً تزويد المدينة بالمياه بلا سيما أنها عرضة للحصار من شتى الأرجاء . واتبع الأباطرة البيزنطيون نهج أسلافهم الأباطرة الرومان فى جعل سياسة تزويد المدن بالمياه من مهام الدولة الرئيسية . فالمعروف أن أولئك الأباطرة أجادوا فن بناء خزانات المياه والقناطر فى عاصمتهم روما ، وفى غيرها من المدن الكبرى فى الولايات التى دخلت فى حظيرتهم . ووجد البيزنطيون مهمة الحصول على المياه سهلة ميسورة من الينابيع التى تفيض بها التلال الشمالية فى المدينة . وأعدوا خزانات مغطاة ومكشوفة كذلك فى سائر أنحاء المدينة لتزويدها بالمياه .

(1) Bury, op cit, 54.

(4) Ibid, 54.

وإلى جانب ذلك كان هناك نهر اسمه ليكوس (Lycus) يجري بعرض المدينة ويصب في بحر مرمرة ^(١) .

وكان المسلمون يعملون جاهدين على دراسة الموقع الاستراتيجي لمدينة القسطنطينية وما بها من حصون ومرافق لتدميرها في حصارهم . وكان الأمويون واضعي الأسس الرئيسية في سياسة المسلمين الخاصة بالوقوف على مظاهر الضعف والقوة عند أعدائهم البيزنطيين للاستفادة منها . ونتج عن هذه السياسة وحملات الأمويين المتكررة على القسطنطينية أن عرف المسلمون فيما بعد جميع أحوال هذه المدينة ، وحصلوا على وصف تام لأسوارها وحصونها . وخلفت لنا المراجع الإسلامية صورة عن أوصاف هذه المدينة تجلت فيها الدقة وتحرى الصدق .

وجاء في تقارير المسلمين عن القسطنطينية ما يأتي : « وما وجدناه من صفة مدينة الرومية (وهي القسطنطينية) ثلاث نواح ، منها في البحر العظيم مما يلي القبلة والمشرق والمغرب ، والناحية الرابعة مما يلي البر . . . ، يعني الشمال . وطولها من الباب الغربي إلى الشرق ثمانية وعشرون ميلا ، ولها حائطان من حجارة ، وبينهما فضاء ستون ذراعا . وعرض السور الخارج ثمان أذرع وسمكة اثنتان وأربعون ذراعا ، وفيما بين السورين نهر يسمى فسطيطالس . . .) وهناك نقيير من المغرب إلى المشرق) يجري فيه لسان من البحر ، وتجرى السفن في هذا النقيير بحمولتها . » ولقسطنطينية قناة ماء يدخل إليها من بلد يقال له بلغر (بلاد البلغار) ، ويجري إليها هذا النهر من مسيرة عشرين يوما ، فينقسم إذا دخل المدينة ثلاثة أثلاث ، فثلث يذهب إلى دار الملك ، وثلث يذهب إلى حبوس المسلمين ، والثلث الثالث يذهب إلى حمامات البطارقة ، وسائر أهل المدينة فإنهم يشربون الماء الذي بين العذب والملح » ^(٢) .

(1) Bury, History of the Later Roman Empire (1931), 73.

(٢) العدوي ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ؛ انظر ملحق ١ من ص

وهكذا كان العصر الأموي أهم حقبة في تاريخ الإسلام والمسلمين ، علمت فيه راية الجيوش الإسلامية المظفرة في أراضي الدولة البيزنطية ، وعادت محملة بأثمن المعلومات التي تفيد سياسة دولتهم العامة . واضطلعت دمشق في هذا الدور برسم الخطوط الكبرى لهذه السياسة التي جعلت هدفها الأول إذلال عاصمة البيزنطيين ، وقطع خط الرجعة على أي تفكير قديدور بخلد أولى الأمر فيها على مناوأة المسلمين والعمل على استرداد الأراضي التي استولوا عليها واستظلت براية الإسلام . فأصبحت دمشق طوال عصر الأمويين الزاهر مركزاً لعمليات حربية كبرى اتجهت الواحدة تلو الأخرى صوب القسطنطينية ، تلقى الحصار على أسوارها وتذيق أهلها صنوف المتاعب والضنك .

وأتت سياسة دمشق الحربية أكلها طوال العهد الأموي ، إذ ظلت الأراضي الإسلامية ، ولاسيما مناطق النخوم بها بعيدة المنال عن أيدي البيزنطيين . ونعم المسلمون بالهدوء والطمأنينة في بلادهم ، وغدت دمشق نفسها عنوان هذه المنفعة والعزة والسؤدد ، فضلاً عن الهدوء والاستقرار . فلم تستطع جيوش البيزنطيين أن تطرق أبواب هذه العاصمة الفتية ، وظلت مبعثرة في أنحاء آسيا الصغرى تعمل على عرقلة زحف المسلمين المظفر دون جدوى . إذ عهد الخلفاء الأمويون بقيادة جيوشهم إلى كبار رجال دولتهم ، وجعلوا أبناءهم في صفوف الجند الإسلامي المحارب لينالوا شرف الجهاد في سبيل الله وإعزاز دينه . وكان ميدان القسطنطينية وحده هو الذي اختص بمشاهدة أعظم رجالات الأمويين وأبناء خلفائهم وأخواتهم كذلك ، يحاربون في صفوف المسلمين للحد من شوكة القسطنطينية ، رمز عناد البيزنطيين في التمسك بأحلامهم القديمة في إعادة دولتهم إلى سالف هيبتها ومجدها .

معاوية والقسطنطينية

فتى العرب ومصر القسطنطينية

بعد أن استتب الأمر لمعاوية بن أبي سفيان ، وصار خليفة العالم الإسلامي الذي غدت حاضرتة دمشق ، بدأ يعمل على تصفية الموقف المعلق بين دولته والامبراطورية البيزنطية . فمذ وقعة « ذات الصواري » واستقرار أقدام المسلمين في الشام ومصر دخل النزاع بين المسلمين والبيزنطيين في مرحلة جديدة . فقد تخلت الامبراطورية البيزنطية بعد هزيمتها في وقعة ذات الصواري عن مشاريعها القديمة في استعادة مصر والشام ، وأصبح الموقف الجديد يحتم عليها تعديل سياستها بما يتلائم مع ظهور المسلمين كقوة عظمى على شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقي . ومن ثم كانت مسألة السيادة على البحر الأبيض المتوسط الشرقي هي شغل معاوية الشاغل ، وحجر الزاوية في سياسته إزاء القسطنطينية التي جهدت على منع المسلمين من التوسع البحري .

أدرك معاوية بثاقب نظره أن القسطنطينية عصب جزر البحر الأبيض المتوسط الشرقي ، تغذيها بالقوات والأمداد ، وتشجع أهاليها على شن الإغارات على سواحل المسلمين . وقوى هذا الاتجاه عند معاوية حملاته على قبرص ، ومنعها من أن تصبح قاعدة للبيزنطيين في شرق البحر الأبيض المتوسط . ويعد إدراك معاوية لقيمة القسطنطينية وأهميتها في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ المسلمين السياسي من الدائم الأساسية التي كتبت للمسلمين الخلود في البحر الأبيض المتوسط ، القلب النابض للعالم القديم ومفتاح سيادته وزعامته . وجهد معاوية في وضع خطة تهدف إلى ضرب القسطنطينية في عقر دارها والاستيلاء عليها إذا تهيأت الظروف . وترك لخلفائه من بعده طريقاً واضح المعالم للسير فيه من أجل رفع راية الإسلام

على مياه البحر الأبيض المتوسط .

استهل معاوية جهاده ضد القسطنطينية بعد أن نالت جيوشه قسطنطيناً وافرأ من المران الحربى على اجتياز آسيا الصغرى ، واطمأن إلى حسن تدريبها بعد الإغارات المتكررة التى شنتها على أراضى البيزنطيين . فأرسل حملة استطلاعية تمهيدية سنة ٤٩ هـ / ٦٦٨ م بقيادة فضالة بن عبيد الأنصارى إلى ضواحي القسطنطينية^(١) ، لتعجم عود خط الدفاع البيزنطى الأماحى عن العاصمة . إذ تعتبر مدينة خلقدونيا صاحبة من ضواحي القسطنطينية على الشاطئ الأسىوى ، ومقل نفيلق من الجيش البيزنطى مكون من حرس الامبراطور الخاص . واستطاع فضالة أن يكتسح المعاقل البيزنطية التى اعترضت طريقه حتى وصل مدينة خلقدونيا ، وأقام بها خلال فصل الشتاء الذى حل عليه بهذه المدينة^(٢) . وكانت العمليات الحربية تقف دائماً خلال هذا الفصل من السنة لشدة البرودة ، وظل طوال شتاء عام ٦٦٨/٦٦٩ م ينظم قواته انتظاراً للأمداد التى كان يعدها معاوية بن أبى سفيان فى عاصمته دمشق .

وبذل معاوية جهوداً عظيمة لإعداد القوات الإسلامية التى رغب فى إرسالها لشد أزر جيش فضالة بن عبيد الأنصارى . فجعل على رأس هذه الحملة ابنه وولى عهده يزيد . واستهدف معاوية من وراء ذلك إعطاء ابنه فرصة يعلى فيها من ذكره واسمه فى ميدان الجهاد ضد البيزنطيين ، وايرد بذلك على الأشخاص الذين أبدوا إمتعاضهم من يزيد والمحاولات التى بذلها أبوه لأخذ البيعة له بالخلافة من بعده^(٣) . إذ صورت الدعايات المعادية لبنى أمية شخصية يزيد بحبها للمجون والخلاعة ، وعدم أهليتها لتصرف شئون المسلمين . ومن ثم كان ميدان القسطنطينية خير

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٦ ، ص ١٣٠ ؛

Hitti, History of Syria, 443.

(2) Ibid, 443.

(٣) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٣٠ ؛

Lammens, Etudes Sur Le Règne du Calife Omayyade Mo, awia ler, 443,

مجال يدحض فيه يزيد افتراءات منافسيه وأعداءه ، ويعلم عن مواهبه الحربية وما اتصف به من شجاعة وإقدام .

وبلغ من اهتمام معاوية بأمر هذه الحملة وإكسابها طابع الجهاد المقدس ، أن ضم إلى ابنه شخصية كبرى من أصحاب الرسول الكريم ، ومن لعبت دوراً رئيسياً في مؤازرته وفي نصرته دعوته . إذ اختار أبا أيوب الأنصاري ، الذي استقبل الرسول في بيته بالمدينة ، وحارب إلى جانبه في غزوة بدر ليرافق يزيد في هذه الحملة . وكان الهدف من ذلك الإفادة من شخصية أبي أيوب في تقوية روح الجند المعنوية وبث الثقة في نفوسهم والتفاؤل الطيب ^(١) . وبعد أن تمّ جمع سائر الأمداد والعتاد توجهت الحملة بقيادة يزيد إلى مدينة خلقدونيا ، المقر الحربي الذي اتخذته فضالة مركزاً لإدارة دفعة الهجوم على القسطنطينية .

وعلى ضفاف البسفور انضم يزيد إلى قوات فضالة ، وعبر مياه هذا المضيق إلى الشاطئ الأوربي ، وحقّق لجنده سبقهم على أقرانهم من جند الإسلام في مشاهدة أسوار القسطنطينية ، والوقوف أمامها يدقونها بالآلاتهم الحربية ، ويعملون على تخريبها أو إحداث ثغرات فيها . وأظهر يزيد في هذا الحصار من ضروب الشجاعة والبسالة ما أكسبه لقب « فتى العرب » ^(٢) . ودونت المراجع سيرته وأعماله في هذا النضال ، وكيف حاول أن يضم إليه بعض عرب الشام المسيحيين الذين استقروا في القسطنطينية بعد استيلاء المسلمين على بلادهم . وكان معظم أولئك القوم من الغساسنة الذي فرّ زعيمهم جبلة بن الأيهم إلى بلاط البيزنطيين زمن الخليفة عمر بن الخطاب . وأبدى الغساسنة عطفهم على القوات الإسلامية وميلهم إلى تشجيعها . فقد شاهد يزيد بالقسطنطينية أثناء حضارها قبتين عليهما ثياب الديباج ، ترتفع من إحداها أصوات الدفوف والمزامير إذا أصاب المسلمون نجاحاً في هجومهم ، على حين

(1) Lammens, op cit, 445, 446.

(2) Ibid, 446; Hitti, op cit. 443.

ترتفع أصوات القبة الأخرى بالتهليل عندما ينجح البيزنطيون في صد هجمات المسلمين . فسأل يزيد عن هذه الظاهرة ، وعرف أن بالقبة المناصرة لجيوشه ابنة جبلة بن الأيهم ، وبالأخرى ابنة إمبراطور البيزنطيين ، وكل واحدة منهما تظهر السرور بما تفعله عشيرتها . وكان لذلك أعظم الأثر في نفس يزيد الذي ضاعف من مجهوداته ليرضى شعور مناصريه من الغساسنة ، وليفوز بابنة جبلة بن الأيهم ^(١) .

وامتاز هذا الحصار بصبر المسلمين وجلدهم في التضيق على سكان العاصمة البيزنطية ، حتى استشهد الجند دون خوف أو وجل . ونال هذا الشرف المقدس أبوأيوب الأنصاري نفسه الذي وافته المنية وهو يحاصر القسطنطينية ، ودفن بالقرب من أسوارها ^(٢) . ويعتبر هذا الحادث ذا نتائج كبرى في التاريخ الإسلامي ، إذ ظل قبر أبي أيوب شاهداً يجذب أنظار المسلمين دائماً نحو عاصمة البيزنطيين ، ويلهب في نفوسهم الرغبة في إعادة الهجوم عليها مراراً وتكراراً . ونال هذا القبر تكريم المسيحيين اليونانيين المقيمين بالقرب منه لاعتقادهم أنه يجلب لهم الأمطار ، وتعمدوة بالترميم والإصلاح . وقد اكتشف الأتراك العثمانيون موضع القبر عند حصارهم القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م و بنو عنده مسجداً ، وأصبح أبوأيوب ، ذلك الشيخ النقي الذي كان من أنصار المدينة ، ولياً عند المسلمين والبيزنطيين والأتراك .

وفي صيف سنة ٦٦٩ م رفع المسلمون الحصار عن القسطنطينية ، بعد أن أثبتوا للبيزنطيين أن عاصمتهم ليست بعيدة المنال عن قوات الإسلام . وعادت الحملة الإسلامية إلى دمشق تستعد لمعاودة الكرة على حصار القسطنطينية . وقد خلفت هذه الحملة ورائها نتائج بعيدة المدى في سياسة الامبراطورية البيزنطية ، إذ تولى العرش البيزنطي إذ ذاك الامبراطور قنسطنطين الرابع ، وكان كأبيه قنسطانز الثاني من ألد الأعداء للمسلمين . فآثر هذا الامبراطور أن يسير قدماً بسياسة أبيه وهي

(١) الأغاني ، ج ١٦ ، ص ٣٣ .

(2) Hitti, History of Syria, 444.

(3) Hitti. op cit, 444.

تأمين بلاده من هجوم المسلمين ، والتغلب تماماً عن المشاريع القديمة التي تهدف إلى طرد المسلمين من الشام ومصر . ووجه هذا الامبراطور عنايته بصفة خاصة إلى تقوية وسائل الدفاع عن القسطنطينية والطرق المؤدية إليها ، وإحداث تغييرات جوهرية في النظم الإدارية لامبراطوريته .

خط الدفاع البيزنطى عن القسطنطينية :

كان للحملة الإسلامية الأولى التي شنّها معاوية بن أبى سفيان على مدينة القسطنطينية أثر كبير في سياسة الأباطرة البيزنطيين ، إذ أقضت هذه الحملة مضاجعهم وجعلتهم يدركون أن مطرقة الجيوش الإسلامية قد وصلت إلى مشارف عاصمتهم نفسها ، وأن المسلمين على استعداد لاستئناف حملاتهم على هذه المدينة بشكل أعنف وأقوى مما اضطلعوا به من قبل . واتجهت سياستهم إزاء هذا النشاط الإسلامى الحربى المضطرد إلى اتخاذ كافة الوسائل الممكنة التي تجعل عاصمتهم بعيدة عن أيدي المسلمين أو عرقلة زحف الجيوش الإسلامية عليها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، أو جعلها تصل إلى القسطنطينية وقد أنهكها التعب والسكد . وبدأ الأباطرة البيزنطيون ينفذون سياستهم الجديدة في إقليم آسيا الصغرى ، الذى غدا بعد ضياع الشام ومصر أهم مورد تستمد منه الإمبراطورية الجند القادرين على القتال ، والأموال اللازمة للنهوض بمرافق البلاد والدفاع عن العاصمة^(١) . فوضعوا للدفاع عن هذا الإقليم الذى أصبح خط الدفاع الأول عن القسطنطينية نظاماً حريباً بدأت نواته الأولى تتزعزع منذ حركة الفتوحات الإسلامية الأولى على الشام ومصر ، ثم أخذت تنمو مع الزمن وتتطور بما يحقق

(1) Runciman, Byzantine, Civilisation 88 :

Byzantium, 280. 285.

الأغراض المنشودة من هذا النظام الحربى الجديد . وتداول الأباطرة البيزنطيون العناية والاهتمام بهذا النظام الجديد حتى اكتملت صورته وأوضاعه .

وظهر الاهتمام الحقيقي بهذا النظام الحربى منذ عهد الإمبراطور هرقل ، الذى نالت جيوشه هزائم ساحقة متتالية على أيدي المسلمين . إذ دفعت هذه السكوارث المتلاحقة الإمبراطور هرقل إلى إنقاذ البقية الباقية من إمبراطوريته بآسيا الصغرى باتباع نظام إدارى يحقق لها الصمود أمام زحف المسلمين ، وسد الطرق الرئيسية بها المؤدية إلى القسطنطينية . وكان هذا النظام الإدارى الجديد ثورة على الأوضاع الإدارية القديمة التى كانت تسير عليها الإمبراطورية الرومانية منذ أواخر القرن الثالث الميلادى على عهد الإمبراطور دقلديانوس . إذ قام هذا الإمبراطور بإصلاحات فى إدارة إمبراطوريته هدفت إلى الفصل بين السلطتين الحربية والمدنية فى الأقاليم الرومانية المختلفة للحد من شوكة القادة الحربيين ، وللقضاء على الحركات الانفصالية التى أخذت تسرى فى أرجاء هذه الأقاليم^(١) وظل نظام فصل السلطات الحربية والمدنية متبعاً فى أرجاء الدولة الرومانية حتى أبطله الإمبراطور جستنيان العظيم ، إذ رأى هذا الإمبراطور أن الأقاليم التابعة له ما زالت عرضة للاغارات والأخطار الخارجية رغم انتقال السلطان إلى مدينة القسطنطينية . وأيقن ألا سبيل للمحافظة على هذه الأقاليم ، ودرء الأخطار عنها إلا بصيغتها بصيغة حربية تمكنها من الدفاع عن نفسها . وطبق هذه السياسة الجديدة فى إقليم إفريقية الشمالية بعد أن طرد منها عنصر الوندال^(٢) الجرمانى ، الذى انتزع هذه البلاد من أيدي البيزنطيين من قبل . فعين على إفريقية رجلاً جمع فى يده السلطة المدنية الخاصة بتصرف شئون هذه البلاد

Vasiliev. Histoire de L' Empire Byzantin I. 76. (١)

(٢) الوندال أحد العناصر الجرمانية التى أغارت على الإمبراطورية الرومانية واقتطعت

منها شمال إفريقيا فى القرن الخامس الميلادى .

وأعمال القائد العام للجيش هناك « Magister Militum »^(١) .

واتبع جستنيان هذا النظام الجديد في ولاية أرمينيا كذلك المعرضة دائماً لهجمات الفرس . ففتح القائد العام للجيش هناك « Magister Militum Per Armeniam » سلطات مدنية إلى جانب مهامه الحربية . فصار لحاكم أرمينيا الحربي الحق في تصريف الشؤون المدنية لهذا الإقليم وتنظيم أحوال الأهالي به^(٢) . ولم تلبث الأحداث التي حاطت بالإمبراطورية البيزنطية بعد عهد جستنيان أن عملت على تقوية دعائم هذه النظم الجديدة . إذ عانت الإمبراطورية منذ أواخر القرن السادس الميلادي ، وهو القرن السابق مباشرة لحركات الفتح الإسلامي ، ضعفاً مالياً أعجزها عن الاعتماد على الجيوش المرتقة واصطفاءها بالمال ، واضطرت أمام الأخطار الخارجية المدهمة أن تعتمد على أبناء أقاليمها أنفسهم ، وتجندهم في جيوشها . ونجح هذا النظام الجديد في سائر الولايات حتى سار التجنيد وفق قواعد دقيقة متينة ، وأصبح تحت تصرف حاكم كل إقليم جيش مدرب من أبناء البلاد^(٣) .

وحارب الإمبراطور هرقل الفرس في حملاته المظفرة بجيش عبأه على النمط السالف ، أي من أبناء أقاليم الإمبراطورية . وكانت غالبية الجند من الفرق الأرمينية وفرق تراقيا والأقاليم الشرقية للدولة ، إلى جانب فرق الإمبراطور الخاصة ، (وتعرف الأخيرة بالحرس الإمبراطوري Obsequium, obsequentes)^(٤) . وبعد سقوط الشام في أيدي المسلمين ارتد جيش هرقل السالف إلى آسيا الصغرى ، التي غدت منذئذ موضع عناية الأباطرة لمواجهتها لدولة المسلمين الفتية ، لأنها أصبحت

(1) Bury, op cit II 346

(2) Ibid. 346.

(3) Byzantium, 297.

(4) Byzantium, 297.

Bury, op cit, 348.

أهم مورد تعتمد عليه الدولة في تجنيد جيوشها وتعبئة أساطيلها . ومن ثم اقتضى الدفاع عن الأراضي البيزنطية وضع آسيا الصغرى في حالة دفاع دائم ، ولا سيما بعد أن أخذت جيوش المسلمين تطرق منافذها ومسالكها متجهة لحصار القسطنطينية . فأتجه الأباطرة إلى تطبيق سياسة الامبراطور جستنيان العظيم مع إدخال تعديلات هامة تتفق والدفاع عن العاصمة .

وكان النظام الجديد الذى طبقه الأباطرة البيزنطيون على آسيا الصغرى هو توزيع فيالق من الجيش (Themata) على جهات منها تعسكر فيها بصفة دائمة . ثم منح الأباطرة الجند المقيمين في هذه الجهات قطعاً من الأرض يستغلونها ويتمتعون بخيراتها ، لترغيبهم في الاستقرار بأماكنهم وتشجيعهم على الاستمارة في الدفاع عنها . وإلى جانب ذلك منح الأباطرة قائد الفيلق في الإقليم سلطات مدنية واسعة ، وأصبحت آسيا الصغرى مقسمة إلى أقاليم حربية ، يقيم بكل منها فيلق من الجيش ، يجمع قائده بين مهام الاشراف على جنده وأعباء الحاكم المبنى^(١) . وعرف هذا التقسيم الإدارى الجديد ، الذى كانت الوحدة فيه الإقليم الحربى ، باسم نظام الأجناد أو البنود ، حيث كان لكل جند أو فيلق بند خاص أو علم كبير يميزها بعضها عن بعض^(٢) .

ونشأت بآسيا الصغرى في القرن السابع الميلادى إبان اشتداد الحملات الإسلامية على القسطنطينية ثلاثة بنود كبرى لعبت دوراً هاماً في سير العمليات الحربية . ونهى إثنان من هذه الأقاليم الحربية باسم الفيلقين الذين أقاما بها ، على حين أخذ الإقليم الحربى الثالث إسمًا جغرافيًا . فسمى الإقليم الأول باسم

(١) Runciman, op cit, 88.

(٢) ذكر المسعودى في كتابه التنبيه والاشراف ، ص ١٥٠ : أن نظام البنود أو الأقاليم الحربية أشبه بنظام الأجناد الذى انقسمت إليه بلاد الشام ، فقال « أرض الروم (البيزنطيين) واسعة في الطول والعرض ، مقسومة من قديم الزمن على أربعة عشر قسماً ؛ أعمال مفردة تسمى البنود كما يقال أجناد الشام . »

البند الأناتولى (Anatolic Theme) ، وهى تسمية ترجع إلى الفترة السابقة مباشرة لظهور الإسلام ، إذ كانت كلمة الحاكم الأناتولى — ومعناها الشرق — تطلق على القائد العالم للولايات الشرقية من الامبراطورية (Magister Militum Per Orientum) ، والتي كانت تضم سوريا وآسيا الصغرى . وعندما استولى المسلمون على الشام انسحبت الفرق الخاضعة لذلك القائد العام نحو الغرب ، واستقرت فى الجهات الواقعة شمال جبال طوروس للدفاع عن آسيا الصغرى . وتبعاً للنظام الجديد (أى نظام البنود) تلاشت سلطنة القائد الشرق العام ، ولكن اسمه ابقى بالإقليم الجديد الذى استقرت به البقية الباقية من جنوده ، وأصبح قائدها الجديد يتولى تصريف مهام هذه المنطقة فى النواحي المدنية إلى جانب رعاية فيلقه الحربى (١).

وأخذ البند الثانى اسمه من الفرق التى كونت حرس الامبراطور هرقل . وقد استقرت هذه الفرق بعد عودتها إلى آسيا الصغرى فى الجهات المحيطة ببحر مرمرة ، وعرفت باسم بند الأسيق (Opsikion — أى إقليم فرق الحرس الامبراطورى) . واختصت هذه المنطقة بالحرس الامبراطورى لمواجهة نشاط القسطنطينية ، وضرورة انتقاء الجند المدافع عنها لصد الحملات المباشرة على العاصمة . ودأبت الامبراطورية البيزنطية على تفوية هذا البند بإمداده بعناصر من جماعات السلاف التى أسرتها فى حروبها ، وعرفت بالبأس وشدة المراس . وفى سنة ٦٨٧/٦٨٨ م سهلت سبل الإقامة فى هذا البند لبعض العناصر السلافية لشد أزر الفرق الامبراطورية به . وكان هذا الإقليم الحربى يمتد من بحر مرمرة إلى مسافة كبيرة داخل آسيا الصغرى ، أقامت فى جهاته الساحلية فرق بحرية (Peratic Themes) لصد سفن المهاجمين عن العاصمة ، على حين استقر

(1) Bury, op cit, 347, 348; Vasiliev, op cit, 301

في جهاته الداخلية فرق من الخيالة (Cavallarii) لمرقلة الزحف البري^(١). وكان البند الثالث الهام في آسيا الصغرى هو بند أرمينيا ، الذي اشتمل على الأراضي المواجهة لتلك المنطقة من أرمينيا التي خضعت لسلطان المسلمين . واهتم البيزنطيون بهذا البند الرئيسى لمواجهته لبعض المنافذ التي سلكتها جيوش المسلمين في إغاراتهم الصيفية والشتوية على آسيا الصغرى ، ومحاولتها الاتصال بغيرها من القوات الإسلامية الزاحفة من الشام على القسطنطينية^(٢) .

وظهر إلى جانب هذه البنود الثلاث بآسيا الصغرى نواة بند آخر ، أخذ صورته الكاملة في مطلع القرن الثامن الميلادى بعد آخر حملة أمرية كبرى على العاصمة البيزنطية . وكان هذا الإقليم الحربى الصغير يعرف ببند كبير (Kibyrrhaitoi) . وظهر نشاطه المبكر أثناء سير السفن الإسلامية بالقرب من ساحل آسيا الصغرى وجزر بحر إيجه لمعاونة الحملات الإسلامية البرية في حصار القسطنطينية . واشتمل هذا الإقليم على الجهات الساحلية من آسيا الصغرى وجزر بحر إيجه ، التي استمدت الامبراطورية البيزنطية منها خيرة بحارتها وأساطيلها . واسكن إزاء حملات المسلمين اتسع نشاط هذا الإقليم ، واضطرت الامبراطورية البيزنطية إلى تقسيمه قسمين ، الأول يضم الجهات الساحلية الجنوبية ، والجنوبية الغربية من آسيا الصغرى واحتفظت بالاسم القديم أى بند كبير . أما القسم الثانى فعُداً بحداً بحرياً جديداً يضم جزر بحر إيجه ، ويعرف بالبند الايجى^(٣) .

ونظمت السلطات البيزنطية وسائل التعاون والنشاط البحرى بين هذين البندين بما يحقق الدفاع عن القسطنطينية . فكان لكل بند منهما أسطول خاص عليه أمير بحر (Drungarius) يشرف عليه . واسكن خضع هذان الأسطولان لسيادة أمير البحر العام المهيمن على الأسطول الراسى بمياه القسطنطينية ، وكان هذا

(1) Bury, op cit, 348, 349.

(2) Bury, op cit, 341, 342.

(3) Ibid, 342.

القائد (Strategus of the Carabisiani) يزود معاونيه بالتعليمات ، ويرسم لهم الخطط اللازمة لمواجهة أى عدوان تتعرض له العاصمة ⁽¹⁾ .

وكان ذلك الركن من الشاطئ الأوربي المواجه لآسيا الصغرى ، والذي تقع عليه مدينة القسطنطينية ، ينتظم بنداً قائماً بذاته ، وإن كان يعتمد في الدفاع عن نفسه على بنود آسيا الصغرى السالفة . وهى البيزنطيون لهذا الإقليم سبل الدفاع عنه ، بما يمكنه من الصمود طويلاً أمام أى حصار أو هجوم كبير . فنظموا موارد الغذائية وكيفية الحصول عليها ، لأنها العمود الفقري في مقاومة السكان المهاجمين . وكانت هذه المؤن تأتي إليه من اليونان وجزر بحر إيجه ، ومن سهول القمح الواقعة على شواطئ البحر الأسود الشمالية . وقد عرف المسلمون هذه الحقيقة وأدركوا أن قطع الأمداد والمؤن عن إقليم القسطنطينية ، هو الهدف الذى يجب أن يصلوا إليه ليصيبوا من عاصمة البيزنطيين مقتلاً .

حرب السنوات السبع (٥٤ — ٦٠ هـ / ٦٧٤ — ٦٨٠ م)

فى الوقت الذى جهدت فيه الإمبراطورية البيزنطية على إعادة تنظيم أحوالها الإدارية ، وتدعيم نظام البنود ، أو الأقاليم الحربية ، بعد أن أحست وصول يد المسلمين القوية إلى أسوار عاصمتها ، صمم معاوية بن أبى سفيان على إعداد حملة ثانية لتقويض دعائم البيزنطيين . فاستهدف الاستيلاء على عاصمتهم ، قبل أن تفيق دولتهم من حالة الفوضى والفاق التى سادتها ، حيث كانت تجتاز مرحلة انتقال من عهد العظمة والتوسع إلى عهد الانكماش والانطواء . فبعث فى سنة ٦٧٣م حملة بقيادة عبدالرحمن بن خالد إلى القسطنطينية ، يؤازرها أسطول بحرى . وحل فصل الشتاء والقوات الإسلامية فى طريق زحفها عبر آسيا الصغرى ،

(1) Runciman, op cit, 150; Byzantium 304.

فألقت السفن مراسيها على شاطئ، قبلقيا حتى يتحسن الجو ويصبح ملائماً لاستئناف السير^(١).

وبمطلع الربيع عززت قوات خالد البحرية بوصول أسطول إسلامي آخر، واستأنفت القوات جميعها الزحف على القسطنطينية. وفي شهر إبريل اجتاز الأسطول الإسلامي مضيق الدردنيل دون أن يلقى مقاومة من البيزنطيين، إذ كانت البنود البحرية لا تزال في دور التكوين، عاجزة عن الصمود أمام سفن المسلمين الفتيمة. وفي نفس الوقت كانت الجيوش الإسلامية البرية قد اجتازت آسيا الصغرى في سهولة ويسر لاضطراب أحوال بنودها البرية، وتفشى النزاع والتباغض بين قادتها^(٢).

واستولى المسلمون على جزيرة كزيكوس (أرود) في مياه القسطنطينية واتخذوها مقراً لإدارة حملتهم على العاصمة. فكانت الأساطيل الإسلامية تنقل الجنود من هذه الجزيرة إلى البر المحاصرة أسوار القسطنطينية، على حين يكمل الأسطول حلقة الحصار بأن تقف سفنه بين رأس هبدومون (Hebdomon) التي تبعد سبعة أميال عن أسوار المدينة، وبين رأس كيكلوبيوس (Kyklobios) الواقعة بالقرب من باب الذهب. واستمر الحصار البري والبحري للقسطنطينية من شهر إبريل إلى سبتمبر، تتخلله مناوشات بين أساطيل وجنود المسلمين والبيزنطيين. وجرت خطة الحصار على اصطدام بين سفن المسلمين والبيزنطيين من الصباح إلى المساء، على حين تترشق القوات البرية الإسلامية مع الجند البيزنطي المرابط على أسوار القسطنطينية بالقذائف والسهم^(٣).

واستطاعت المدينة أن تصمد أمام الحصار طيلة هذا الوقت لأن الإمبراطور

(1) Bury, op cit II, 310.

(2) Ibid, 310

(3) Bréhier, Vie et mort de Byzance, 63.

Bury, op cit, 310,

البيزنطي قسطنطين الرابع ملاً مخزائنها بالمؤن والعتاد ، وأصلح أسوارها قبل هجوم المسلمين بزمان يسير . على أن المسلمين أظهروا من المثابرة والجد ما أثار قلق سكان القسطنطينية . إذ في شهر سبتمبر عادت السفن والجند الإسلامي إلى مقرها بجزيرة كز يكوس ، تقضى بها فصل الشتاء وتنتظر تحسن الأحوال الجوية لإعادة الحصار على المدينة . وبمطلع الربيع عادت السفن الإسلامية محملة بالجند لحصار القسطنطينية براً وبحراً على النحر السالف ، وأذاقت حاميات المدينة أشد أنواع الضنك والأزهاق . وقد اقتصرَت العمليات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين على الربيع والصيف فقط طيلة السنوات السبع التي استغرقتها عملية حصار القسطنطينية في هذه المرة الثانية ^(١) .

وهذا الجهاد الإسلامي الرائع في حرب السنوات السبع يقلل من الإشادة بالنار البحرية التي استعملها البيزنطيون لأول مرة أثناء هذا الحصار . إذ تذكر المراجع الأوربية أن البيزنطيين جهزوا سفناً مزودة بآلات خاصة تقذف نوعاً من النار لا يطفئها الماء ، وإنما يزيد لها اشتعالاً ، واستطاعوا أن يحرقوا كثيراً من السفن الإسلامية بهذا السلاح الجديد . على أن هذا السلاح لم يثن المسلمين عن غزيمهم ، ولم يفت في عضدهم ، أو يبعث في نفوسهم القنوط ، إذ تابعوا الحصار كلما تهيأت لهم العوامل الطبيعية من اعتدال المناخ أثناء الربيع والصيف .

وساهم كثير من قادة الأمويين في إدارة عمليات هذا الحصار ، خلف القائد عبد الرحمن بن خالد شخصية أخرى كبيرة ، وهو سفيان بن عوف . واشترك ولي العهد يزيد بن معاوية في حصار القسطنطينية كذلك ، حتى أن هذه الشخصيات الهامة ألهمت روح الجند الإسلامي حماساً ، وشجعت على متابعة النضال طيلة السنوات السبع . ولكن في نهاية تلك الفترة أحس معاوية بن أبي سفيان دنو أجله ، وأن صالح الدولة الإسلامية العام يحتم سحب قواته المرابطة أمام القسطنطينية .

(1) Brehier, op cit 63.

وهكذا كان معاوية ثاقب النظر كذلك في أيامه الأخيرة حين اتخذ هذا القرار الهام ، إذ أحس أنبيعة ابنه يزيد^(١) لا بد أن تلتقي مقاومة فعالة حين تؤول مقاليد الدولة الإسلامية إليه ، وأن المحافظة على الخلافة في بيته تحتم وضع أكبر قوات ممكنة تحت تصرف يزيد لمواجهة ما قد ينشأ من مصاعب طارئة . ومن ثم دخل معاوية في مفاوضات مع الدولة البيزنطية تمهيداً لسحب قواته المحاصرة للقسطنطينية وإعادتها إلى قواعدها بالشام .

وكانت الدولة البيزنطية تتلطف لإنهاء حالة الحرب مع الدولة الإسلامية ، إذ أرسلت إلى دمشق رجلا يدعى يوحنا ، من أشهر رجالها الدبلوماسيين وأكثريهم ذكاءً وفطنة . وحضر هذا الرجل جلسات كثيرة تضم خيرة أبناء البيت الأموي ، وأبدى فيها من الإجلال للدولة الإسلامية ما أكسبه تقدير معاوية واحترامه . ونجحت مفاوضاته في عقد صلح بين الطرفين مداه ثلاثون سنة^(٢) . وبعد إبرام المعاهدة أخذت القوات الإسلامية المراقبة براً وبحراً أمام القسطنطينية تلم شملها للعودة إلى الشام ، وتركت عاصمة البيزنطيين تثن من جراحها الممحنة .

النار البحرية :

يظهر من ثنايا الحوليات البيزنطية ، ومن المراجع الأوربية التي اعتمدت عليها ، أن أهم عامل أنقذ القسطنطينية من حصار المسلمين لها هو ظهور اختراع أثناء فترة حرب السنوات السبع يعرف بالنار البحرية^(٣) . ولكن أحداث الحصار الإسلامي

(١) اتجه معاوية إلى أخذ البيعة لابنه يزيد بتحريض المغيرة بن شعبة . وفي سنة ٥١ هـ خرج معاوية إلى الحجاز وجهد على أخذ مبايعة أهله لابنه ، بعد أن قال رضاء أهل العراق والشام . وقد بايع أهل الحجاز يزيد تحت تهديد معاوية . ولكن أبي الحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، مبايعة يزيد . وبذلك كان الموقف الذي ينتظر يزيد قلقاً .

(2) Bury, op cit II, 312; Gibbon, op cit II, 701.

(3) Bury, op cit II, 311, Brehier, op cit, 63.

لمدينة القسطنطينية تبين بجلاء أن هذا السلاح الجديد ليس العامل الأول في تمكين القسطنطينية من الصمود أمام القوات الإسلامية ، وإنما ترجع حصانة المدينة إلى موقعها الجغرافي وطبيعة التيارات المائية التي تحيط بجهااتها الساحلية . على أن قصة النار البحرية أعجبت مؤرخى الدولة البيزنطية ، لأنها شأن كل سلاح جديد اجتذبت أنظارهم ، ولا سيما أنها جاءت في فترة كانت دولتهم وعاصمتها يعانيان من ألوان الضنك والمتاعب ما جعلهم يشيدون بأى سلاح يخفف عنهم الويلات التي حلت بهم .

وتنسب الروايات اكتشاف هذه « النار البحرية » إلى رجل من مواطنى مدينة هليوبوليس بالشام ، هاجر إلى القسطنطينية عندما سقط هذا الإقليم في يد المسلمين^(١) . وكان هذا الرجل ممن حذقوا أعمال الهندسة والكيمياء واستطاع أن يصل إلى اختراعه في الفترة التي كان المسلمون يحاصرون فيها القسطنطينية ، مما جعل الدولة البيزنطية تتلهف عليه وتستخدمه في الدفاع عن عاصمتها . وأطلق على هذا السلاح اسم « النار البحرية » لأنها استخدمت ضد السفن في البحار ، وعلى الجند في البر ، ولم تطفئها المياه التي لجأ إليها المسلمون في أول الأمر ، وإنما زاد اشتعال النار كلما ألقى عليها الماء . وسميت هذه النار كذلك « بالنار الإغريقية » نسبة إلى الإغريق وهم البيزنطيون . وتعزى هذه التسمية الأخيرة إلى أن البيزنطيين استطاعوا الاحتفاظ بسر هذا السلاح فترة طويلة ، إلى نهاية القرن العاشر الميلادى ، ولصق اسمهم بهذه النار دليلا على احتكارهم لها .

وتناول الكتاب فى القرن العاشر وصف العناصر التي تكونت منها هذه النار ووسائل إخمادها . فذكر أحدهم « إذا أخذت كبريت نقى مع حامض الطرطريك والصمغ الفارسى والقار الخلام والفترات ثم مزجت الخليط معاً ، وغمست فى هذا الخليط نسيج الكتان ، ثم أشعلت فيه النار انتشر اللهب

(1) Gibbon, op cit II, 796.

في الحال . ويغطي هذه النار الرمل فقط أو الخلل . « . وتطور هذا السلاح فيما بعد وظهر منه نوع أشبه بالمفرقات . وكانت تتكون من وحدات ، كل منها تحوى رطلا من الكبريت المسحوق مع رطلين من الفحم البلدى وست أرطال من نترات البوتاس (ملح البارد) ، ثم يوضع المزيج في غلافات طويلة ضيقة محكمة ، أشبه بالخرطوشة ، تغطى فتحتها بسلك حديدى . وتشعل هذه الأنابيب وتقذف في الهواء بواسطة مجانيق ، ويسمع لها انفجار مدوى يصحبه دخان كثيف مسبق بلهب خاطف^(١) .

وكانت النار التي يلقيها الجند من أعلى الأسوار ، عبارة عن كرات من الحجر أو الحديد بها المزيج السالف ، ثم تحمى بالنار . وأحيانا تغطى الكرات بنسيج الكتان المشرب بزيت مغلى ، ثم يشعل فيها النار عند إطلاقها . وأما النار التي استخدمت في الحرب البحرية ، فكانت عبارة عن أنابيب طويلة من النحاس تقذف من مقدمة المركب . وكانت توضع على مقدمات السفن تماثيل تصور مناظر الأسود وغيرها من الحيوانات الضارية ، ينبعث من أفواهها النار التي تلقى على سفن الأعداء^(٢) .

وأمدت الإمبراطورية البيزنطية حلفائها بهذا السلاح من المفرقات أو السفن المجهزة بقذائف النار البحرية ، دون أن تطلعهم على سر تركيبها . فكانت أهم الوصايا التي يلقيها الإمبراطور لولى عهده حين يعده لتولى مقاليد الأمور ، هي الاحتفاظ بسر صناعة هذه النار ، وألا يشير إليها في مؤلفاته بما قد يكشف عن خواصها ، وإنما يقصر قوله عنها بأنها من وحى الله وإلهائه . ونفذ الأباطرة هذه الوصية بعناية مدى أربعة قرون حتى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى ، إذ استطاع المسلمون بأبحاثهم الكيميائية ومشاربهم أن يعرفوا هذا السلاح ، وأدخلوا عليه

(1) Bury, op cit II, 319; Oman, History of war II, 46, 47.

(2) Gibbon, op cit, 797.

من التعديلات ما جعله أشد فتكاً وأقوى أثراً من النار الأخريرية^(١).

واستخدم المسلمون هذه النار الجديدة في الحروب الصليبية ، التي دارت رحاها بأرض الشام ، كأنما أرادوا أن يثبتوا مقدرتهم على النهوض بتراث الأمويين الحربي ، الذي خلفوه بدمشق عروس إقليم الشام ، والتي واجهت جيوشها النار الأخريرية لأول مرة في التاريخ الإسلامي . فكانت النار التي قذفها المسلمون مثار رعب وفزع في قلوب أعدائهم ، ولم يستطع الصليبيون رغم تظاهرهم بالشجاعة والبأس إخفاء زعرهم من هذه النار ، إذ وصفها أحدهم قائلاً « انطلقت النار عينا أشبه بتنين ذي جناحين طويلين ، رأسه تقرب من رأس السكب ، وكانت مصحوبة بصوت أشبه بالرعد ، وبضوء أشبه بالبرق الخاطف ؛ وتبدد الظلام فجأة بهذا النور القاتل^(٢) » .

وغدت هذه النار تنسب إلى المسلمين وتدعى « بالنار الإسلامية » ، لأن الأعداء عجزوا عن معرفة سر هذا السلاح الجديد الذي احتضنه المسلمون . وظل استخدام النار الإسلامية سائداً حتى القرن الرابع عشر الميلادي ، حيث دخلت عليها تطورات وتعديلات كثيرة أدت أخيراً إلى صناعة البارود . ومن ثم تعتبر النار الإسلامية أساس هذا الانقلاب الخطير في أساليب الحرب التي عرفها العالم الحديث . وبرهن المسلمون على أنهم لا يقفون مكتوفي الأيدي أمام أي سلاح جديد يفاجئهم به الأعداء ، وأنهم قادرون على استغلاله فيما بعد لما فيه صالحهم ونفعهم .

(1) Gibbon. op cit 797.

(2) Ibid, 798 ; Oman, op cit II 47, 48.

بنو مروان والقسطنطينية

تدعيم البيت الأموي :

بعد عودة القوات الإسلامية من حصار القسطنطينية المعروف بحرب السنوات السبع ، انفجرت بعض الأحداث في جوف العالم الإسلامي كان لها أبعاد الأثر في مجرى الحرب مع الامبراطورية البيزنطية . إذ توفي الخليفة معاوية بن أبي سفيان تاركاً لابنه يزيد عرش الخلافة ينازعه فيه كثير من كبار رجال الدولة الإسلامية . ومن ثم وقفت حملات المسلمين على أراضي الدولة البيزنطية فترة مدتها خمسة عشر عاماً ، صرفها أبناء البيت الأموي في تدعيم سلطانهم على العالم الإسلامي وتأمين أحواله الداخلية . إذ انقسمت الدولة الإسلامية على عهد يزيد إلى ثلاثة أجزاء تقريباً ، وهي الشام الباقية على الولاء لبني أمية ، والعراق حيث كانت الحركة لإقامة خلافة علوية ، وبلاد العرب نفسها التي كانت تريد إقامة خليفة عربي منتخب وفق نظام الشورى .

واستطاع يزيد أن يضم العراق إلى إقليم الشام بعد معركة كربلاء ، ومقتل الحسين بن علي بن أبي طالب فيها ^(١) . إذ انهضت آمال أهل العراق في إقامة خلافة علوية ، ودخلوا في البيعة لبني أمية مرة أخرى . ثم اتجه يزيد بعد ذلك إلى إقليم الحجاز الذي نادى بخلافة عبد الله بن الزبير ، ورفض إعلان ولائه لبني

(١) رفض الحسين أن يبايع يزيد بن معاوية سنة ٦٨٠ م ، واستجاب لدعوات أهل العراق الذين أعلنوا أنه الخليفة الشرعي . وذهب الحسين قاصداً الكوفة على رأس قوة صغيرة من ذوي قرياه . ولكن حاكم العراق الأموي عبد الله بن زياد سد الطريق في وجه الحسين . وفي العاشر من محرم سنة ٦١ هـ / ٢٠ أكتوبر سنة ٦٨٠ م أحاطت قوة الأمويين الكبيرة باتباع الحسين عند كربلاء التي تبعد ٢٥ ميلاً إلى الشمال الغربي من الكوفة . وأسفرت المعركة عن قتل الحسين وكثير ممن معه . ولكن جاءت هذه الحادثة وبالا فيما بعد على بني أمية ، إذ غذت روح التذمر ضدهم حتى سقطت دولتهم آخر الأمر .

أمية . وكانت ثورة عبد الله بن الزبير من أخطر المشاكل التي واجهها يزيد ابن معاوية بن أبي سفيان . إذ لم يستطع القضاء عليها ، وتوفى تاركا ابن الزبير يسيطر سلطانه على إقليم العراق مستهدفا ضم سائر العالم الاسلامي تحت رايته . وتوالى الأزمات على البيت الأموي بعد وفاة يزيد ، إذ بينما عبد الله بن الزبير يوسع دائرة نفوذه تولى عرش الخلافة الأموية بالشام ابن يزيد ، ويدعى معاوية الثاني . وكان حدثا ضعيفا غير قادر على مواجهة الموقف الدقيق الذي حاط بالبيت الأموي . فلم تلبث عوامل النزاع أن انتشرت بين القبائل العربية المقيمة بالشام ، وانقسمت إلى فريقين متناضلين ؛ اليمينيون أو عرب الجنوب ومن أشهرهم قبيلة كلب ، والقيسية أو عرب الشمال . وعجز معاوية الثاني عن السيطرة على الموقف ، وأصبح البيت الأموي مهدداً بالزوال على عهده .

وكان لهذه الأحداث أثر كبير في نفوس رجال البيت الأموي ، فأجمعوا رأيهم على إبعاد الفرع السفيفاني عن تولي مقاليد الأمور حيث أصبح مفتقراً إلى الشخصيات الجديرة بمنصب الخلافة . ووقع اختياراً أبناء البيت الأموي على أحد كبار رجالهم وهو مروان بن الحكم ، وكان مقيماً بدمشق منذ وفاة يزيد . وبادر أتباع مروان إلى مبايعته بالخلافة في الجابية (ذي القعدة سنة ٦٦٤هـ / ٦٨٤م) . وتعتبر هذه البيعة حداً فاصلاً بين عهدين من البيت الأموي ، إذ انتقلت الخلافة نهائياً من الفرع السفيفاني إلى الفرع المرواني (من أبناء مروان بن الحكم) .

واشتهر مروان رغم شيخوخته بالدهاء والبراعة في تهيئة الأمر لنفسه ولأبناءه من بعده . فاستمال إليه خالد بن يزيد ، بأن وعده بولاية العهد ، ثم كسب مع هذه الشخصية كذلك خال يزيد وهو حسان بن مجدل زعيم قبيلة كلب . وكان لهذا التحالف أثر كبير في المحافظة على البيت الأموي ، إذ كان انضمام عرب الجنوب إلى مروان عاملاً قوياً شدد أزره ضد القيسة ، التي كان زعيمها

الضحاك بن قيس الفهري ، قد نصب نفسه والياً على دمشق من قبل عبد الله ابن الزبير^(١) . فسار مروان على رأس حلفائه إلى دمشق ، وخرج القيسيون للقاءه في سهل مرج راهط شمال شرقي المدينة . وكان النصر حليف مروان في هذه المعركة ، وأضحت الشام مرة أخرى وحدة تابعة لبني أمية تحت إمرة مروان ابن الحَكَم .

وقضى مروان النبقية الباقية من حياته في التمسك بالخلافة في سلالة بدلاً من الفرع السفلي . فاستطاع بعد عدة مفاوضات إقناع ابن يزيد بالتنازل عن حقه في الخلافة لابنه عبد الملك ، وضمن بذلك انتقال الخلافة الأموية إلى بيته نهائياً . ويعتبر ظهور هذا البيت الجديد من أهم العوامل التي أكسبت الدولة الإسلامية قوة وحيوية ، وبعثت فيها نشاطاً حريزاً رائعاً ، كانت آيته عبد الملك ابن مروان .

ويعتبر عبد الملك صورة حية لما تتمتع به بنو أمية من نشاط وذكاء وروح الشجاعة . إذ سار على نهج السياسة العامة التي اتبعها معاوية مؤسس الفرع السفلي وهي تدعيم الجبهة الداخلية للدولة الإسلامية لتتفرغ للبيزنطيين أعداء المسلمين ، مما ينهض دليلاً على اهتمام الفرع المرواني بمتابعة سياسة أسلافهم من بني سفيان في الدفاع عن أرض الإسلام وإعزاز كلمة المسلمين . وجهد عبد الملك على أن يحيط نفسه بكافة الوسائل التي تكفل له تحقيق أهدافه في توحيد القوى الإسلامية

(١) لما قتل الحسين نادت الحجاز بخلافة عبد الله بن الزبير . فأسرع يزيد بإرسال حملة تأديبية ضد أهل المدينة بالحجاز . وقد انتصرت هذه الحملة ، ثم اتجهت إلى مكة وحاصرتها ، حيث التجأ بها عبد الله بن الزبير . ولكن مات يزيد أثناء الحصار ، فرفعت الحملة الأموية الحصار وعادت إلى دمشق . وتلا موت يزيد فترة اضطراب زاد فيها نفوذ ابن الزبير ، إذ نادت به العراق خليفة كذلك ، وبعض أجزاء من الشام ، حيث أقام ابن الزبير زعيم حزب القيسية الضحاك ابن قيس الفهري والياً على دمشق من قبله . ولكن انتصار مروان على حزب القيسية وأخذه بالخلافة مهد للقضاء على ثورة ابن الزبير . إذ استطاع ابنه عبد الملك أن يطيح بابن الزبير بفضل الحجاج بن يوسف الثقفي . وكانت ثورة ابن الزبير قد استغرقت تسع سنوات .

جميعها . فقد هدت مع الامبراطورية البيزنطية في مستهل حكمه ، حيث كانت الجيوش البيزنطية تقوم بإغارات على حدود الشام الشمالية ، منتهزة فرصة انشغال المسلمين بمشاكلهم الداخلية . واشترى عبد الملك هذه الهدنة بدفع مبلغ معين للبيزنطيين ، يعتبر تافها إلى جانب المشاريع التي حققتها فيما بعد لدولة المسلمين في ظل الهدوء والاطمئنان . ولم تكن سياسة شراء السلم بالمال مما يميم الخلفاء الأمويين ، حيث برهنوا على أنهم استهدفوا من وراءها مصلحة أرض الإسلام ، لا عن خوف وخنوع .

وكرس عبد الملك جهوده ضد ثورة عبد الله بن الزبير التي كادت تفهم عرى الوحدة الإسلامية . فتقضى على مصعب أخى عبد الله بن الزبير ، وكان ينشر الدعوة لأخيه بإقليم العراق . ثم وجه بعد ذلك إلى إقليم الحجاز ، الذي أقام به عبد الله ابن الزبير نفسه ، شخصية من أعظم الشخصيات الموالية للبيت الأموي وهو الحجاج ابن يوسف الثقفي^(١) . واستطاع هذا القائد الأموي أن يعيد إقليم الحجاز إلى التبعية لبني أمية بعد مقتل ابن الزبير عام ٦٩٢ م . وكان لهذا الانتصار الأموي أثر كبير على مجرى العمليات الحربية الإسلامية فيما بعد . إذ هاجر كثير من مسلمي الحجاز إلى الشام لينضموا إلى حملات الأمويين المظفرة ، التي كانت تعد مرة أخرى لاستئناف الجهاد ضد البيزنطيين .

عبد الملك بن مروان ومستقبله الثاني :

شاهد عام ٦٨٥ م ارتقاء حاكمين جديدين عرش الدولة الإسلامية والامبراطورية البيزنطية ، وارتبط بعهديهما تجدد الصراع الإسلامي البيزنطي ،

(١) كان الحجاج بن يوسف الثقفي معلم صبيه في مدينة الطائف بالحجاز . وقد انضم إلى بني أمية وساعدهم في القضاء على ثورة ابن الزبير سنة ٦٩٢ م . ثم عينه عبد الملك بن مروان والياً على العراق الذي اشتهر أهله بالتمرد على الأمويين . واستطاع الحجاج ان يقبض بيد من حديد على هذا الاقليم ، ونشر الهدوء في سائر أرجاءه . وقام بفتوحات جليلة في بلاد ماوراء النهر من مقر ولايته الجديد .

واستئناف الجهود الإسلامية لإذلال عاصمة البيزنطيين . وكان هذان الحاكمان على طرفي نقيض ، فالأول وهو عبد الملك بن مروان أريب متزن ، يقلب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، وخبير بأحوال العالم الإسلامي ، وبصير بالطرق التي تكفل له الزعامة والغلبة على الامبراطورية البيزنطية . والحاكم الآخر هو جستنيان الثاني نزق أحمق ، يفتقر إلى تفهم شئون امبراطوريته وما يكفل لها الاستقرار^(١) .

وتردد صدى ما اتصف به كل من عبد الملك بن مروان وجستنيان الثاني من صفات حين تجدد الاصطدام بين دولتيهما (١) إذ ابتدأ جستنيان بالعدوان على أراضي الدولة الإسلامية مفتعلاً بشغف عبد الملك بالثورات الداخلية ، وخلا مناطق التخوم الإسلامية من القوات المراقبة بها . واعتمد جستنيان في هذا الهجوم على جماعة المردة المقيمين في جبال اللكام ، وكانوا دائماً وكلاء يعملون على تنفيذ أغراض الدولة البيزنطية في الأراضي الإسلامية . وكان جستنيان الثاني يهدف من إغارات الجراجمة أو المردة إزهاق الدولة الإسلامية في فترات اضطرابها ، (دور الالتجاء إلى خرق المعاهدة التي سبق أن عقدها معه عبد الملك بن مروان في مطلع حكمه . ولكن عبد الملك آثر القضاء على حركة الجراجمة نهائياً باتباع سياسة المسالمة . ومعتمداً على قصر نظر جستنيان الثاني . إذ دخل في مفاوضات لتجديد المعاهدة السالفة ، وأضاف إليها تعهد الإمبراطورية البيزنطية بإبعاد الجراجمة عن مناطق التخوم الإسلامية مقابل دفع ١٠٠٠ دينار سنوياً^(٢) .

وتعتبر هذه المعاهدة من أعظم الخطوات الدبلوماسية نجاحاً ، والتي تفوق بها عبد الملك بن مروان أثناء انشغاله بمشاكله الداخلية على الامبراطورية البيزنطية . وكان لها صدى بعيد فيما بعد حين تجدد النزاع الحربي بين المروانيين والبيزنطيين . إذ رأى الامبراطور البيزنطي في الحصول على ذهب الدولة الإسلامية مقابل إبعاد

(1) Bury, op cit II, 320.

(2) Bury, op cit II, 302

الجراجمة ، رمزاً لعظمته دون أن يدرك ما يمكن وراء هذا العمل من أخطار جسيمة
موقوف تحقيق بدولته . وبدأ جستنيان فعلاً بنقل ١٤٦٠٠٠ من الجراجمة إلى
رومانيا، على حين ذهب بعضهم إلى تراقيا ، وتشقت البقية الباقية منهم داخل
آسيا الصغرى (١) .

وبذلك كسب عبد الملك جولة هامة في علاقاته مع الامبراطورية البيزنطية ،
وبرهن على أنه خبير بأحوال أعداءه كذلك . إذ كان جستنيان الثاني مستعداً
لقبول فكرة نقل الجراجمة مقابل مبلغ زهيد . فالدولة البيزنطية نظرت دائماً
إلى الجراجمة نظرة شك وريبة ، رغم ما قاموا به من خدمات ضد الدولة الإسلامية
منذ أيام معاوية بن أبي سفيان . إذ كان أولئك الجراجمة على المذهب المونوفيزيقي
البغيض لدى الأباطرة البيزنطيين ، وجاء جستنيان الثاني وحكم نزواته وحبه للصال
وأبعد الجراجمة إلى الأبد ، وحطم بذلك هذا « الستار الحديدي » (٢) ، على حد قول
المراجع البيزنطية ، والذي وقف دائماً في وجه الجيوش الإسلامية . وأثبت
عبد الملك من ناحيته علو كعبه في السياسة على الامبراطور جستنيان الثاني .

وسرعان ما تبين الامبراطور جستنيان الثاني خطأ تسيته الجراجمة ، واحتياج
الدولة لهم حين تجددت إغارات الجيش البيزنطي بأناتوليا على أراضي الحدود الإسلامية.
إذ أدرك ضرورة سد الثغرة التي أحدثها نقل الجراجمة ، وعول على وضع عناصر
جديدة ذات بأس وشدة في الأماكن المعرضة للخطر ، لحمايتها على نحو ما فعل
الجراجمة من قبل . واتجهت أنظار جستنيان الثاني نحو العناصر السلافية الضاربة
في أطراف البلقان . وكانت الدولة البيزنطية تدفع لهم ضريبة سنوية مقابل احتفاظها
بالهدوء والسكينة في الأراضي البيزنطية التي استقروا بها . ورأى جستنيان الفرصة
مواتية للتخلص من التزاماته المالية والمجور على هذه العناصر وأخذ عدد كبير

(1) Bury. op cit 321.

(2) Ibid, 321.

منها أسرى لإحلالهم محل الجراجمة . ونجح في مهاجمة العناصر السلافية المقيمة بالقرب من سالونيك وجمع عدداً كبيراً سملهم معه إلى آسيا الصغرى ^(١) .

ووزع الامبراطور جستنيان الثاني العناصر السلافية على أشد جهات آسيا الصغرى عرضة لهجمات المسلمين ، والتي كانت تقع على طريق زحفهم صوب القسطنطينية . فكون منهم فرقة كبرى بلغت ٣٠.٠٠٠ جندي ، وجعل مقرها الرئيسي في المنطقة المطلة على الدردنيل ، والتي عرفت إذ ذاك ببند أوبسيكيون (Opsikion) أو بند الفرق الامبراطورية ^(٢) . وكانت هذه المنطقة محط رحال القوات الإسلامية حيث جهدت على إقامة نقط ارتكاز لها هناك قبل عبورها المياه لحصار القسطنطينية . وأراد جستنيان بعد ذلك شد أزرجاعات السلاف بنقل عدد كبير من أهالي جزيرة قبرص إلى بند الأوبسيكيون أيضا . وكانت خطوته تحمل في طياتها الكثير من العسف والعنت ، إذ واجهت السفن التي تقل أهالي قبرص عاصفة عاتية أغرقت الكثيرين ، ولم ينج إلا القليل عاد أدراجه إلى جزيرة قبرص ^(٣) .

استئصال الجهاد ضد البيزنطيين :

ولكن سرعان ما حدث الانفجار بين عبد الملك بن مروان وجستنيان الثاني حول مسألة القراطيس ، أو الورق الذي كانت تستورده الامبراطورية البيزنطية من الدولة الإسلامية ، وتدفع مقابل ذلك دنانير بيزنطية ، كانت العملة السائدة في البلاد الإسلامية . وكانت مصر هي القطر الذي يصدر القراطيس للدولة البيزنطية منذ تبعيتها لها قبل الفتح الإسلامي . وجرت عادة أقباط مصر على كتابة اسم المسيح وعبارة التثليث في رؤوس الطوامير أو قطع الورق الكبيرة .

(1) Bury, op cit II, 336.

(2) Bury, op cit II, 323.

(3) Ibid, 323.

واسكن عبد الملك بن مروان رأى أن هذه الصيغة لا تتفق ومظهر الدولة الإسلامية الجديدة . فأمر أن يستبدل بهذه الصيغة عبارة « قل هو الله أحد »^(١) .
ووصلت هذه القرايطيس الجديدة إلى الإمبراطورية البيزنطية وأحدثت ضجة كبرى في البلاط البيزنطي ، إذ غضب الإمبراطور جستنيان الثاني واستكبر قيام الدولة الإسلامية بهذا العمل الجديد . فكتب إلى الخليفة عبد الملك « إنكم أحدثتم في قرايطيسكم كتاباً نكرهه ، فإن تركتموه ، وإلا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه »^(٢) وأغضب هذا الخطاب الخليفة عبد الملك كثيراً ، وخشى اضطراب أحوال العملة بسبب تهديد الإمبراطور البيزنطي ، وما قد تحدثه من أثر سيء في نفوس عامة المسلمين ، إذ أن الدنانير البيزنطية كانت العملة الرسمية للتجارة في الأسواق الإسلامية ومع الدول الخارجية .

واسكن هذه الأزمة أثبتت قوة التعاون والتآزر بين أفراد البيت الأموي جميعاً ، وتفانيهم في العمل على عزة المسلمين . إذ أشار خالد بن يزيد على الخليفة عبد الملك بالتمسك بالقرايطيس الجديدة دون أن يخشى تهديد البيزنطيين ، فقال : « يا أمير المؤمنين حرم دنائيرهم فلا يتعامل بها ، واضرب للناس سككاً ، ولا تعف هؤلاء السكفرة مما كرهوا في الطوامير »^(٣) . وجاء هذا الحل بلسماً شافياً للخليفة ، ورأى أنه يصلح خطوة أساسية لصنع الدولة الإسلامية بصيغة عربية ، وخلق وحدة اقتصادية في العملة خاصة بها .

وأقبل عبد الملك على سك دنائير إسلامية جديدة عليها آيات من القرآن ، وعرفت باسم الدنانير الدمشقية^(٤) . وخلّص عبد الملك بذلك الدولة الإسلامية من ربة العملات الأجنبية التي كانت متداولة فيها منذ زمن بعيد . إذ كانت دنائير

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٤٩ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .

(٣) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٤٩ .

(٤) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٤٧١ .

بيزنطة ترد إلى بلاد العرب منذ الجاهلية ، وتعتبر العملة الأساسية في المعاملات التجارية الكبرى ، على حين يستخدم الدرهم الفارسي في المعاملات المحلية . وظل أمر العملة الأجنبية معلقاً في الشؤون التجارية الإسلامية حتى نشب الخلاف بين عبد الملك وجستينيان الثاني ، حيث ضرب عملته الجديدة (سنة ٧٤/٧٥ هـ / ٩٦٢ / ٦٩٣ م) ليتخلص من تهديد البيزنطيين) ولم يحدث هذا التغيير انقلاباً في أحوال الدولة الإسلامية لأن الناس سرعان ما تعاملوا بالنقود الجديدة ، ووجدت الجماعات التي تشذ عن استعمالها قسوة وعقاباً صارماً من الخليفة^(١) .

ونجم عن العملة الإسلامية الجديدة تجدد الصراع الحربي بين المسلمين والبيزنطيين ، حيث انتقل الأمر من مجرد تهديد ووعد إلى صليل السيوف . إذ أرسل الخليفة عبد الملك في سنة ٦٩٢ م التزاماته المالية للدولة البيزنطية ، نظير إبعاد الجراجمة ، من هذه العملة الجديدة . فرفض جستينيان الثاني قبول هذه العملة الخالية من صورة الأباطرة البيزنطيين ، وأخذ يتحرش بالمسلمين ويهاجم أراضيهم . ولكن صادفت هذه الأعمال انتهاء الخليفة عبد الملك من مشاكله الداخلية كلها ، وعول على إلقاء درس قاس على الإمبراطور المغرور .

(استهل عبد الملك جهاده للذود عن أرض الإسلام بالزحف على قيليقيا بآسيا الصغرى ، واصطدام عند مدينة سيمواس (Sebostopolis) بالقوات البيزنطية ، التي كانت تضم عدداً كبيراً من العناصر السلافية التي وضعها جستينيان في بند أو بسمكيون) . وجاء الإمبراطور نفسه على رأس هذه القوات لمحاربة المسلمين ، تحدوه الآمال في الانتصار عليهم . ولكن المسلمين بددوا آمال الإمبراطور ؛ إذ دارت رحى الحرب على قواته بسبب انضمام العناصر السلافية فيها إلى المسلمين . وكانت هذه الجماعات السلافية تحقد على الإمبراطور وترفض طاعة أو امره ، ومن

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٤٧٢ ، ٤٧٥ .

ثم دخلت غالبيتها في التبعية للمسلمين حين سمحت لها الفرصة في معركة سيواس،
وحاربت إلى جانب المسلمين أيضاً في هذه المعركة ضد من تبقى من قوات مع
الإمبراطور جستنيان^(١).

وعاد الإمبراطور بعد هزيمته هارباً مع فلول جيشه منجهاً إلى البسفور .
وكان يصحبه بعض جند السلاف ممن بقى على الولاء له . ولكنه ارتكب خطأ
فاحشاً مع فلول السلاف بسبب خنقه على خيانة زملائهم ، إذ جمعهم عند مدينة
ليوكاتا (Leucata) وقتلهم جميعاً ، شافياً غيلة مما فعله بنى جلدتهم من التخلي
عنه والانضمام إلى المسلمين .^(٢) ونجم عن هذه الحادثة أن أصبح جستنيان الثانى
موضع كراهية السلاف جميعاً المقيمين فى سائر أنحاء آسيا الصغرى ، وغدوا أذاق
مستعدة لخدمة المسلمين فى أى نضال حربى ينشب بينهم وبين البيزنطيين^(٣).

واستفاد المسلمون كثيراً من ولاء السلاف لهم ، إذ كانوا على علم بدروب
آسيا الصغرى والمسالك التى تصل بين مدنها المختلفة . فقاموا بوظيفة الأدلاء
للجيوش الإسلامية ، يهدونها إلى أسهل الطرق وأيسرها للاستيلاء على المعقل
الهامة بهذه البلاد . ولذا تابعت الجيوش الأموية انتصاراتها وإغاراتها على مدن
آسيا الصغرى دون أن تلقى جهداً كبيراً .

(1) Bury, op cit II, 322.

(2) Bury, op cit, 322.

(3) Ibid, 322,

الحصار الثالث للقسطنطينية

المستمرات الرومانية والبيزنطية

لم تتغير سياسة البيت الأموي تجاه القسطنطينية رغم انتقال الخلافة من الفرع السفيناني إلى المرواني . فثما كرس معاوية بن أبي سفيان ، زعيم الفرع الأول ، جهوده لحشد قوى الدولة الإسلامية لضرب القسطنطينية ، فإن الخليفة عبد الملك بن مروان زعيم الفرع الثاني في البيت الأموي مهد الطريق لأبناءه من بعده بحمل لواء الجهاد ضد عاصمة البيزنطيين وتخليد اسمهم في سجل التاريخ الإسلامي . ذلك أن عبد الملك سـلم لأبناءه دولة مستقرة الأركان يسودها الهدوء والنظام ، وأحيى في نفوس أهلها حب الجهاد ضد البيزنطيين ، والتطلع مرة أخرى إلى إذلال عاصمتهم وما بها من أباطرة تملأ نفوسهم البغضاء والكبرياء الأجوف .

وكان الوليد بن عبد الملك خير خلف لأبيه ، إذ تابع الفتوحات التي بدأها أبوه في آسيا الصغرى ، وجعل هدف حركاته الحربية الاستيلاء على المعامل الهامة الواقعة في الطريق الرئيسي المؤدى إلى القسطنطينية . واستهل الوليد تنفيذ خطته الجديدة بحصار مدينة طوانة (Tyana) مفتاح الطريق الهام بين الشام والفسفور ، والذي تسلكه الجيوش الإسلامية في طريقها لمهاجمة القسطنطينية . وحاصر المسلمون هذه المدينة عامين متتالين ، لشدة تحصيناتها ولاستماتة البيزنطيين في الدفاع عنها . وأرسل الأمبراطور جستنيان الثاني قائدين من قادة الدولة على رأس قوات من الجند النظامي ، ومعهم عدد من الجند غير النظامي كذلك لإنقاذ المدينة وتخفيف حدة الهجوم عن حامياتها . ولكن المسلمين قضوا على هذه الامدادات ، وتابعوا حصارهم للمدينة . ولم تجد الحاميات البيزنطية مفرأ من التسليم بعد أن أنهك الجوع جندها وضج سكان المدينة من العناء . ودخلت

الجيش الإسلامي مدينة الطوانة سنة ٧٠٧ م ، وأصبحوا يتحكمون في أهم معامل إقليم قبادوقيا بآسيا الصغرى ^(١) .

وتابع المسلمون إغاراتهم على مدن آسيا الصغرى ، وامتازت سنوات ٧١٠ ، ٧١١ م بما لازم للجيش الإسلامي من توفيق في نشر الذعر والاضطراب بين صفوف الجنود البيزنطيين . وفي سنة ٧١٢ م وصلت الجيوش إلى البسفور واستولت على بعض المعاقل الهامة بالقرب منه ^(٢) . وكانت هذه العمليات الحربية الإسلامية حملات استطلاعية وتمهيد الزحف المباشر على العاصمة البيزنطية . وساهم الأسطول الإسلامي في الحركات الحربية كذلك . ومن ثم جهد البيزنطيون على حمل المسلمين ودياً على إيقاف زحفهم صوب القسطنطينية . إذ أسر الأسطول البيزنطي في سنة ٩٠ هـ / ٧٠٩ م خالد بن كيسان ، صاحب البحر ، أي أمير البحر على السفن الإسلامية . فبادر الإمبراطور البيزنطي إلى إعادته للخليفة الوليد مدالاً على رغبته في استئناف العلاقات الودية مع المسلمين ^(٣) . وانتقل الخليفة الوليد بعد نجاح جيوشه في السيطرة على معاقل آسيا الصغرى الهامة إلى إعداد حملة لمهاجمة القسطنطينية نفسها . وكان الإمبراطور البيزنطي إذ ذاك هو أنسطاس الثاني (Anastasius) الذي أدرك الفوضى التي سادت أقاليم آسيا الصغرى الحربية ، وافتقارها إلى القادة الأكفاء والجنود المدربين . فبدأ الإمبراطور يقوى جبهة آسيا الصغرى لمواجهة الحملات الإسلامية المتكررة . وعين على بند أناتوليا ، أي الإقليم الحربي الشرقي بآسيا الصغرى ، قائداً أعدته الأحداث لأن يلعب دوراً هاماً في قصة الحملة الإسلامية الكبرى التي كانت تعد لمهاجمة القسطنطينية .

وكان القائد البيزنطي الجديد يدعى ليو ، من مواطني المنطقة الجبلية

(١) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ٨٨ ؛ Bury, op cit II, 362

(٢) Bury, op cit, 392.

(٣) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ٦٨

في إقليم إيسورة ، ولكنه قضى فترة طفولته في مدينة مرعش (Germanica) على الحدود الإسلامية البيزنطية . وبذلك أتضح له أن يعرف اللسان العربي وأن يفهم تقاليد الإسلام ومطامح المسلمين . وعندما شب وترعرع ظهرت عنده ملكة حب الخداع وإيقاع الفرقة بين طوائف الناس . فأوفده الإمبراطور جستنيان الثاني إلى القبائل الضاربة على حدود الإمبراطورية في الشمال ليشذر بذور التفرقة والشقاق بينها . وعاد مكلا بالنجاح من مهمته على عهد الإمبراطور انسطاسي الثاني ، الذي كان يبحث عن رجال جدد يعهد إليهم بإدارة الأقاليم الحربية في آسيا الصغرى ، ولا سيما بعد أن تحولت حملات المسلمين عليها إلى نشاط منظم هدفه الاستيلاء على القسطنطينية . فاختار الإمبراطور انسطاس الدبلوماسي ليوليدير إقليم أناتوليا بآسيا الصغرى^(١) ، ومهد بذلك لهذا القائد طريق الاحتكاك بالمسلمين خلال أحداث حصارهم الثالث لمدينة القسطنطينية .

وفي الوقت الذي كان الإمبراطور البيزنطي يرفع فيه شخصية ليوليدير إلى مسرح الأحداث ، كان الخليفة الوليد بن عبد الملك يعد شخصية أخرى اضطلعت ببطولة الحصار الأموي الثالث لمدينة القسطنطينية . إذ عهد إلى أخيه مسلمة ابن عبد الملك إدارة دفعة الحملات الإسلامية التي استولت على معظم المعاقل البيزنطية بآسيا الصغرى ، والمؤدية إلى القسطنطينية . وبذلك أصبح مسلمة القائد الأموي الجدير بتولى الحملة الإسلامية التي أخذ الوليد يعدها لضرب القسطنطينية ، ويتزوج مجهوداته بالاستيلاء على عاصمة البيزنطيين .

وأقبل مسلمة بن عبد الملك على مساعدة أخيه الخليفة الوليد في تجهيز الحملة الإسلامية القاصدة حصار القسطنطينية . وكانت الاستعدادات الإسلامية واسعة النطاق بحيث ترامت أنباء هذه الحملة إلى السلطات البيزنطية في العاصمة سنة

(1) Bury, op cit II, 374 :

٧١٤ م . فأوفد الإمبراطور أنسطاس سفارة إلى دمشق لنتباحث مع السلطات الإسلامية في شأن عقد هدنة بين الدولتين ، ولكن زود السفارة البيزنطية بتعليمات سرية تقضى التجسس على مدى استعداد المسلمين الحربى ، والتحقق من صدق عزمهم على مهاجمة القسطنطينية . وكان رئيس هذه السفارة رجلا حصيفا يدعى دانيال (Daniel) حاكم مدينة سينوب ، ومن الشخصيات الكبرى التى تعتمد الدولة البيزنطية على صدق تقاريره ^(١) .

ولما وصلت السفارة البيزنطية إلى دمشق شاهدت عظمة المسلمين فى عاصمتهم ، ونشاط الخليفة فى إعداد الجيوش لتوجيهها ضد القسطنطينية . فعادت السفارة تحمل إلى الإمبراطور البيزنطى صدق عزيمة المسلمين على الجهاد ، وتنصح بضرورة اتخاذ الاحتياطات للدفاع عن العاصمة . ونفذ أنسطاس تعليمات السفارة ، فأعلن فى القسطنطينية أخبار الحملة الإسلامية المنتظرة ، وأمر كل فرد أن يخزن لنفسه مؤونة تكفيه ثلاث سنوات ، وأن يخرج من المدينة كل معوز وغير قادر على تدبير مؤونته . ثم ملأ الخزان الإمبراطورية بكميات هائلة من القمح وغيره من الحاجات التى يتطلبها المدافعون عن المدينة . واهتم كذلك بتجديد أسوار المدينة ولا سيما الجهات المطلة منها على الميساء ، حيث كان التداعى قد دب فيها ، ووضع على الأسوار البرية كل الآلات الحربية من المجانيق وغيرها من وسائل الدفاع ^(٢) .

وفى تلك الفترة من الاستعدادات الإسلامية البيزنطية توفى الخليفة الوليد . ولكن المشروع الإسلامى لحصار القسطنطينية سار قدما دون أى تغيير ، إذ تبناه أخوه سليمان بن عبد الملك ، الذى خلفه على عرش الدولة الإسلامية بحماس أشد قوة . فقد بلغ اهتمام المسلمين فى أرجاء الدولة الإسلامية شأوا كبيرا

(1) Bury, op cit 371.

(2) Ibid, 371.

بالمساهمة في مجهودات الخليفة سليمان^(١) . وتكاثفت مصر والشام وشمال إفريقيا على تزويد الحملة الإسلامية بكل ما تحتاج إليه من عدة وعتاد . فأبحر أسطول من مصر إلى شواطئ الشام لجمع أخشاب من سواحل لبنان ليصنع منها سفن جديدة في دور الصناعة بمصر ، لتعزيز الأسطول الإسلامي المتجه لحصار القسطنطينية . وعلم الامبراطور انسطاس بأخبار نشاط المسلمين وإزداد استعدادهم الحربي على عهد الخليفة سليمان ، وآثر أن يعرقل هذه الاستعدادات ولا سيما البحرية منها ، لأنه أدرك أهمية الدور الذي ستضطلع به السفن الإسلامية . فعمد إلى مهاجمة الأسطول المصري وتخريب الأخشاب قبل عودتها إلى مصر . وعهد إلى جند إقليم أو بسمكيون (أى إقليم فرق الحرس الامبراطوري) بتنفيذ هذه المهمة . ولكن باءت مجهودات الامبراطور انسطاس الثانى بالفشل لعصيان الفرق الامبراطورية لأوامره وكرهيتها له . إذ شقت عصا الطاعة حين وصلت جزيرة رودس في طريقها لمهاجمة سواحل الشام ، وقتلت القائد الذى عينه الامبراطور عليها لإدارة عمليات الهجوم ، وعادت إلى القسطنطينية وغزت الامبراطور^(٢) وعينت على العرش امبراطور آخر^(٣) .

سيرة الحملة الإسلامية :

رأى الخليفة سليمان بن عبد الملك ملائمة أحوال الامبراطورية البيزنطية لضرب القسطنطينية ، ولا سيما بعد أن سرى الفساد فى جميع مراقبها وإدارتها . فأعد فى دابق بشمال الشام معسكراً كبيراً ليكون مقراً لإدارة دفعة العمليات الحربية ضد القسطنطينية . وقضى الخليفة معظم وقته فى هذا المعسكر ليشرف

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١١٨ .

Bury, op cit, 372. (٢)

Ibid, 372 373 (٣)

بنفسه على سير العمل فيه ، « وأعطى الله عهداً أن لا ينصرف حتى يدخل الجيش الذي وجهه إلى الروم القسطنطينية » ^(١) .

وفي سنة ٩٨ هـ / ٧١٧ م تحركت الجيوش الإسلامية نحو القسطنطينية تحت قيادة مسلمة بن عبد الملك أخى الخليفة نفسه . وأمر سليمان أخاه « أن يقيم عليها (أى على القسطنطينية) حتى يفتحها أو يأتيه أمره » ^(٢) . فبعث مسلمة أحد قواده ويدعى سليمان على رأس جيش يستطلع له الطريق عبر آسيا الصغرى . وتوغل سليمان في إقليم أناطوليا (أى الإقليم الشرقى) حتى بلغ حاضرتة وهى مدينة عمورية ، التى كانت منذ أيام معاوية بن أبى سفيان مقصد الجيوش الإسلامية الزاحفة على القسطنطينية . وألقى سليمان الحصار على هذه المدينة ، وعلم إذ ذاك أن حاكمها المدعو ليو ، يدين بمركزه للامبراطور السابق انسطاس ، ويناهض الامبراطور تاوداسيوس الثالث القابض على أزمة الحكم بالقسطنطينية .

وبدأ القائد سليمان يدبر خططاً هدفها القبض على ليو وإدخاله فى التبعية للمسلمين ، والاستفادة من خبرته فى هدم الأمبراطورية البيزنطية . فكتب إلى ليو خطاباً جاء فيه « نحن نعلم أن مآل الامبراطورية الرومانية إليك ، فاخرج لنا لنتفق على شروط الصلح » ، ثم أمر القوات الإسلامية المرابطة أمام أسوار عمورية بأن تهتف « يحيا الأمبراطور ليو » ^(٣) . وأجاب ليو على خطاب سليمان متسائلاً « لماذا يحاصر المسلمون مدينة عمورية إذا كانوا يريدون عقد صلح معه ؟ » . فرد عليه سليمان مبيناً « أن الحصار سيرفع عن المدينة عندما تبدأ المحادثات الرسمية بينهما » ^(٤) .

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١١٨ .

(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١١٨ .

(٣) Bury, op cit, 376

(٤) Bury, op cit, 379, 380 381

وأدرك ليو أن المسلمين سيواصلون الزحف على القسطنطينية ، وأنه لا بد أن يسلم لهم . فبیت أمراً خطيراً احتفظ به لنفسه فقط ، وهو أن ينضم إلى الجيوش الإسلامية متظاهراً بإرشادها إلى ما يجب أن تفعله للاستيلاء على القسطنطينية ، ولكن ليصل بذلك إلى العاصمة نفسها ويحصل على العرش ، ثم يقف بنفسه مناهضاً الجيوش الإسلامية . فدخل ليو في مفاوضات مع المسلمين أعلن لهم فيها انضمامه إليهم ، وطلب منهم رفع الحصار عن عمورية ، ثم صاحب الجيوش الإسلامية بعد نجاح مفاوضاته قاصداً القسطنطينية . وكسب ليو من وراء ذلك ولاء أهل عمورية الذين حفظوا له تجنيبهم ويلات الحصار ، ونادوا به امبراطوراً على الدولة البيزنطية ^(١) .

ولكن أعداء ليو اتهموه بتفريطه في الدفاع عن إقليم أناتوليا ، وبمآلاته المسلمين ، وتسهيله سبل الطمأنينة والراحة لهم عبر آسيا الصغرى . وكان هذا الاتهام عاملاً جعل ليو موضع ثقة المسلمين ، وسمحوا له بأن يسبقهم إلى القسطنطينية ليمهد لهم سبل الاستيلاء عليها . وبدأ ليو حينئذ ينفذ ما عزم عليه من الحصول على السلطان وعرش الامبراطورية . فأخذ يعمل على إضعاف جبهة الامبراطور تادواسيوس الثالث المقيم بالقسطنطينية ، والمنغمس في لهوه ومسراته . وكان هذا الامبراطور يعتمد في قوته على الجند المقيم في إقليم أوبسيكيون ، أى جند الفرق الامبراطورية ، ونصب عليها ابنه قائداً ليحقق لنفسه أسباب الطمأنينة والسلام . ولذا ناهض ابن الامبراطور حركات ليو واستعد لصد عدوانه عند مدينة نيقوميديا بآسيا الصغرى . ولكن ليو تمكن من هزيمة ابن الامبراطور ، وعبر البسفور إلى القسطنطينية . واستطاع أن يقتحم المدينة من باب الذهب ودخلها ليوطد نفوذه بها . إذ سرعان ما كشف عن نواياه الحقيقية عندما احتل العاصمة ، وأخذ يعمل على الوصول إلى العرش الامبراطوري . واستغل أخبار الحملة الإسلامية

(1) Bury, op cit. 381, 382.

وقرب وصولها إلى القسطنطينية ليجذب الأنصار حوله . فأعلن أن المدينة مهترضة لحصار طويل ، وأن جيش المسلمين قوى العدد والعتاد ، وأن الموقف يتطلب شخصية حازمة لمواجهة الأزمة التي توشك أن تحل بالعاصمة . وساعد ليو على نجاح دعوته العناصر الآسيوية المقيمة بالقسطنطينية ، إذ انضمت إليه ونادت به امبراطورا^(١) .

وفي ٢٥ مارس سنة ٧١٧ م عقد اجتماع من كبار رجال العاصمة ، قرر عزل تادواسيوس عن العرش وتنصيب ايو امبراطوراً تحت اسم ليو الثالث^(٢) . وبذلك حقق ليو ما كانت تصبو إليه نفسه من آمال ، حيث وصل إلى أعلى مركز في الامبراطورية . ولكن لم يتمتع بهذا الظفر طويلاً ، إذ كانت الجيوش الإسلامية تقترب حينئذ من القسطنطينية ، مصممة على إنزال أشد ألوان الهوان بها . وكان ليو يعلم الكثير عن مطامح المسلمين وأغراضهم في هذه الحملة الكبرى ولا سيما أنه صاحب جيوشها فترة من الزمن ، فأسرع في تحصين العاصمة وتقويتها لمواجهة الحصار الإسلامي المنتظر .

الحصار الإسلامي :

كان أمام ليو فترة خمسة شهور لإتمام استعداداته الحربية ، إذ قضى المسلمون هذه الفترة في تدعيم خطوط مواصلاتهم وتأمين مؤخرتهم . فاستولى مسلمة بجيشه البالغ ٨٠.٠٠٠ جندي على مدينة برجام ، ثم عبر الدردنيل عند أبيدوس وعسكر أمام أسوار القسطنطينية في ١٥ أغسطس سنة ٧١٧ م^(٣) . وكان مسلمة يدرك أهمية تدبير مؤونة جيوشه ، فأمر « كل فارس أن يحمل على عجز فرسه

(1) Bury, op cit, 383.

(2) Bury, op cit, 383.

(3) Bury, op cit, 401.

مدين من طعام حتى يأتي به القسطنطينية»^(١). واحتفظ بقدر كبير آخر من المؤن لتزويد جنده بها أثناء الحصار .

و بعد ستة عشر يوماً من وصول مسالة إلى أسوار القسطنطينية ، دخل مياه البسفور في أول سبتمبر أسطول إسلامي كبير ، مكون من ١٨٠٠ سفينة كبيرة عدا سفن صغيرة أخرى كثيرة . وأخذ مسالة ينظم التعاون بين القوات البرية والبحرية لإتمام حلقة الحصار على القسطنطينية . فاضطلعت قوات مسالة البرية بحصار أسوار المدينة من الناحية البرية ، على حين عمد سليمان أمير البحر المسلم على سد المنافذ والمسالك المائية التي يمكن أن تحصل منها العاصمة على الأمداد والمؤن ، ثم حصار أسوار المدينة البحرية كذلك . فاحتل الأسطول الإسلامي مدخل البسفور الجنوبي لقطع الاتصال بين المدينة وبحر مرمره وبحر إيجه كذلك . ثم اتهمز أمير البحر فرصة هبوب رياح جنوبية طيبة وبعث شطراً من أسطوله لاحتلال مدخل البسفور الشمالى لمنع وصول أى مدد يأتي للمدينة من البحر الأسود ، ولأسيما أن شواطئه الشمالية كانت غنية بحقول القمح التي تزود القسطنطينية بالغلل^(٢).

وسارت السفن الإسلامية الكبرى سيراً بطيئاً رغم الرياح المواتية بسبب التيار المائى الشديد الذى يتدفق من البحر الأسود عبر البسفور إلى بحر صرصة . ثم غيرت الرياح اتجاهها فجأة ، شأن الأحوال الجوية فى تلك المنطقة . فاختل سير السفن لسوء الأحوال الطبيعية ورداءة الملاحة فى هذه المياه الإقليمية للقسطنطينية . ولذا اتهمز البيزنطيون هذه الفرصة ، وبعثوا سفنهم المحملة بالنار الإغريقية ليزيدوا من مقاعب السفن الإسلامية^(٣) . ويلاحظ أن ليو لم يجرؤ على إرسال سفنه

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١١٧ .

(2) Bury, op cit, 401, 402 .

(3) Bury, op cit. 402 .

إلا بعد أن ساءت الأحوال الجوية ، وأن سقن النار البحرية ليست هي العامل الأول أو الرئيسي في منع أمير البحر المسلم من إكمال حلقة الحصار البحري للقسطنطينية .

وحاصر المسلمون القسطنطينية حصاراً قاسياً شديداً رغم بقاء جهنم المظلة على القرن الذهبي مفتوحة . وظل الحصار مستمراً حتى جاء الشتاء ، وهو قارس جداً ، ويستمر من العوامل الطبيعية الأخرى التي تعتمد عليها القسطنطينية في الدفاع عن نفسها وإطالة مدة مقاومتها . غير أن مسلة احتياط لهذه العوامل الطبيعية « وعمل بيموتاً من خشب ، شتا فيها وزرع الناس ... وأقام بالقسطنطينية قاهراً لأهلها ، ومنه وجوه أهل الشام »^(١) . وبرهن المسلمون بهذا الثبات طول الشتاء القارس أنهم أولى بأس وعزم صادق في الجهاد ، وأنهم حريصون على رفع راية الإسلام في كل مكان .

وبمطلع الربيع وصلت نجيدات بحرية وبرية للقائد مسلمة بن عبد الملك . فجاء أسطول من مصر بقيادة أمير بحر يدعى سفيان ، وآخر من شمال إفريقيا تحت إمرة شخص يدعى يزيد . وتعاون هناك القائدان مع مسلمة ، لأن أمير البحر السابق سليمان توفي من قبل أثناء الشتاء . وكذلك وصلت نجيدات برية بقيادة رجل يدعى مرداس ، عبرت آسيا الصغرى عن طريق أبواب قيليقيا ، وعسكرت في نيقوميديا ونيقيا . وأخذت القوات الأخيرة تهاجم من شواطئ إقليم أو بيسيكيون الحربى ، المعروفة بالشواطئ البحرية « Peratic coast » السفن البيزنطية التي تحاول الخروج ، طلباً للحصول على صيد بحري يغذى سكان العاصمة ، أو الذهاب إلى البحر الأسود لطلب الغلال من شواطئه^(٢) . واستخدم المسلمون النفط ، واستعانوا بنوع أسبه بالمدفعية في حصار القسطنطينية .

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١١٧ .

(٢) Bury, op cit 403 .

وأبلى الجند من ضروب الشجاعة ما شهد لهم بطاوة روحهم المعنوية وجههم الاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الاسلام^(١). وظهر من الجند الاسلامي رجل يدعى عبد الله البطل ، وكان كبير حراس مسامة بن عبد الملك . فقد أبلى في هذا الحصار بلاءاً حسناً أكسبه لقب زعيم الأبطال . واستشهد هذا البطل في معركة تالية (٧٢٠م) بعد انتهاء الحصار الاسلامي ، حيث كان دائماً على الجهاد . وعرف في القصص التي تداولت عن شجاعته باسم السيد غازي ، واعتبره الأتراك فيما بعد بطلا من أبطال أمتهم . وأنشئ على قبره بالقرب من إسكي شهر تسكية ومسجداً لأبناء الطريقة البكتاشية لا يزالان إلى اليوم . وتسرد القصص عن البطل أيضاً أن البيزنطيين رسموا صورته على بعض كنائسهم لتذكير الناس بما له من بأس وسعولة بين جند المسلمين^(٢).

وفي تلك الفترة التي اشتد فيها الحصار الاسلامي لمدينة القسطنطينية ، توفي الخليفة سليمان بن عبد الملك ، وتولى بعده الخليفة عمر بن عبد العزيز . وتردد صدى هذا التغيير في ميدان الحملة الاسلامية المحاصرة لالعاصمة البيزنطية . إذ كان الخليفة سليمان يمثل عصر أوج الفتوحات الاسلامية ، مما جعله يبدي اهتماماً بالغاً بإمداد الجيوش الاسلامية أمام القسطنطينية بكل ما يكفل لها السيادة والقوة . ولكن أحوال الدولة الاسلامية على عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز اقتضت إيجاد فترة استقرار في تيار الفتوحات لتدعيم الصرح الاسلامي العظيم الذي ظهر وعلا . إذ غدت الدولة الإسلامية تمتد من حدود الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً ، ومن بحر آرال شمالاً إلى شلالات النيل السفلى جنوباً . وأصبحت بذلك تبتدئ سائر الامبراطوريات الكبرى التي عرفها التاريخ من قبل ؛ وتقضي أوضاعها الزمنية توجيه الجهود إلى تنظيمها وتأمين رقعتها قبل الاستمرار في الفتح والتوسع .

(١) العيون والحدايق ، ج ٣ ص ٢٤ .
(٢) Hitti, History of Syria, 449.

ولذا اتجهت أنظار الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى سحب القوات الإسلامية المحاصرة للقسطنطينية . فأرسل في ١٥ أغسطس سنة ٧١٨ م ، أى بعد حصار دام اثني عشر شهراً كاملاً ، يطلب من مسلمة المودة بجيوشه وأساطيله إلى الشام . وهكذا عادت الجيوش الإسلامية إلى قواعدها بعد أن أدت رسالتها في إعزاز دولة الاسلام ، وحملت عاصمة البيزنطيين وأباطرتها على التخلي عن مشاريعهم وأحلامهم القديمة في استعادة سالف أراضيهم التي دخلت في رقعة الاسلام . وترك الخلفاء الأمويون بحملاتهم المتكررة على القسطنطينية سجلاً حافلاً بجهودهم في نصرته الاسلام ، وحافذاً جعل خلفائهم من الدولة الإسلامية يتطلعون للاستيلاء على هذه العاصمة . وظلت رسالتهم ماثلة حتى حققها شعب إسلامي فتي ، هم الأتراك العثمانيون ، بعد انقضاء سبعة قرون تقريباً على الحملة الأموية الكبرى زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك .

وإذا كان الأمويون قد تركوا مهمة الاستيلاء على القسطنطينية لغيرهم من المسلمين ، فإن جهودهم وحملاتهم على هذه العاصمة لم تضع سدى ، إذ تردد صدى هذه الحملات في إقليم شمال إفريقيا ، الذي اتجهت إليه جيوشهم أيضاً لطرد البيزنطيين منه ، وضمه إلى رقعة الاسلام . فقد صرقت أحداث الحصار الأموي للقسطنطينية أنظار الأباطرة عن التفرغ لدفع المسلمين عن شمال إفريقيا ، واعتبروا حماية هذا الإقليم في المرتبة الثانية بالنقياس إلى الدفاع عن عاصمتهم . وهكذا جنى الأمويون ثمار جهودهم ضد القسطنطينية ، حيث جعلوا من شمال إفريقيا ركناً هاماً من أركان الدولة الإسلامية القوية الأوتاد .

الفصل الرابع

استيلاء الأمويين على شمال إفريقيا وإقصاء البيزنطيين

المغرب قبل العصر الأموي

إفريقية البيزنطية

هل الأمويون راية الجهاد ضد البيزنطيين في كل مكان ، وتعقبوهم في كل بقعة يمكن أن تتخذ قاعدة يهاجمون منها أرض الإسلام ، وكانت الجهة الجديدة التي اتجه إليها الأمويون هي شمال إفريقيا البيزنطية . وقد آلت هذه البلاد إلى الامبراطورية البيزنطية بعد انهيار الدولة الرومانية الكبرى ، واشتملت على الساحل الممتد من برقة إلى طنجة . واعتمدت السلطات البيزنطية على موارد الغلال بهذه البلاد في تموين رعاياها بالعاصمة ، فضلا عن أخذ أخشابها لبناء أساطيلها^(١) . وهذا يوضح أهمية الدور الذي قام به الأمويون لانتزاع هذه الأراضي من البيزنطيين ، وتقليل مجهوداتهم على الحدود الشرقية بآسيا الصغرى .

وكان سلطان البيزنطيين غير مستقر في هذه الرقعة من ممتلكاتهم قبل قيام الفتوحات الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط . إذ ساءت العلاقات بينهم وبين سكان البلاد ، ولا سيما أبناء البلاد الأصليين^(٢) ، الذين ظلموا بعيدين

(١) Brehier, Vie et Mort de Byzance, 26٠

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب (١٩٤٧) ص ٥٥ ؛

ويعتبر هذا الكتاب أحدث مرجع تناول في اسباب فتح المسلمين للمغرب ، وبهم =

عن حضارات البحر الأبيض المتوسط . وكان الرومان يطلقون كلمة بربر (Barbari) — على نحو ما فعل اليونان من قبل — على سائر العناصر التي لا تدين بحضارتهم . ومن ثم لصق هذا الاسم بسكان شمال إفريقيا الأصليين ، وظل شائعاً حتى جاء المسلمون واتخذوا نفس الاسم للدلالة على سكان المغرب دون تغيير في مدلوله (١) .

وقد انقسم أولئك البربر إلى قسمين متباينين كان لهما أبعاد الأثر فيما بعد في الصراع الذي نشب بين المسلمين والبيزنطيين . القسم الأول يشمل على البربر المستقرين المقيمين في النواحي الحصينة المحيطة بجبال أوراس ، وهي جنوب ووسط الجزائر الحالية ، وجنوب مراکش وبعض أجزاء من تونس الغربية . وكان هذا القسم على جانب من الحضارة لقيام نوع من العلاقات بينه وبين البيزنطيين المستقرين في البلاد ، واشتغل بالزراعة والصناعة (٢) .

وكان القسم الآخر من البربر يضرب في الجهات الصحراوية التي تلي منطقة جبال أوراس ، وفي الواحات التي تقع في المنطقة الجنوبية والشرقية من الصحراء . ودأب أولئك البربر على مهاجمة أراضي البربر المستقرين ، حتى ظهر نوع من العلاقات بين البربر المستقرين والبيزنطيين لصد عدوان البربر البدو . واستغل البيزنطيون هذه العلاقات حين زحف المسلمون على شمال إفريقيا ، وظلوا يعتمدون عليها في المقاومة حتى تمكن المسلمون من ضم البربر البدو إليهم وسيطروا على شمال إفريقيا . وهكذا كان الشقاق بين عنصرى البربر من العوامل التي أطالت عهد البيزنطيين بأراضيهم . ولكن كان نفوذهم غير مستقر ، حيث بسط البربر البدو

معلومات قيمة أشير على القارئ بالرجوع إليها فيما يريد أن يتوسع فيه من آراء جاءت في هذا الفصل . وقد بذل المؤلف جهداً كبيراً في مناقشة أحداث الفتح وضبط سنواتها .

(١) Hitti, History of the Arabs, 214.

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٦ .

إغاراتهم على سائر الأراضي التابعة للبيزنطيين بالساحل^(١).

وزاد في عدم استقرار الففوذ البيزنطي في شمال إفريقيا أن حكام هذه الولاية جنحوا في الفترة السابقة لحركة امتداد الزحف الإسلامي إلى الاستقلال بثبوتهم^(٢). إذ ظهر على مسرح الأحداث أسرة عسكرية من سلالة أحد الحكام البيزنطيين يدعى جريجوريوس^(٣)، تولى حكم إفريقيا البيزنطية سنة ٦١٠ م، واعتبرت البلاد ملصكاً لهم^(٤). واتجه آل جريجوريوس إلى تدعيم علاقاتهم بالبربر ليضمنوا استقرار الأمور لهم. وظهر تفكيرهم في الانفصال عن الدولة البيزنطية فيما بين سنة ٦٢٨ ، ٦٢٩ م حين فكر الإمبراطور هرقل في نقل عاصمته من القسطنطينية إلى قرطاجنة بشمال إفريقيا فراراً من الزحف الفارسي. فقد اضطرب حاكم إفريقيا، وكان إذ ذاك يدعى جريجوريوس أيضاً، وهو الذي عرفه المسلمون فيما بعد باسم جرجير، وصمم على الانفصال التام حتى لا ينتقل هرقل إلى قرطاجنة^(٥).

ولم يلبث جرجير أن انتهز فرصة عدول الإمبراطور عن ترك القسطنطينية، وقيام الفتوحات الإسلامية في الشام فيما بعد واستقل تماماً بثبوت إفريقيا. واعتمد في ذلك على تشجيع البابا في روما، حيث كان يناهض سياسة الأباطرة البيزنطيين الدينية، وعلى مؤازرة البربر أيضاً الذين أعلنوا ولائهم لآل جريجوريوس، حيث أنقذوهم من المطالب الباهظة؛ وإلى جانب ذلك عضد بعض البيزنطيين

(١) حسين مؤنس، نفس المرجع، ص ٦، ٧

(٢) حسين مؤنس، نفس المرجع، ص ٢١.

(٣) حسين مؤنس، نفس المرجع، ص ٢١، ٢٢.

(٤) حسين مؤنس، نفس المرجع، ص ٢٣، ٤٢.

(٥) ابن عبد الحكم، نفس المرجع، ص ١٨٣، ٥٩. Bréhier, op cit,

من أصحاب المطامع استقلال جرجير بإفريقيا^(١). ولكن لم يهنا جرجير باستقلاله ،
إذ ما كاد ينفصل عن الدولة البيزنطية حتى كان المسلمون قد استولوا على مصر ،
ووصلت طلائع جيوشهم إلى برقة وطرابلس .

طلائع الفتح الإسلامي :

كان اتجاه عمرو بن العاص لفتح مصر ضرورة اقتضتها العمليات الحربية
وتأمين الفتوحات الإسلامية بالشام . إذ كانت مصر معقلا حصينا للبيزنطيين
وقاعدة تهدد سلامة الجيوش الإسلامية بالشام . ولكن بعد أن تم إخماد فتوح مصر
أدرك أن ذنب الأفعى البيزنطية ما زال قائما في شمال أفريقيا ، وأنه لا بد من
القضاء عليه . فقد تلقت الحاميات البيزنطية بمصر مددا وعونا من شمال إفريقيا
مكنها من مقاومة الزحف الإسلامي ، وجعلت عمرو بن العاص يعرف أن برقة
وما والاها من بلاد تابعة للبيزنطيين ، ولم فيها منعة وعزة . فضلا عن ذلك كان
أهل برقة وطرابلس بصفة خاصة على علاقات قوية مع مصر ، حتى أن بعض
قبائلها اعتبر من سكان مصر الأقباط^(٢). وقامت بين مصر وهذه البلاد سبل
الاتصال في سهولة ويسر ، مما حفز عمرو على أن يتابع سيره إليها بعد فتح
الاسكندرية للقضاء على ما قد يكون بها من تجمعات للبيزنطيين .

ولم يضيع عمرو بن العاص وقتا حين وجد الظروف تحمله على غزو شمال
إفريقيا ، إذ بادر بإرسال عقبه بن نافع الفهري في سرية صغيرة إلى برقة ليستطاع
أحوالها ريثما ينتهي من إتمام فتح مصر . ولما اطمان إلى سلامة موقفه بمصر ،

(١) Diehl, L'Afrique Byzantine, 552, 556.

حسين مؤنس ، فتح المغرب ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٥٣ .

ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١١٧ ، ١١٨ .

ووصلته أنباء مشجعة من عقبه عن حالة برقة ، زحف بنفسه على تلك البلاد وفتحها .
وقد سارع البربر بالدخول في طاعة المسلمين وصالحوهم على دفع جزية كبيرة .
ودفع أهالي برقة الجزية عن طيب خاطر وبعثوا بها إلى مصر ، حتى أنه
« لم يكن يدخل برقة يومئذ جابي خراج ، وإنما كانوا يبعثون بالجزية إذا
جاء وقتها » (١) .

وسار عمرو بن العاص بعد ذلك إلى فتح طرابلس ، واتبع خطة تعتبر
النموذج الذي احتذاه قادة بني أمية فيما بعد لاتمام فتح شمال أفريقيا . إذ تقدم
عمرو على امتداد الساحل دون أن يهمل الناحية الداخلية ، فكان يعمل على
تأمين جيوشه من الأخطار التي قد تدهمها من هذه الجهة وتدعيم مراكزه فيها
قبل أن يواصل زحفه على الساحل . فأرسل البعوث الحربية إلى داخل البلاد ،
ثم بدأ فتح مدائن الساحل ، إذ عرف أن انتزاع الساحل من أيدي البيزنطيين
لا يعني خضوع البلاد ، ودخولها في حظيرة المسلمين . واستطاع عمرو بذلك أن
يستولى على مدن الساحل بطرابلس ، وواحاتها الداخلية دون أن يلقى مقاومة
كبيرة (٢) .

وترجع السهولة التي سيطر بها عمرو على طرابلس إلى عدم وجود أية مقاومة
بيزنطية . ذلك أن جرجير لم يبد إهتماما بالدفاع عن برقة وطرابلس . فقد انفصل
تماما عن الدولة سنة ٦٤٦ م ، أي في الوقت الذي زحف فيه عمرو على طرابلس . ومن
ثم اتجه جرجير إلى تأمين نفسه أولا وتعزيز دولته الجديدة قبل أن يواجه المسلمين .
ووقع اختياره على أحد حصون الهضبة الداخلية ويعرف بمدينة سبيطة . وكانت
هذه المدينة إلى جانب منعها تشرف على السهل الساحلي كذلك . وما أن

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ٢٣٢ : ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ١٧٠ ، ١٩١ .

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٥٧ .

انتهى عمرو من الاستيلاء على طرابلس حتى رأى التوقف عن الزحف وطلب
أمداداً جديدة قبل استئنافه السير. ثم انسحب عندما أمره الخليفة عمر بن الخطاب
بالسكف عن مواصلة الفتح ، حتى تستقر الأوضاع في مصر وغيرها من البلاد
الإسلامية^(١)

وبعد عودة عمرو بن العاص إلى مصر خرجت طرابلس عن طاعة المسلمين
واحتلها البيزنطيون مرة أخرى ، أما برقة فقد ظلت على التبعية للمسلمين ، وبقى
بها عقبة بن نافع ، حيث قضى وقته متنقلاً بين قبائلها الضاربة حولها وبالقرب
من واحاتها . ولكن المسلمين لم يعضوا الطرف عن شمال أفريقيا ، حيث
رأى خليفة عمرو بن العاص على مصر ، وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح ،
خطورة بقاء البيزنطيين في تلك البلاد بالقرب من التخوم الإسلامية .
فبعث يستأذن الخليفة عثمان بن عفان في غزو شمال أفريقيا للقضاء على جرجير
ومملكتيه .

أذن الخليفة لعبد الله بن أبي سرح بالزحف على أرض المغرب . فخرج على
رأس قوات كبيرة ووصل إلى سهل تونس . وكان جرجير قد تعمد أن لا يصد
زحفه ، متجهاً إلى تحصين نفسه بالداخل . ووقف جرجير على أنهم استعداد عند
مدينة « عقوبة » على أميال من سبيطلة . وهناك دارت معركة رهيبة ثم للمسلمين
فيها الفوز وسقط فيها جرجير نفسه قتيلاً^(٢) .

وتابع عبد الله انتصاره بالزحف على سبيطلة نفسها ، وحاصرها حصاراً شديداً
حتى سقطت ، وقضى على من بها من البيزنطيين . وبسقوط هذه المدينة أصبحت
ولاية أفريقية تحت رحمة المسلمين ، فواصلوا تقدمهم حتى بلغوا سفوح الجبال

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٤٤ ؛ حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ص ٢٢٤ ، ٢٣٥ ؛ ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٢

مطاردين قلول البيزنطيين . إذ تفرقت قوة البيزنطيين بعد واقعة سبيطلة ، ولجأ معظمهم إلى حصن قديم يدعى « الجم » (Thysderas) . فسارع عبد الله بن أبي سرح وحاصر هذا الحصن حتى استولى عليه وأطاح بقوة البيزنطيين تماماً^(١) .

وأغارت بعض السرايا من جيش عبد الله بن أبي سرح على سائر أرجاء البلاد في الفترة التي كانت تسقط فيها حصونها الهامة على الساحل . ومن ثم اضطر رؤساء البربر إلى عقد اتفاق مع عبد الله بن أبي سرح يقضى بأن يدفعوا له قدرًا معينًا من المال سنويًا ، وأن يترك بلادهم^(٢) . وقد آثر عبد الله بن أبي سرح انتهاز فرصة عرض البربر الصلح وصمم على الرجوع إلى مصر لقلّة عدد الجند في جيشه ، وعدم استطاعتها مواصلة القتال . وشجعه على العودة أنه انتهى من تحقيق هدفه وهو القضاء على قوة جرجير الناصر البيزنطي ، الذي وقف وحيداً في الميدان دون أن يتلقى أمداداً من الدولة البيزنطية .

وبذلك لم تكن حملة عبد الله بن أبي سرح فتحاً منظماً ، إذ لم يتبع خطة مرسومة على نحو ما فعل عمرو بن العاص من قبل ، كما أن حملته لم تتمخض عن نتائج لها أهميتها في استقرار الفتح الإسلامي . إذ لم يستطع عبد الله بن أبي سرح الحصول على أمداد جديدة من الخليفة عثمان تمكنه من استئناف الزحف على شمال أفريقيا . فقد أخذت بذور السخط على الخليفة عثمان تنمو وبدأ لتفضيله أبناء البيت الأموي في إدارة الأمصار الإسلامية ، ثم شبت وترعرعت حتى غدت عاصفة هوجاء . فقتل الخليفة عثمان ، وشغل بنو أمية في الدفاع عن أنفسهم تحت لواء معاوية وإلى الشام ،

(١) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٢٩ .

وانقضت فترة بلغت ثلاثة عشر عاماً تقريباً بعد عودة عبد الله بن أبي سرح من شمال أفريقيا، وقفت فيها الجهود الحربية الإسلامية للقضاء على البيزنطيين في تلك البلاد . ولما كان استتب الأمر لمعاوية وأصبح خليفة المسلمين وجه عنايته لمحاربة البيزنطيين بشمال أفريقيا مثلاً . بذل من جهود للاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية . وقد استفادت الجيوش الأموية الغازية لشمال أفريقيا من انشغال البيزنطيين بالحروب دفاعاً عن عاصمتهم حتى تم لهم أخيراً السيطرة على هذه الرقعة الهامة وضموها إلى حظيرة الإسلام .

معاوية بن أبي سفيان والمغرب

صفحة معاوية بن صريح سنة ٤٥ هـ / ٦٦٦ م

أخذت موجة الفتوحات الإسلامية تنطلق مرة أخرى بعد استقرار الأمور لمعاوية بن أبي سفيان . واتسمت في هذه الحقبة بطابع النشاط والعمل المتواصل ، إذ عهد معاوية بمشاريعه الحربية إلى رجال مخلصين خبرهم وعجم عودهم أثناء مساعدتهم له في النضال بينه وبين علي بن أبي طالب . فعين الكثير من أولئك الرجال على قيادة الجيوش الأموية لاستئناف الجهاد ضد البيزنطيين . واختص الجهة الإفريقية بالشخصية الأولى من رجاله الممتازين وهو عمرو بن العاص فاتح مصر الأول ، وواضع الحجر الأساسي لفتوح شمال إفريقيا .

وكان عمرو إذ ذاك قد تقدم به العمر ، وما زالت مشاكل الخلافة بالشرق لا تسمح بحشد جيوش كبيرة لفتح شمال أفريقيا ، فأثر أن يبعث سرايا حربية صغيرة إلى برقة وطرابلس تحت إمرة عقبه بن نافع الفهري ، دون الدخول في مشاريع واسعة النطاق ^(١) . وكانت الامبراطورية البيزنطية إذ ذاك قد أخذت تولى عنايتها بشمال أفريقيا ، وتعمل على تدعيم نفوذها بها . وتجلى هذا التغيير في السياسة البيزنطية بعد واقعة ذات الصواري البحرية (٣٤ هـ / ٦٥٥ م) ، إذ بينما شغلت الدولة الإسلامية بفتنة مقتل عثمان وما تلاها من صراع بين علي ومعاوية ، تحول الامبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني إلى العناية بشئون شمال أفريقيا .

ودفع الامبراطور قنسطانز إلى الاهتمام بأحوال شمال إفريقيا إدراكه عجز دولته عن إخراج المسلمين من الشام ومصر بعد واقعة ذات الصواري . ومن ثم أخذ يعمل على تنظيم دولته بما يجعلها تواجه الأمر الواقع ، وهو أن المسلمين غدوا

(١) حسين مونس ، نفس المرجع ، ص ١١١ .

قوة كبرى في البحر الأبيض المتوسط . وبدأ قنسطانز سياسته الجديدة بأن نقل عاصمته إلى جزيرة صقلية ، حيث يستطيع من هذا المقر الآمن البعيد عن متناول الإغارات الإسلامية إعادة تنظيم صفوفه . واستهدف في الخطوة الجديدة ربط ما تبقى لدولته من أملاك بايطاليا مع إفريقية البيزنطية ، وتوجيههما إلى صد الزحف الإسلامي الذي أخذ يمتد إلى هذا الشطر من أملاك دولته (١) .

واتبع الامبراطور قنسطانز سياسة لم تؤد الغرض المنشود ، فلما أن وصل صقلية . حتى عول على معاقبة البابا مارتن بروما لتشجيعه جرجير من قبل على الانفصال عن الدولة البيزنطية . فبعث جنداً قبضت على البابا ثم نفاه . وأعقب ذلك بإغضاب أهل شمال إفريقية من البربر المسيحيين بسبب سياسته الدينية والمالية . إذ تابع سياسة أسلافه من قبل باضطهاد البربر بسبب عقيدتهم الدينية ، وغالاً في فرض الضرائب عليهم ليملاً خزائنه بالمال . وأخذ من عاصمته الجديدة سيراكوز بصقلية يسترد بعض الأقاليم التي دانت للمسلمين في شمال إفريقية ، ويطبق عليها سياسته المجحفة . ونجم عن ذلك أن عم السخط البلاد ودبرت مؤامرة للتخلص منه نجحت في ١٢ يوليو سنة ٦٦٨ م ، إذ اغتيل الامبراطور في عاصمته الجديدة ، وقبر معه مشروع تقوية الجبهة الغربية من امبراطوريته (٢) .

ولم تقتصر نتائج سياسة قنسطانز على إثارة السخط فحسب ، وإنما حملت البربر كذلك على الاستمجاد بالمسلمين وتخليصهم من النير البيزنطي . وجاء هذا النداء في الفترة التي عول فيها الخليفة معاوية على استئناف الجهاد ضد البيزنطيين بشمال إفريقية . وكان عمرو بن العاص والى مصر قد توفي سنة ٦٤٣ هـ / ٦٦٤ م وكان يشرف على شؤون إفريقية إلى جانب ولاية مصر . فنصب الخليفة معاوية عقبة بن عامر

(1) Vasiliev, Histoire de L'Empire Byzantin I, 282

(2) Bury, op' cit, 302, 303

الجهننى على مصر ، وخصص لشئون شمال إفريقيا معاوية بن حديج^(١) إذ نصبه على قيادة الجيوش التى أعدها لفتح تلك البلاد ، وتولى إمارة ما يفتحه منها . كـخرج معاوية بن حديج من مصر سنة ٤٥ هـ / ٦٦٦ م على رأس جيش كبير يضم عدداً عظيماً من الصحابة والتابعين . وسار على طول الساحل حتى وصل سهل تونس ، ونزل عند مكان يدعى قونية ، التى يرجح أنها الموضع الذى شيدت عليه مدينة القيروان فيما بعد . وكان البيزنطيون قد علموا بزحف معاوية بن حديج على شمال إفريقيا ، فأعدوا جيشاً كبيراً بقيادة رجل يدعى تقفور ، نزل فى تلك البلاد ، ليصد زحف المسلمين . ولكن البيزنطيين أدركوا قوة المسلمين وعجلوا بالانسحاب بحراً بعد المناوشات الأولى^(٢) .

وسار معاوية بعد ذلك شمالاً^(٣) قاصداً مدينة بنزرت . ويلاحظ أن معاوية فضل الاتجاه إلى هذه المدينة متجنباً الهجوم على قرطاجنة ، ويبدو أنه أثر الاعتماد عن المدينة الأخيرة لقوتها ومنعتها ، حيث كانت معقلاً قوياً للبيزنطيين . ولذا لم يكن هجومه على بنزرت ليؤثر كثيراً فى مصائر الفتح الإسلامى لهذه البلاد . على أن معاوية استطاع فتح هذه المدينة ، ولقى من بعض أهالى البلاد القريبة منها عطفاً ومساعدات^(٤) . وهذه الظاهرة من الأمور الهامة التى ستتمو وتترعرع فيما بعد إبان الحملات الإسلامية التالية الأخرى . إذ كان ترحيب الأهالى بالمسلمين مما ساعد الجيوش الإسلامية على القضاء على البيزنطيين رغم السكر والفر الذى تبادلته الطرفان على امتداد شمال إفريقيا .

ولم يعمل معاوية على تدعيم هذه الفتوحات الإسلامية قبل عودته إلى مصر ،

(١) كان معاوية بن حديج من كبار القواد فى جيش عبد الله بن أبي سرح سنة ٦٥٥ هـ / ٦٥٥ م ، ومن أنصار عثمان بن عفان ، وبذل جهوداً كبيرة فى نصرة معاوية فى النضال الذى تلا مقتل الخليفة عثمان . وقد كافأ الخليفة معاوية هذا القائد بأن عهد إليه فتح شمال إفريقيا .

(٢) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ١٩٣ .

(٣) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ١٩٣ .

(٤) البكرى ، المغرب ، ص ٥٨ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١١ .

إذ اكتفى بهذا القدر من الفتوحات وقفل راجعاً في أوائل سنة ٤٧ هـ. وخرجت المدن التي فتحها عن طاعة المسلمين بعد عودته ، مما جعل حملته لا تتمخض عن نتائج لها أهميتها في فتح شمال إفريقيا . ولكن لم تلبث موجة الفتح الحقيقي أن بدأت بالحملة التي تلت أعمال مساوية بن حديج ، وكانت بطل هذا الفتح رجلاً عرف شمال إفريقيا وطالت خبرته بها وبأحوالها .

عقبة بن نافع الأولى :

تعتبر حملة عقبة بن نافع الفهري حداً فاصلاً بين عهد الاغارات الإسلامية السريعة على شمال إفريقيا وعهد الفتح المنظم المستقر لهذه البلاد . إذ قام بعدة أعمال في ذلك الميدان تعد الحجر الأول في بناء إفريقيا الإسلامية ، رغم أن حملته بدت كسابقتها من الحملات الإسلامية إغارة سريعة طويلة المدى ، بلغت شاطئ المحيط الأطلسي ثم عادت أدراجها إلى قواعدها الأولى . إذ تركت حملة عقبة ورائها آثاراً جعلت قلوب المسلمين تتعلق بشمال إفريقيا ، وتعتبره قطراً من دولة الإسلام يجب طرد البيزنطيين تماماً منه وضمه إلى أرضهم .

ويعزى نجاح عقبة في وضع الأسس الأولى لبناء دولة المسلمين بشمال إفريقيا إلى خبرته الواسعة بشئون هذا الإقليم . فقد عرف أحواله منذ ولاية عمرو بن العاص الأولى ، كما دان بظهوره على مسرح التاريخ الإسلامي في هذا الميدان إلى تلك الفترة المبكرة من ولاية عمرو على مصر . فكان عقبة قرشياً من فهر يقصّل بعمرو بصلّة قرى من ناحية أمه^(١) . وعرف عمرو فيه المقدرة والشهامة ، ووثق به ثقة كبرى . فعهد إليه باستطلاع أحوال برقة ، ثم عينه عليها سنة ٢٣ هـ / ٦٤٣ م أثناء زحفه على طرابلس . ولبت عقبة مقيماً ببرقة حتى حملة عبد الله بن أبي سرح

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ٤٢٠ : (art Okba) Encyc. of Islam

سنة ٢٧ هـ / ٦٤٧ م ، ثم عاد إلى مصر حين رجع عبد الله بن أبي سرح سنة ٢٨ هـ / ٦٤٨ م . وقد تركت السنوات الست التي قضاها عقبة ببرقة أثراً كبيراً في نفسه . إذ صرف هذه الفترة في التنقل بين قبائل البربر وواحاتهم ، مما جعل همته تتعلق بالفتح والغزو ، وغدا شخصية لا تعرف شيئاً غير الجهاد في سبيل الله .

(١) وأدرك عقبة من تجار به ببرقة أن فتح المغرب لا يتم إلا إذا أنشأ المسلمون لهم في قلب شمال إفريقيا مركزاً عسكرياً فيه حامياتهم ، ويتخذوه قاعدة لمتابعة الغزو . وعهد إلى تحقيق هذا الهدف عندما كلفه معاوية سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م بالزحف على شمال إفريقيا . وما كاد عقبة يتلقى الأمداد والجيوش حتى اتجه إلى أرض المغرب ، واتبع الطريق الداخلى الذى لا توجد به إلا مقاومة ضئيلة من البربر وسكان الواحات ، ووصل إلى موضع قونية الذى عسكر فيه معاوية بن حديج من قبل .^(١)

وولى عقبة عنايته حالما وصل قونية إلى تأسيس مقر للمسلمين لتدعيم فتوحاتهم . وجاء اهتمامه ولید تجار به ومشاهداته في أرض المغرب ، إذ قال لجنده حين شرح لهم الأسباب التي تدعوه إلى تأسيس معسكر لهم مستقر ، أن أهالي إفريقيا لا يعتقدون الإسلام إلا إذا دخلها قائد مسلم « فإذا خرج منها رجوع من كان أسلم بها ، وارتد إلى الكفر ، وأرى لكم — يا معشر المسلمين — أن تتخذوا بها مدينة نجعل فيها عسكرياً ، وتكون عز الإسلام إلى آخر الدهر . »^(٢)

وأخذ عقبة يبحث عن مكان يشيد فيه معسكره ، ولم يعجبه موضع قونية نفسه الذى سبق أن عسكر فيه معاوية بن حديج . فأخذ يتجول في منطقة قونية بحثاً عن مكان يليق بما في نفسه من أهداف . وكانت هذه المنطقة عبارة عن

(١) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ١٩٦ .

حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ١٣٩ .

(٢) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٦ .

جهات فسيحة ، بها كثير من الزرع ، كما كانت خاصة بالحصون البيزنطية . وفي بقعه بالقرب من قونية وجد حصناً قديماً يدل بقاياه على آثار عز سالف ، ولكن أدركه الخراب أوائل القرن السابع وهجره أهله) وسكنته بعض الذئاب والضباع وما إلى غير ذلك من أشباه هذه الحيوانات . ووقع اختيار عقبة وصحبه على هذا الحصن وحطوا رحالهم بالقرب منه ، وأخذوا يستعدون لتخطيط مدينتهم إلى جواره . ففرغت الضواري من حركة الجيش وولت الأدبار هاربة (١) .

(ويعزى إعجاب عقبة بموضع هذا الحصن إلى أنه بعيد عن الساحل مما يجعله آمناً عن إغارات البيزنطيين المفاجئة من البحر ، كما أنه يقع بالقرب من أرض ترعى فيها الماشية في مأمن من هجمات البربر النصاري من أحلاف البيزنطيين .) وأثبتت الأحداث صدق فراسة عقبة في انتقاء الموضع الذي شيد عليه معسكره (إذ كان موقعه الحربى ممتازاً ، حيث يستطيع الحاكم المقيم به أن يدير دفعة عملياته في سهولة ويسر . فهو يستطيع أن يرى العدو من بعيد ويأخذ حذره منه ، كما يتمكن من مطاردة البربر وتعقبهم في أعالي الهضبة لأن الموقع يسيطر ويتحكم في سائر الوديان الهامة التي تخترق الهضبة .)

(وبدأ عقبة بتخطيط المدينة التي عرفت باسم القيروان (٢) ، فشيد دار الإمارة والمسجد أولاً ، وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم حولها (٣) .) وقد غدت المدينة على عهده أشبه بمخزن للسلاح ، ولكن أخذت في هذه الفترة المبكرة تلعب دوراً هاماً في أحداث الفتح الإسلامى ببلاد المغرب ، إذ كان تأسيس القيروان الخطوة الأولى العملية في القضاء على نفوذ البيزنطيين بشمال إفريقيا ، حيث

(١) المالكي ، نفس المرجع ، ص ٦ ، ٧ ؛ Encyc. of Islam (art Kairawan) .

(٢) القيروان لفظ فارسى معرب ، ومعناه قافله أو مراح القوافل ، وكان العرب يستخدمون هذه الكلمة زمن الجاهلية (انظر حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١٥٣) .

(٣) المالكي . نفس المرجع ، ص ٧ ، ٨ .

دعمت أقدام المسلمين وسط ولاية إفريقية البيزنطية ، التي تحسنت بها معظم حصون البيزنطيين ومعاقلهم .

ولم يبد البيزنطيون أى نشاط لهرقلة عقبة عن الاستمرار فى بناء هذه المدينة ، إذ قضى أربع سنوات فى تخطيطها دون أن يحرك البيزنطيون فى قرطاجنة التى تبعد عن القيروان مسيرة ثلاثة أيام ساكنها ، كما لم يدركوا خطورة ظهور هذا المعقل الإسلامى باقرب منهم . ولكن يعزى السبب فى هذا التقاعد إلى أن الدولة البيزنطية عجزت عن بسط يد المساعدة لأبنائها بشمال إفريقيا ، لانشغالها بالدفاع عن عاصمتها . فقد عاصرت أعمال عقبة فى شمال إفريقيا وتأسيسه القيروان الحصار الثانى الذى ضربه معاوية حول القسطنطينية ، وهو المعروف بحرب السنوات السبع .^(١)

ولكن عقبة لم ينعم بثمار جهوده ، إذ تطلع والى مصر إذذاك مسلمة بن مخلد (٤٧ هـ / ٦٦٨ م) إلى ضم ولاية إفريقية الى دائرة نفوذه بمصر . ووافق الخليفة معاوية على طلب مسلمة^(٢) ، حيث كان من كبار أنصار معاوية أثناء فتنة عثمان بن عفان . ولما ولى مسلمة شئون شمال إفريقيا عزل عقبة ، وبعث قائداً جديداً يدعى دينار أبو المهاجر ليحل مكان عقبة^(٣) . وقد عاد الأخير الى دمشق مغيظاً حيث كان قد أخذ يعد العدة لاستئناف الفتح بعد فراغه من بناء القيروان .

(١) Deihl, L'Afrique, 573

(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١١١ .

(٣) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ١٩٧ ؛ السلاوى ، الاستقصاء ، ص ٣٧ .

التحالف البيزنطي البربري

محمدة دينار أبو المهاجر (٥٥ - ٦٢ هـ / ٦٧٤ - ٦٨١ م)

عاصرت بداية حملة دينار أبي المهاجر^(١) انقلابا في السياسة البيزنطية تجاه البربر، كان لها أبعاد الآثار في وضع الصعاب أمام فتح المسلمين لبلاد المغرب . اذ استطاعت الدولة البيزنطية في الفترة التي عزل فيها عقبة أن تستعيد نشاطها ، حيث انتهى الحصار الأموي الثاني لمعاصمتها . وكان الامبراطور البيزنطي إذ ذاك هو قنسطنطين الرابع ، الذي أخذ يدرس الأسباب التي أدت إلى ضعف دولته ويعمل على إزالتها . وتبين قنسطنطين أن علة الفساد في دولته وضعفها هو العداء المذهبي والسياسة الدينية الاضطهادية التي اتبعتها السلطات البيزنطية إزاء أهالي ولاياتها المخالفين لها في العقيدة الدينية . ورأى قنسطنطين نتائج هذا الاضطهاد في إفريقية البيزنطية ، إذ كان البربر المسيحيون يضمرون الكراهية والبغضاء للدولة ويتمنون زوال سيادتها عنهم .

بادر قنسطنطين باتخاذ خطوة هامة ليتقرب إلى أولئك البربر ولضمهم إلى جانب قواته في نضالها ضد المسلمين . فجمع مجلسا دينيا سنة ٦٨٠ م نجح في وضع حد للخصومات المذهبية^(٢) التي فرقت بين الدولة البيزنطية وبين ما تبقى لها من رعايا بشمال إفريقيا وإيطاليا . وجنى الامبراطور قنسطنطين ثمار هذا المجلس الديني ، إذ زال ما عند البربر المسيحيين من عوامل الكراهية نحو الدولة البيزنطية وبدأوا يعملون على شد أزرها ومناصرتها في حربها مع المسلمين .

(١) اغفل الكتاب سيرة دينار أبو المهاجر لأن حملته وقعت بين حملتين كبيرتين قام بهما عقبة بن نافع . ولكن يرجح أنه كان من أهل مصر ، أعنته مسلمة بن مخلد والي مصر ، وقربه اليه لذكائه ومهارته .

(٢) Diehl, op cit, 57(i).

ووجد بذلك تحالف بين البربر المسيحيين والبيزنطيين بشمال إفريقيا ،
وظهر تعاونهم جنيا خلال الحملات الإسلامية التي تلت عزل عقبة ، واصطدم
بتحالفهم الأول دينار أبو المهاجر . ولكن يلاحظ أن هذا التحالف لم يكن
واسع النطاق ، إذ ظل البربر البدو بمعزل عنه ، ولم يدخل تحت لواءه إلا البربر
المسيحيون ، ولا سيما أولئك الذين تأثروا بالحضارة البيزنطية . على أن القائد المسلم
دينار أبو المهاجر استطاع أن يواجه هذا التحالف البيزنطى البربرى بحزم وكياسة
وتمكن أن يقلل من الفوائد التي عمدت الدولة البيزنطية إلى الحصول عليها .

وعندما وصل دينار أبو المهاجر ضواحي القيروان أحس تبديلا في نشاط البربر ،
إذ كانوا من قبل لا يبدون مقاومة في مناهضة الحملات الإسلامية . وأدرك أن
المغرب الأوسط ولا سيما المنطقة الواقعة بين تاهرت ووهران والتي تتوسطها تلمسان
هى مقر نشاط البربر الجديد . فكانت هذه المنطقة أسرع الجهات استجابة لسياسة
البيزنطيين ، لأنها موطن البربر الذين تأثروا منذ زمن قديم بالحضارة البيزنطية .
وأقام فى مرتفعات تلمسان والمنطقة المجاورة لها منذ أواخر العصر البيزنطى أقوى
قبائل البربر المسيحيين وهى قبيلة أربة ^(١) .

وعرفت قبيلة أربة نوعا من الزعامات القوية ، كساد أفرادها النظام والطاعة
للرؤساء . وكان يتولى أمرهم فى الفترة التي وصل فيها دينار أبو المهاجر إلى القيروان
شيخ يدعى كسيلة وأخذ هذا الزعيم يتحرى رض من البيزنطيين يجمع القبائل البربرية
ويحشد لها لمواجهة زحف المسلمين الذى اقترب من موطنهم الأصلي . وهكذا
أخذ أصبع البيزنطيين يندس بين البربر المسيحيين ويحركهم ضد المسلمين بعد
أن كانوا لا يفكرون فى مقاومتهم . وبادر القائد المسلم دينار أبو المهاجر إلى
مهاجمة أولئك البربر فى مقرهم ليقضى على تجمعاتهم ، ويحد من شوكتهم رغم بعد
البشة بينهم وبينهم ^(٢) .

(١) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٤٦ .

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ١٦٦ .

وهمل دينار أبو المهاجر وجيشه إلى المنطقة المحيطة بتلمسان ، مقر حركة المقاومة البربرية ، واصطدم بالبربر هناك . ولكن القائد المسلم لم يقس في حربه مع كسيلة حيث استخدم السياسة في كسب هذا الزعيم البربري إلى جانبه . ولذا عندما هزم كسيلة وأسرع عامله دينار أبو المهاجر معاملة حسنة ، حتى قام نوع من المودة والصداقة بينهما . فأسلم كسيلة ، وانضم إلى جيش المسلمين يعاونهم في حرب البيزنطيين^(١) .

ويعتبر دينار أبو المهاجر واضع الحجر الأساسي في سياسة فهم البربر عن البيزنطيين وتحطيم التحالف الذي قام بينهما . وآثر في كل أعماله إظهار عطفه واحترامه للسكان الأصليين ، وبين بجلاء أن هدف المسلمين تخلص بلاد البربر من نير البيزنطيين . ويبدو أن البيزنطيين في المدن الساحلية اكتفوا بتحريض البربر على المسلمين دون التصدي لهم . واستفاد دينار أبو المهاجر من ذلك ، إذ بعد أن انتهى من القضاء على حركة البربر سار قاصداً قرطاجنة أقوى المدن البيزنطية بشمال إفريقيا .

حاصر المسلمون مدينة قرطاجنة سنة ٥٩ هـ / ٦٧٨ م ، وقتلوا أهلها قتلاً شديداً دون أن يستطيعوا الاستيلاء عليها . على أن دينار أبو المهاجر رفض أن يرفع الحصار عنها إلا بعد أن تنازل البيزنطيون له عن جزيرة شريك . وكانت هذه السياسة بارعة من القائد المسلم ، فلم يقبل أن يترك قرطاجنة وحصارها مقابل مبلغ من المال ، وإنما طلب تنازلهم عن جزء من بلادهم . وضمن بذلك وضع شوكة تهدد عاصمة البيزنطيين بشمال أفريقيا . إذ أرسل قائدة حنش الصفاتى ومعه شطر من الجيش الإسلامى ليعسكر بهذه الجزيرة ، وأوجد بذلك حارساً يهدد قرطاجنة نفسها ويرقب أعمال البيزنطيين بها ، ويمنعهم من التقدم نحو الجنوب إذا حدثتهم أنفسهم بالهجوم على القيروان^(٢) .

(١) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٤٦ . Mercier, L'Afrique, 204.

(٢) الماسكي نفس المرجع ، ص ٢٠ ؛ حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ١٧٢ .

عاد دينار أبو المهاجر إلى مقره الذي اتخذته بالقرب من القيروان بعد أن أمضى نحواً من عامين في جهاد البيزنطيين ، ونجح في تحقيق أهدافه بفصم عرى التحالف بين البربر والبيزنطيين . واستطاع في حملته أن يكسب إسلام زعيم كبير من رجال البربر وهو كسيلة . وطبعاً أنه نهج على منوال كسيلة كثير من البربر ودانوا بالإسلام . ولكن تقلب السياسة في الدولة الإسلامية لم يمكن ديناراً أبو المهاجر من تحقيق أهدافه إلى نهايتها ، إذ عزل عن ولاية إفريقية وخلفه عقبة بن نافع مرة أخرى .

صحة عقبة بن نافع الثانية (٦٢ — ٥٦٣ / ٦٨١ — ٦٨٢ م)

كان عقبة يعمل جاهداً في دمشق منذ عزله عن ولاية إفريقية على العودة إلى هذا الميدان الذي قضى به سنوات كثيرة من زهرة عمره وتعلق قلبه به . وقد حانت الفرصة له حين توفي مسلمة بن مخلد على عهد الخليفة يزيد بن معاوية . إذ استجاب يزيد لرغبة عقبة وبعثه على رأس أمداد كبيرة إلى الجبهة الإفريقية في سنة ٥٦٢ / ٦٨١ م . ووصل عقبة إلى حاضرتة القيروان وجدد عمارتها ، حيث أصابها بعض الخراب لإهمال دينار أبو المهاجر لها . وقد دخل هذا القائد في خدمة عقبة^(١) ، وسار معه في فتوحاته بشمال إفريقيا . ولكن عقبة لم يحاول الاستفادة من خبرة هذا القائد ولا سيما من حيث استرضاء البربر . إذ غاب عن عقبة أن أحوال إفريقية قد تبدلت تبديلاً جوهرياً منذ حمله الأولى ، ولم يدرك كنه التحالف الذي نشأ بين البربر والبيزنطيين بعد سياسة قنسطنطين الرابع الدينية . وقد سار عقبة على سياسته القديمة في محاولة التوغل داخل بلاد البربر دون أن يستميلهم إليه ، وتجلت هذه السياسة القديمة في علاقته مع كسيلة زعيم البربر ،

(١) أبو الحسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٧٧ ؛

ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ١٩٨ .

الذى اعتنق الإسلام على عهد دينار أبى المهاجر . فقد أخذ عقبة هذا الرجل معه فى حملاته دون أن يظهر له العطف والتقدير على نحو ما فعل سلفه . ومن ثم تغير قلب كسيلة على عقبة ، ولعب دوراً كبيراً فى القضاء على مجهوداته ، حين جاءته الفرصة المناسبة أثناء الحملة .

فقد زحف عقبة من القيروان على شمال إفريقيا عبر الطريق الداخلى البعيد عن الساحل ^(١) . ولكن التحالف البربرى البيزنطى تصدى له عند المدن الهامة وأخذ يطمر آبار المياه فى طريقه . وزاد فى مقاومة البربر مراسلة كسيلة لهم سرّاً ، وحثهم على تنظيم صفوفهم . على أن عقبة تغلب على ما واجهه من صعاب حتى بلغ طنجة ، حيث قدم له حاكمها فروض الطاعة .

عاد عقبة بعد ذلك قاصداً القيروان ^(٢) التى خلف عليها من قبل زهير بن قيس البلوى . واختار لعودته نفس الطريق الداخلى الذى سلكه من قبل متجنباً طريق الساحل . وكان طريق العودة مليئاً بالأخطار والخواف ، حيث استطاع كسيلة أن يفر من جيش عقبة ، وأعد البربر للغدر به . وأحس عقبة بما كان يدبر له ، فعجل بالسير حتى وصل مدينة طنجة . وهناك أمر معظم جيشه بالذهاب رأساً إلى القيروان ، إذ أحس فساد المياه فى الآبار التى مر عليها ، وبقي مع جزء يسير من قواته لحماية مؤخرته .

ورأى البربر والبيزنطيون فرصتهم قد سئحت للغدر بعقبة بعد أن سبقه معظم جيشه ، فانسحبوا أمامه متجهين إلى الجنوب الغربى فى اتجاه تهودة ، وأغروه على أن يقتنى أثرهم ، متظاهرين بقلّة عددهم . وعند حصن قديم بيزنطى بالقرب من تهودة تحصن كسيلة ، حيث كان البيزنطيون قد استعدوا هناك كذلك ^(٣) .

(١) السلاوى ، الاستقصا ، ص ٣٨ .

(٢) السلاوى ، الاستقصا ، ص ٣٨ .

(٣) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٠٩ ، ١٤٦ .

وبادر عقبة بالمحجوم على الحصن ليقضى على البيزنطيين وأحلافهم ، ولكن ما أن اقترب منه حتى أحاط به البربر من كل مكان وضيقوا الخناق على القوات الإسلامية . على أن عقبة قاوم في شجاعة مما جعل المعركة حامية الوطيس ، ولكن لم يلبث أن استشهد في ساحة القتال ومعه كثير من كبار رجال جيشه ومن بينهم دينار أبي المهاجر ، ووقع كثير من باقي المسلمين أسرى^(١) . وقد نجم عن هذه المعركة نتائج كان لها أبعاد الأثر على مجريات الفتوح الإسلامية فيما بعد . إذ اقتدى بعض كبار الشخصيات من رجال البربر نفرا من الأسرى المسلمين ، مما يدل على أن الإسلام كان قد دخل قلوب بعض البربر وآمنوا به وكان معظم أولئك البربر الذين مالوا إلى الإسلام من القبائل البدوية البعيدة عن الحضارة البيزنطية^(٢) . ولما بلغ زهيراً نبأ مأساة تهودة ، أخذ يستعد للأخذ بثأر عقبة ، ولكن الجهد كان قد نال من الجند الإسلامي ، وآثروا العودة إلى مصر . فلم يجد زهير بداً من الانسحاب بالجيش الإسلامي إلى برقة سنة ٦٥ هـ ، وظل هو مقيماً بها تتوق نفسه للعودة إلى الميدان واسترداد شمال إفريقيا^(٣) . إذ أحس زهير كما أحس غيره من المسلمين أنهم ارتدوا عن بلد من بلادهم ، تركوا بها قيرواناً ومساجداً ، وجماعات تعتنق الدين الإسلامي . وهكذا أنبت دم عقبة بذور دوحة المسلمين بشمال إفريقيا ، وقام زهير بن قيس البلوي بالإشراف على رعاية هذه الدوحة في عهدها الأول^(٤) .

محمد زهير بن قيس البلوي :

بعد معركة « تهودة » وارتداد المسلمين إلى برقة دخل كسيلة القيروان

(١) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ١٩٨ ؛ Fournel, op cit, 16

(٢) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٤٧ ؛

حسين مؤنس نفس المرجع ، ص ٢٠٠

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ١ ، ص ١٧٨ ؛ Mercier, op cit, 211

(٤) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ١٨٨ .

واحتلتها ، وبدأ كأنما عادت الأحوال بشمال إفريقيا إلى سابق عهدها قبل الفتح الإسلامي . إذ قام في سهل تونس ما يشبه دولة بربرية مسيحية . ولكن تلك الدولة الجديدة افتقرت إلى الوحدة والتماسك . فلم يكن كسيلة وأتباعه سادة شمال إفريقيا بعد ارتداد المسلمين ، كما أنه لم يكن الحاكم المطلق على سائر القبائل التي أحاطت بالقيروان ، ولا سيما قبائل البربر البدوية ^(١) .

وتعزى الظاهرة السالفة إلى أن الحملات الإسلامية المتكررة على شمال إفريقيا خلفت ورثها بدو من البربر يعتقدون الإسلام ، وأظهروا عطفهم على المسلمين ، كما قدموا لهم خدمات جليلة أثناء الفتح . ولم يخلد أولئك البربر إلى السكون والدعة بعد ارتداد المسلمين . وإنما أعلنوا عصيانهم لكسيلة ، وأبوا إطاعة أوامره . إذ كان البربر البدو ينظرون إلى البربر المسيحيين على أنهم حلفاء البيزنطيين ، وأداتهم في قضاء مآربهم بشمال إفريقيا . ولذا ظل البربر المسلمون على ولائهم للدولة الإسلامية ، وانتظروا عودة الجيوش الإسلامية لشد أزرها في طرد البيزنطيين وتأديب البربر الموالين لهم .

وكان كسيلة يدرك قوة البربر المسلمين ، وما هم عليه من منعة وعزة ، وأن البلاد التي يسيطر عليها ليست خالصة الولاء له . ومن ثم أثر الاحتفاظ بحسن الجوار مع البربر ولا سيما المقيمين منهم في القيروان ، فلم يتعرض بأي أذى المسلمين في القيروان رغم أن وجودهم كان يحمل في طياته أخطاراً كبيرة على سلامته وسلامة دولته . وظل كسيلة متجنباً الأسباب التي قد تثير عليه غضب البربر المسلمين ، حيث كان لهم أنصار عديدون متفرقون في أنحاء البلاد ^(٢) .

ولذا أخذ كسيلة ينظم دولته معتمداً على مساعدات البيزنطيين . وقد رأت الدولة البيزنطية أن انسحاب المسلمين بعد واقعة « تهودة » خير فرصة لاقتسام

(١) حسين مونس ، نفس المرجع ، ص ٢١٠ .

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٢ .

مناطق النفوذ بشمال إفريقيا مع حليفهم كسيلة . وكانت الدولة البيزنطية إذ ذاك طليقة اليد في تنفيذ أغراضها في هذه البقعة من إفريقيا ، إذ كان المسلمون في شغل ببعض المشاكل الداخلية التي واجهت بداية عهد الخليفة عبد الملك ابن مروان . فاستطاعت القوات البيزنطية بالمدن الساحلية بشمال إفريقيا أن تستعيد ما كان للدولة من أملاك في هذه البلاد ، ودعمت أقدامها فيها لمقاومة أى زحف إسلامي في المستقبل^(١) .

وكان زهير بن قيس البلوى يعمل جاهدًا منذ عاد إلى برقة سنة ٦٥ هـ / ٦٨٤ م على استنهاض الخليفة عبد الملك بن مروان لإعداد جيوش يسترد بها شمال إفريقيا . واستطاع الخليفة رغم انشغاله بمورة عبد الله بن الزبير أن يعد في سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م جيشاً عظيماً أمر عليه زهير بن قيس البلوى وبعثة لاسترداد شمال إفريقيا . ويعتبر إقدام الخليفة عبد الملك على اتخاذ هذه الخطوة ، وهو لا يزال في غمرة مشاكلة الداخلية ، دليلاً على أن الخلافة نظرت إلى شمال إفريقيا على أنه قطر إسلامي تهتم به الدولة الإسلامية اهتمامها بأمور العراق والحجاز^(٢) .

وكان زهير يعرف الميدان الإفريقي منذ سنة ٤٣ هـ / ٦٦٣ م حيث صحب عقبة بن نافع في جهاده وفتوحه ب تلك البلاد . ثم إن عقبة ولاءه على القيروان حين قام بزحفه الواسع المدى ، والذي استشهد بعد عودته منه . ولذا استطاع زهير أن يوفق في زحفه ، إذ سار من مصر على رأس جيشه العظيم الذي ضم عدداً كبيراً من عليّة القوم في الشام ومصر . وما أن عبر زهير إقليم برقة حتى انضم إليه كثير من البربر الجنوبيين أو البدو الذين أشربت نفوسهم حب الإسلام . ومن ثم انحصرت المقاومة في قبائل البربر الشماليين الذين كانوا متحالقين مع البيزنطيين^(٣) .

(١) Dieh, op cit, 519.

(٢) حسين مونس ، نفس المرجع ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٣) ابن عذاري ، نفس المرجع ، ص ١٦ .

وما أن ترامت أنباء الزحف الإسلامي الجديد على شمال إفريقيا حتى استولى
الفرع والخوف على كسيلة ، وكان مقبلاً إذ ذاك بالقيروان . ورأى أن المقام بهذه
المدينة لا جدوى منه ، إذ بها جماعات من المسلمين ، ويخشى أن تنور عليه
في الوقت الذي يحاصر فيه زهير المدينة . فوقع اختياره على قرية تدعى ممس^(١) ،
لقربها من الهضبة وجبال أوراس ، ولاتصالها بقبائل البربر المسيحيين فيهما ،
وبذلك يستطيع كسيلة أن يحصل على الأمداد والمؤن اللازمة لنضال المسلمين ،
وإذا انهزم فرّ إلى الجبال واعتمدهم بها بعيداً عن متناول المهاجمين^(٢) .

على أن زهيراً رسم خطة حربية كفلت له الفوز ، إذ رأى أن يبادر بالهجوم
على البربر الخاضعين لكسيلة أولاً ، ثم ينازل البيزنطيين بعد ذلك . وكان زهير
يقصد من خطته تجنب النضال في جبهتين وتشيت قواته تبعاً لذلك . وساعده
على تنفيذ خطته بنجاح أن البيزنطيين آثروا أن يتركوا المسلمين يحاربون البربر
مستهدفين أن يضعف النضال قوى الفريقين ، وإذا ما تغلب أحدهما على الآخر
يهاجمون المنتصر ، ويستردون البلاد منه قبل أن يستعيد قوته . على أن هذه
الأنانية البيزنطية تمخضت عن نتائج خطيرة ، جنى البيزنطيون ثمارها فيما بعد ،
إذ فقدوا إلى الأبد قوة البربر مما عجل بالقضاء عليهم بعد ذلك .

وزحف المسلمون على ممس بحماس رائع لإعلاء كلمة الإسلام والأخذ بشأرقبة .
ودارت رحى معركة عنيفة أبلى فيها المسلمون بلاءاً حسناً ، حتى كتب لهم النصر
وقتل كسيلة على أرض المعركة ، دون أن يتمكن من الهرب كما رتب لنفسه من
قبل . إذ أحسن زهير سد المنافذ والمعابر المؤدية إلى الهضبة مما جعل الفرار غير
مستطاع ، وقضى على مقاومة البربر تماماً .

(١) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ص ١٦ .

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

وقفل زهير عائداً إلى القيروان^(١) بعد أن حقق هدفا عظيما في الفتح الإسلامي لشمال أفريقيا . إذ كان انتصار زهير حدا فاصلا بين نشاط البربر السابق لواقعة عمس والنشاط الذي تلاها . فقد ترك البيزنطيون حلفاءهم البربر يتلقون وحدثهم أشد الضربات قوة ، مما جعل التحالف القائم بينهما ينتهي بخروج البربر من الميدان . وغدا الموقف في شمال أفريقيا قاصراً على المسلمين والبيزنطيين وحدهم . وجاءت الأحداث بعد ذلك تنبه المسلمين إلى تعجيل ضرباتهم للبيزنطيين ، حيث رأوا فيهم الغدر وانتهاز الفرص للاطاحة بالجهود الإسلامية في شمال أفريقيا . على أن البيزنطيين استهدفوا من وقوفهم موقف الحياد في الصراع الذي نشب بين زهير والبربر المسيحيين تنفيذ أمر بيتوه لإفساد أعمال المسلمين . إذ تركوا المسلمين يطيلون خطوط تموينهم لقطع خط الرجعة عليهم في سهولة ويسر . ولم يتنبه زهير لمثل هذه الأعمال المفاجئة التي قد يقوم بها البيزنطيون . وقد جاء الخطر من ناحية القوة البحرية البيزنطية ، إذ اتصل البيزنطيون في مدن الساحل الأفريقي بالسلطات المركزية في القسطنطينية وزودوها بمعلومات عن سير المسلمين . وانفق الفريقان على حضور أسطول بيزنطي يحط رحاله عند برقة ، ويفاجيء الحامية الإسلامية بها ويأسرها ، ثم يهسك البيزنطيون بالقرب من الساحل للهجوم على جيش زهير فجأة وهو ^ثطريق عودته إلى مصر .

وكان زهير قد فرغ إذ ذاك من مهمة إخضاع البربر للوالين للبيزنطيين ، ثم أخذ يعد العدة للرجوع إلى برقة . وكانت غالبية الجيوش الإسلامية حتى ذلك الوقت تعود إلى مصر بعد أن تنتهي من مهمتها في شمال أفريقيا . ووقع زهير في خطأ أشبه بما تردى فيه عقبه . إذ سمح لجنده بأن يعجلوا بالعودة إلى مصر على حين سار هو في المؤخرة . وعندما اقترب من برقة علم أن البيزنطيين قد نزلوا ساحلها ، ولم يتوقع زهير أن يجد البيزنطيين مستعدين في قوة عظيمة ، إذ اعتقد أن سفنا

(١) ابن خلدون ، نفس المرحم ، ج ٦ ، ص ١٤٧ .

ضئيلة من أسطولهم قد رست بشواطئ برقة ، ولا ضمير من مهاجمتها والاستيلاء عليها^(١) .

وذهب زهير إلى الساحل على رأس نفر يسير من قواته ليستطلع الأخبار ، فوجد البيزنطيين في سفن كبيرة كثيرة العدد ، ومعهم عدد كبير من أسرى المسلمين . ولم يسكد هؤلاء الأسرى يرون زهير حتى استغاثوا مستنجدين به . فأخذت الحمية زهير ومن معه وأسرعوا بمهاجمة السفن البيزنطية لتخليص المسلمين الأسرى . ولكن البيزنطيين كانوا قد أعدوا معسكرا على الساحل بعيداً عن أعين المسلمين ، إذ ما كاد زهير يبطأ أرض الساحل حتى فاجأه جنده هذا المعسكر البيزنطي ، ودارت رحى معركة عنيفة أحاط فيها البيزنطيون بزهير وأتباعه . ولكن زهيراً أبدى من ضروب الشجاعة والبسالة ما جعل استشهاد^(٢)ه في ساحة القتال لا يقل روعة عن استشهاد عقبة في واقعة « تهودة » .

وكان لاستشهاد زهير بأرض برقة نتائج بعيدة المدى على مجرى الفتوحات الإسلامية بشمال أفريقيا ، إذ رأى المسلمون أن عدوهم الحقيقي هو الدولة البيزنطية ورعاياها بالمدن الساحلية ، وأن الجهود يجب أن تركز للقضاء عليهم . وجاء هذا التطور في السياسة الإسلامية بعد أن قضى زهير على البربر أحلاف البيزنطيين ، وغدا الميدان قاصراً على البيزنطيين والمسلمين وجها لوجه .

(١) ابن الأثير، نفس المرجع، ج ٤ ، ص ١٧٨ ؛

ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ١١٨٧ .

(٢) Fournel, op cit 28, 29.

حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩

زوال النفوذ البيزنطي وتمام الفتح الإسلامي

صحة مساهمة النعمان :

أعقب مقتل زهير تطوراً عظيماً في سياسة كل من الدولتين الإسلامية والبيزنطية بشئون شمال إفريقيا. فقد رأى أولو الأمر في الدولة الإسلامية أن البيزنطيين يهدفون إلى الإضرار بسمعة جيوشهم وإظهار عدم قدرتها على إنعام فتح شمال إفريقيا، وأن الواجب يقضى ألا تغض الدولة الإسلامية الطرف عن قائدین عظیمین من قادتها يذهبان ضخمة الغدر البيزنطي. وكان الخليفة إذ ذاك عبد الملك بن مروان، الذي أثبت أنه جدير برد اعتبار الدولة الإسلامية وإضعاف هيبة البيزنطيين وطردهم نهائياً.

وأظهرت الامبراطورية البيزنطية إهتمامها كذلك بأحوال شمال إفريقيا بعد هزيمة زهير^(١). فبدأت بتقوية مدنها الساحلية وتزويد رعاياها بها بالعتاد والذخيرة. وأدى هذا النشاط البيزنطي الجديد إلى اعتماد القوات البيزنطية في شمال إفريقيا على جهودها الخاصة دون الاعتماد كلية على حلفائهم من البربر. وكان التعاون بين البيزنطيين والبربر قد أصبح قاصراً على بعض قبائل متفرقة منذ قتل كسيلة. ولذا استطاع خليفة زهير أن يستفيد من تغير الموقف بشمال إفريقيا، ويقضى على البقية الباقية من مظاهر التحالف البيزنطي البربري^(٢).

واضطلع بالعبء الجديد من النضال ضد البيزنطيين حسان بن النعمان، أحد كبار قادة الدولة الأموية. وفي سنة ٥٧٦ / ٦٩٥ م. أعد له الخليفة جيشاً كبيراً رغم ما كان يحيط به من صعاب، حيث رأى ضرورة تخليص شمال

(١) Dieh . op cit, 581.

(٢) حسين مؤنس، نفس المرجع، ص ٢٣٤.

إفريقيا من نير البيزنطيين . وكان اختيار حسان يقوم على ما تتمتع به من شهرة
حربية عالية ، فضلا عن مكانته في البيت الأموي . فهو لم يسبق له الذهاب إلى
الميدان الإفريقي ، ولكن رشحته كفاءته ودرايته بالخطط الحربية والسياسية
لإدارة حركات المسلمين في شمال إفريقيا^(١) ، ووضع حد لهذا الفتح الذي استغرق
إلى ذلك الوقت خمسين سنة ونيف ، دون أن يتحقق هدف نهائي فيه . وسار
حسان على رأس جيشه إلى مصر حيث قضى بها بعض الوقت ليم فيها
استعداداته الحربية^(٢) .

سار حسان من مصر مسرعا إلى شمال إفريقيا ، واجتاز برقة وطرابلس
دون أن يلقي مقاومة . وقد انضم إليه في طرابلس كثير من البربر ، اتخذهم أدلاء
في زحفه على سائر أنحاء البلاد . وكذلك دخل في جيشه كثير من البربر البدو
من أهالي الجنوب الذين سبق لهم اعتناق الإسلام^(٣) .

وعندما دخل حسان القيروان أدرك التغيير السياسي الذي طرأ على البلاد ،
وأن البيزنطيين غدوا أصحاب السكامة العليا في المدن الساحلية ، على حين ضعفت
شوكة حلفائهم من البربر . وكان حسان يسير وفق خطة مرسومة أعدّها من
قبل ، وجاءت مطابقة للموقف الذي واجهه في شمال إفريقيا . إذ حضر إلى
القيروان وفي خطته مهاجمة البيزنطيين في قرطاجنة ، أقوى معاقلهم^(٤) .

وكان يدرك أن نجاحه يتوقف على سرعة العمل والتنفيذ ، فبادر بالهجوم
على ضواحي المدينة وأوقع بالبيزنطيين هزيمة فادحة . ولذا تملك الخوف والفرع
الحامية البيزنطية في المدينة ، وأسرعت بالانسحاب منها ، والالتجاء إلى السفن

(١) ابن عذاري ، نفس المرجع ، ص ١٨ ؛ السلاوي ، كتاب الاستقصا ، ص ٤٢ .

(٢) Fournel, op cit, 38

(٣) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ٢٠٠ .

(٤) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

واهرب إلى صقلية^(١). وهكذا سقطت المدينة دون عناء كبير ، وزلزل حسان أول معقل بيزنطى هام فى شمال إفريقيا . على أن البيزنطيين لم يهدفوا بإخلاء قرطاجنة تركها إلى الأبد فى أيدي المسلمين ، وإنما يبتغوا فى أنفسهم الهجوم عليها مرة أخرى بعد خروج حسان منها .

وساعد البيزنطيون على تنفيذ مآربهم ما كان لهم من حصون ومعاقل منتشرة فى المنطقة المحيطة بقرطاجنة . ولذا ما أن غادر حسان قرطاجنة عائداً إلى القيروان حتى علم أن البيزنطيين الذين هجروها أخذوا يفدون عليها ثانية من النواحي المحيطة بالمدينة ، وعجلوا بالاعتصام بها ، وإصلاح أسوارها وحصونها . وأدرك حسان خطورة هذا العمل وما ينطوى عليه من عناد البيزنطيين وخداهم . فعاد حسان سريعاً إلى قرطاجنة وحاصرها حصاراً شديداً حتى اقتحمها ، وأنزل بالبيزنطيين هزيمة فادحة . ثم هدم كثيراً من أسوار المدينة وحصونها ليقضى على أى أمل للبيزنطيين فى الاعتصام بها مرة أخرى^(٢) .

وقد نهبت أعمال البيزنطيين حسان بن النعمان إلى الخطوة التى يجب أن يسير عليها بعد استيلائه على قرطاجنة . فعرف أن للبيزنطيين على الساحل معاقل وحصون أخرى يستطيعون الاحتماء بها والالتجاء إليها بعد أن فقدوا الأمل فى استعادته قرطاجنة ، وأن قوتهم فى هذه المنطقة الساحلية ما زالت خطراً يهدد بقاء المسلمين فى القيروان . ولذا لم يعجل حسان بالعودة إلى القيروان ، وآثر متابعة حملاته على البيزنطيين بالساحل لإزالة ما لهم من نفوذ به^(٣) .

وقد حاول البيزنطيون اتخاذ شبه الجزيرة الواقع شمال تونس والذى تقع فيه بنزرت مقراً لأعمالهم الحربية ضد المسلمين . وتعرف هذه المنطقة بإقليم سطفورة ،

(١) ابن الأثير، أسد الغابة، ج ٤ ، ص ١١٣ ؛ البكرى ، وصف إفريقية ، ص ٣٧ ؛

Fournel, op cit, 38.

(٢) ابن عذارى ، نفس المرجع ج ١ ، ص ٢٠ ؛ Fournel, op cit, 39.

(٣) حسن مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

ويضم عددا كبيرا من أهم مدن تونس ، ويعتمد على البحر في الحصول على الأمداد ، إذا ما اشتد الخطر على الجند المدافعين عنه ^(١) . على أن حسان تمكن من هزيمة البيزنطيين هناك ، وتابع إخضاع أهالي هذا الإقليم ، دون أن يقابل مقاومة بيزنطية أخرى . فآثر العودة إلى القيروان ليحصل جنده على الراحة بعد عناء الجهود الشاق الذي بذلوه في الزحف السابق ^(٢) .

ودخل حسان وجنده القيروان معتقداً أنه قد أطاح بالبيزنطيين ، وأنه إن تقوم لهم بعد الضربات الشديدة التي أنزلها بهم أية قائمة . ولكن البيزنطيين لم يركفوا إلى الهدوء والاستسلام طالما بقي لهم مدن أو معاقل على الساحل مهما كان شأنها . ثم جاء حادث مفاجئ منحهم بعض الوقت ، يستردون فيه قوتهم . إذ انشغل حسان بشورة لم يكن يتوقعها ، جاءت من إحدى قبائل البربر ، عرف أخبارها بعد عودته إلى القيروان .

ثورة الطاهنة

بلغ حسان بن النعمان عندما دخل القيروان أن إحدى قبائل البربر المقيمة بجبل أوراس لم تأنس لاستقرار المسلمين في منطقة تقع بالقرب من موطنهم . وكانت هذه القبيلة تدعى جراوة ، على قسط من الحضارة ولها رؤساء يتولون شئونها ، وجهدوا على الاحتفاظ باستقلالهم الذاتي رغم قيام بعض المصاهرات بينهم وبين البيزنطيين . إذ ظلت مضارب هذه القبيلة بعيدة عن متناول القوات البيزنطية ، ويحيا أفرادها حياة خاصة بهم ويدين معظمهم بالديانة اليهودية ^(٣) . ولم تكن قبيلة جراوة على علم بأهداف المسلمين ورسالتهم في شمال إفريقيا ،

(١) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ص ٢٠ .

(٢) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ص ٢٠ .

(٣) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٠٨ .

عما جعلهم يتخوفون من اقترابهم من موطنهم بجبل أوراس . وكان يتزعم هذه القبيلة إذ ذاك امرأة تدعى بالسكاهنة ، وصلت إلى مركز الصدارة لتوليها الوصاية على ولدين لها من زعيم جراوة السابق . وقد توفي هذا الزعيم قبل عودة حسان إلى القيروان وترك زوجته السكاهنة ترعى شئون القبيلة . وكانت ذات نفوذ واسع وكلمة مسوعة بين سائر أفراد قبيلتها ، ويأتمر الجميع بأمرها . وكانت تدعى العلم بالغيب ، مما جعل المسلمين يطلقون عليها لقب السكاهنة عند ما تسامحوا بأخبارها (١) .

وكانت خطة حسان دائماً المبادرة بالهجوم قبل أن يتم عدوه واستعداداته . وطبق هذه الخطة مع السكاهنة وقبيلتها جراوة ، حيث عجل المسير إليها . ولكن هذه السياسة لم تثمر مع قبيلة جراوة ، إذ كانت السكاهنة قد علمت بمسير حسان إليها ، وأسرعت بجمع عدد كبير من أتباعها وتحصنت بجبل أوراس عند مدينة باغاية ، التي تقع على سفح الجبل وتتحكم في الدروب المؤدية إليه . واختارت السكاهنة هذا المكان لتكون قريبة من موطن قبيلتها وتستمد منها العون إذا ما اشتد عليها الخطر . ولكن يلاحظ أن السكاهنة عملت هذه الاستعدادات دون مساعدة من البيزنطيين ، الذين لم يكن لهم أى نصيب في تلك الثورة بعد هزيمتهم في واقعة قرطاجنة وبنزرت . إذ أن السكاهنة ما كادت تحط رحالها بالقرب من باغاية حتى هدمت حصون هذه المدينة خشية أن يستولى عليها المسلمون ويقتلونها قاعدة لأعمالهم (٢) .

ومنياسة هدم المعقل والحصون لا يقرها البيزنطيون وإنما كانوا يشجعون البربر إبان تحالفهم السابق على الاعتماد على الحصون والمدن المنيعه لصد الزحف

(١) السلاوى ، نفس المرجع ، ص ٤٢ ، ٤٣ ؛

ابن عذارى ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٢١ .

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٤٧ .

الإسلامي . أما الكاهنة فاتبعت سياسة لا تسرف الحصون ولا الدفاع من وراء الأسوار ، وإنما تفضل اللقاء في الأرض الفضاء ومنازلة خصومها . وبذلك واجه حسان مقاومة عنيفة ، ولا سيما أن جفده كان لا يزال متعباً من حملة قرطاجنة ومطاردة البيزنطيين . فاضطر حسان إلى التقيقر بعد أن وقع في أسر الكاهنة عدد من رجال المسلمين ^(١) .

وتابعت الكاهنة تقدمها بعد ارتداد حسان حتى استعادت حدود قبليتها والأرض التابعة لها . على أنها لم تدخل القيروان ، ولم تحاول أن تمسها بسوء . ويدل ذلك على أن حركة الكاهنة كانت أعمال مقاومة محلية لإحدى قبائل البربر التي لم تعرف النظام والطاعة . إذ لو كانت الكاهنة تهدف إلى حركة مقاومة بربرية عامة لما ترددت في الذهاب إلى القيروان على نحو ما فعله كسيلة من قبل بإرشاد البيزنطيين . ولذا ظلت القيروان عامرة بالجاليات الإسلامية ، عليها رجل من قبل حسان يدعى أبو صالح ^(٢) . وقد أثر حسان العودة بقواته إلى طرابلس ، لا انتظار الأمداد ^(٢) .

وقد سادت الفوضى منطقة جبال أوراس لأن البربر أبوا الخضوع للكاهنة ، ولم تستطع أن تلم شملهم لدفع الهجوم الإسلامي المنتظر . فعاملت البربر معاملة قاسية حتى انتشر السخط بينهم . ثم اتبعت سياسة جديدة عجبت بزوال سلطانها ، إذ وهمت الكاهنة أن المسلمين لا يقصدون شمال إفريقيا إلا طمعاً في الاستيلاء على المدن الزاهرة بها ، وسلب كنوزها وذخائرها ^(٤) . وهذا الاعتقاد يدل تماماً على أن الكاهنة وقبيلتها جراوة كانت بعيدة تماماً عن مجريات الفتح الإسلامي

(١) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٠٩ ؛ Fournel, op cit, 43 .

(٢) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ٥٧ .

(٣) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ج ١ ص ٢ .

(٤) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ج ١ ص ٢١ .

والصراع مع البيزنطيين وأحلافهم من البربر . إذ غاب عنها أن المسلمين يسرون في فتح شمال إفريقيا وفق خطط مرسومة تهدف إلى نشر الإسلام في هذه البقعة ، وطرد البيزنطيين منها ، وإقصائهم عن أى مكان قد يهددون منه أرض الإسلام . وكذلك يستدل من اعتقاد الكاهنة الخاطيء على أنها كانت تجهل تماما ما غرسه المسلمون من بذور في حملاتهم المتوالية على البلاد .

وجنت الكاهنة ثمار تفكيرها السقيم حين عمدت إلى تخريب المدن وقطع الأشجار حتى لا يطعم فيها المسلمون . إذ أخذ كثير من البربر يستنجد بحسان لتخليصهم من نير الكاهنة ، بعد أن رأوا أنها تخرب بلادهم بنفسها على حين لم يمسههم المسلمون بسوء . وهكذا أصبح البربر ينظرون إلى المسلمين على أنهم منقذون لهم ، وكان هذا التطور من أهم العوامل التي ساعدت حسان فيما بعد على طرد البيزنطيين نهائياً من شمال إفريقيا بعد أن تخلص من الكاهنة . وكان البيزنطيون قد انتهزوا فرصة هزيمة حسان في حرب الكاهنة واستردوا قرطاجنة . وظل حسان مقبلاً بطرابلس حتى جاءته الأمداد سنة ٨١ هـ ، فاستأنف الزحف على شمال إفريقيا . ووجد أن أحوال الكاهنة قد تغيرت عما كانت عليه من قبل ^(١) ، إذ انفض عنها جانب كبير من أهلها حيث ملوا طول القتال . وعند قابس لقيه أهلها بالطاعة وقدموا له الأموال لمساعدته . ثم التقى بعد قابس بجيوش الكاهنة ، وأوقع بها هزيمة فادحة ، ثم تبعها إلى جبال الأوراس حيث أقيمت حثفتها ، وخضع البربر من قبيلة جراوة لسيادة المسلمين .

وكان للكاهنة إبدان عاملهما حسان معاملة حسنة ، وعمد إلى تأليف قلوبهما ليستفيد منهما في صراعه المقبل ضد البيزنطيين . فعين الابن الأكبر على رأس الجماعات البربرية المنضوية تحت لوائه وقربه إليه ^(٢) . وبذلك قضى حسان

(١) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٠٩ ؛ ابن عذارى ، نفس المرجع ، ج ١ ص ٢٢ .

(٢) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٠٩ .

على آخر خطر مفاجئ قد يأتي من ناحية البربر ، إذ سارع البربر إلى الدخول في الدين الإسلامي أفواجا لما رأوه من حسن معاملة المسلمين لهم ، وأسلم يساؤون بينهم جميعاً في المعاملات لا فرق بين مسلم عربي ومسلم من البربر .

نهاية البيزنطيين :

بعد أن فرغ حسان من شئون البربر اتجه بجميع قواته صوب البيزنطيين عامداً على اقتلاع جذورهم نهائياً من البلاد . وكانت الدولة البيزنطية تقف بالمرصاد لحركات حسان منذ طردة القوات البيزنطية من قرطاجنة وتضييقه الخناق عليها في شبه جزيرة صطفورة . واعتبرت السلطات البيزنطية سقوط قرطاجنة ضربة قوية لا بد من العمل على التخلص من آثارها ، وجاءتها ثورة الكاهنة فرصة ذهبية يجب اقتناصها . وكان الإمبراطور البيزنطي إذ ذاك يدعى ليونتيوس ، (٦٩٥ - ٦٩٨ م) ، وأراد أن يستغل عهده باستعادة قرطاجنة واعلاء شأن دولته بشمال أفريقيا ، إذ رأى أن غض الطرف عن قرطاجنة معناه نهاية السيادة البيزنطية إلى الأبد من تلك البلاد ^(١).

ودل على اهتمام الإمبراطور ليونتيوس بشئون شمال أفريقيا أنه ما أن علم بارتداد حسان بن النعمان بعد مقاومة الكاهنة حتى أعد جيشاً عظيماً وأسطولاً كبيراً لاسترداد قرطاجنة ، وعهد بقيادة هذه الحملة إلى قائد من أشهر قادة الدولة وهو البطريق يوحنا «Patricius Jean» . وهاجم الأسطول البيزنطي مدينة قرطاجنة على حين غفلة منها سنة ٦٩٧ م / ٧٨ هـ ، واستولى على المدينة في سهولة ويسر . وكان في المدينة إذ ذاك أبو صالح الذي تركه حسان على القيروان قبل هجومه على الكاهنة . فارتد أبو صالح ومن معه من القوات عن المدينة ، وترك البطريق يوحنا يشفي غليله في الانتقام من أهلها . وقضى يوحنا طيلة شتاء سنة

(1) Diehl, op cit, 583.

٦٩٧ م في تهذيب أهالي قرطاجنة غير عابىء بما قد يأتى من ناحية المسلمين^(١).

على أن حسان ما كاد يقضى على الكاهنة حتى توجه لطرده البيزنطيين من قرطاجنة . وقد عرف أنهم يعتمدون على قوتهم البحرية في إغاراتهم المتكررة على القواعد الإسلامية . ومن ثم استعان بأسطول إسلامي كان أول قوة بحرية إسلامية ظهرت في مياه شمال أفريقيا . واستطاع حسان بفضل المعونة البحرية أن يغال النصر على البيزنطيين ، إذ دارت رحى معركة بحرية بين الأسطول الإسلامي والبيزنطي أسفرت عن هزيمة البيزنطيين . فدب اليأس في قلب البطريرق يوحنا ، وجمع قواته وأثر الفرار بما تبقى لديه من سفن قاصداً بيزنطة^(٢).

وكان البطريرق يوحنا يقصد من انسحابه المحافظة على قواته أيود بها مرة أخرى إلى قرطاجنة حين تسمح له الظروف . ولكن غاب عنه أن انسحابه عن شمال أفريقيا في هذه المرة هو آخر عهد للبيزنطيين بالبلاد ، إذ أصبح البربر والمسلمون قوة واحدة جعلت تفكير البيزنطيين في استعادة نفوذهم بالمغرب ضرباً من الأوهام أو من قبيل الأحلام . ودخل حسان بن النعمان مدينة قرطاجنة وأعلى بها كلمة الإسلام مرة أخرى .

واستفاد حسان كثيراً من مجرى النضال بينه وبين البيزنطيين ، ورأى أن يقطع عليهم خط الرجعة نهائياً في استرداد قرطاجنة . فاتجه إلى اتخاذ قاعدة بحرية جديدة تحل مكان قرطاجنة ، ويتوافر لها الحماية والابتعاد عن إغارات البيزنطيين المفاجئة . فوجد إلى جنوب قرطاجنة بلداً على بحيرة داخلية صغيرة تسمى آدس (Ades) لا يفصلها عن البحر غير برزخ صغير . وكانت هذه المدينة يونانية اضطلع أمرها ، ولم يبق من معالمها غير دير قام به بعض الرهبان . فوقع اختياره

(1) Diehl, op cit, 383.

البكرى نفس المرجع ، ص ٣٨ ، ٣٨

(2) Diehl, op cit, 584.

عليها حيث رأى فيها توافر جميع المميزات التي يتطلبها (١) .

و بدأ حسان بحفر البرزخ الذي يفصل البحيرة عن البحر ، كما حفر في ماء البحيرة الضحلة قناة عميقة تستطيع السفن السير فيها حتى تصل الى البلد . وعرف هذا الميناء الجديد باسم تونس ، وغدا له بحيرة واسعة محمية من أمواج البحر ، و بعيدة عن قوات البيزنطيين البحرية . واضمححل بذلك شأن قرطاجنة ، وانصرف الناس والتجار عنها ولم تعد مدينة يرغب البيزنطيون في استردادها . وهكذا حقق حسان أولى الخطوات الهامة في إبعاد خطر البيزنطيين عن ولاية إفريقية الجديدة ، وجعلها مكاناً سرغوباً فيه ، يقبل المسلمون الفاتحون على الاستقرار به وانخاضه وطناً لهم . ويعتبر حسان بذلك أول قائد تم على يديه استقرار المسلمين النهائي بشمال إفريقيا ، وانصرف بعد إتمام الفتح الى تأمين البلاد وتشجيعها على أن تأخذ بنصيب في جهاد البيزنطيين فيما تبقى لهم من أملاك بجزر البحر الأبيض المتوسط . فاتجه حسان إلى إنشاء « دار صناعة » تبنى بها السفن والأساطيل ليغير بها على سواحل البيزنطيين ، ويشغلهم بالدفاع عن أنفسهم بدلاً من إغارتهم على ولاية إفريقية واستعان حسان بالمصريين في تأسيس هذه القاعدة البحرية الجديدة . فأرسل يطلب من الخليفة عبد الملك أن يوفد إليه جماعة من المصريين ممن لهم خبرة ببناء السفن . وكلف الخليفة أخاه عبد العزيز بن صروان وإلى مصر أن يرسل إلى تونس ألف قبطن بأهله وولده ، وأن يعد لهم أحسن اعداد بما يكفل لهم الراحة طيلة السفر والوصول في أمان (٢) .

ووصل المصريون إلى تونس وحسان بن النعمان مقيماً بها ، وأنشأ بمساعدتهم دار صناعة للسفن ، وعهد إلى البربر قطع الأخشاب من سفوح الجبال ونقلها إلى تونس حيث يتولى الصنّاع المصريون بناء السفن . ونشطت حركة الصناعة

(١) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ص ٣٩ ؛

حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٦١ .

(٢) البكري نفس المرجع ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

في هذا الميناء الجديد ، وخرجت منه أساطيل المغرب تحمل راية الإسلام في غرب البحر الأبيض المتوسط . وغدت تونس القاعدة الحربية الإسلامية الثانية بعد القيروان ، وآخر خطوة حققت انضمام شمال إفريقيا نهائياً إلى رقعة الدولة الإسلامية . إذ كان تأسيس القيروان بداية الجهاد الذي أدى إلى دخول البربر في الدين الإسلامي ، وأول قاعدة لاستقرار المسلمين في بلادهم . ثم جاء تأسيس تونس قاعدة قضت على البيزنطيين نهائياً من شمال إفريقيا ، وانتزعت منهم هذه البلاد إلى الأبد . وأصبحت القاعدتان محوراً تدور عليه أحداث الولاية الإسلامية بشمال إفريقيا .

وبانتهاء المسلمين من تخليص البلاد من النفوذ البيزنطي اتجهوا إلى تنظيم أحوالها ونشر الإسلام بين سائر قبائلها^(١) التي لم يصل الإسلام إليها بعد . وساروا في تلك السبيل على قاعدة دلت تماماً على أن هدف المسلمين في فتح شمال إفريقيا هو نشر الإسلام بين أهلها وطرد البيزنطيين منها . إذ اعتبر المسلمون الأرض التي كانت تابعة للبيزنطيين أرضاً مفتوحة عنوة ، وطبقوا عليها النظام الإسلامي الخاص بها . فعاملوا من تبقى في المدن الساحلية من البيزنطيين وأحلافهم معاملة الموالى لهم ، لأنهم خشوا ما قد يشهده أولئك الناس من قن واضطراب في البلاد . وترتب على هذه السياسة الإسلامية اختفاء المظاهر البيزنطية من البلاد تماماً ، وزوال اللغة اليونانية واللاتينية ، وأصبحت البلاد مهداة لقبول الإسلام وحضارته .

وساعد على انتشار الإسلام سريعاً في أرض المغرب ، واصطبغ رعاياه بالحضارة الإسلامية حسن معاملة المسلمين الفاتحين للبربر سكان البلاد الأصليين . إذ لم يطبق عليهم المسلمون السياسة التي اتبعوها مع البيزنطيين ، وإنما ساووا بينهم وبين البربر في الحقوق والواجبات . فضم حسان عدداً كبيراً من جنود البربر

(١) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ص ١١٠ .

إلى جيوش المسلمين ، وسأوى بينهم وبين جند المسلمين العرب في الغنائم ،
وحرص دائماً على تجنب أى معاملة يحس منها البربر خضوعهم للعرب المسلمين .
وفضلاً عن ذلك اعتبر المسلمون البقاع التي سكنها البربر أرضاً مفتوحة صلحاً ،
فأفروا البربر على ما بيدهم من الأرض ، وأصبحت كل قبيلة بربرية تختص بجهة
تتصرف فيها وتؤدى عنها التزاماتها ^(١) .

وهكذا دخل البربر أفواجاً في الدين الإسلامى على عهد حسان بن النعمان
بعد أن زالت سلطات البيزنطيين ، وأحسوا أن الدين الجديد أخرجهم من عهد
طويل من الذل والاضطهاد إلى حياة زاهرة عامرة بالإخاء والمساواة . وقضى
حسان فترة حكمه في شمال إفريقيا جاهداً على الإغلاء من شأن البربر الذين
دخلوا في الإسلام ، ورفع شأنهم بين الجند المسلمين الفاتحين ، حتى أدرك سائر
البربر عظمة الدين الإسلامى ، وفهموا حقيقة رسالته السامية . ولكن شاءت
الأقدار أن يجنى خليفة حسان وهو موسى بن نصير ثمار اعتناق البربر للدين
الإسلامى .

الجناس الأيسر لدولة الإسلام :

تولى شئون شمال إفريقيا بعد حسان بن النعمان موسى بن نصير (سنة ٨٩هـ /
٧٠٧ م) . وقد واجه موسى فتناً من البربر استطاع أن يخمدها في سهولة ويسر .
إذ كانت بقايا البيزنطيين ووكلاؤهم وأحلافهم بشمال إفريقيا ينتهزون الفرص
لإثارة الشعب ضد المسلمين الفاتحين . وجاء عزل حسان بن النعمان تسكئة اعتمدوا
عليها في تأليب البربر على السلطات الإسلامية بالقيروان . ولكن موسى بن نصير
أثبت أنه لا يقل شكيمة وبأساً عما سبقه من قادة المسلمين ، فبادر بإقصاء المحرضين

(١) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٧٦ ؛

Mercier, op cit I, 216.

على الفتنة من البيزنطيين عن البلاد، وضرب على أيدي الذين انضموا تحت
لوائهم بقسوة وشدة^(١). وهكذا كان أصبح البيزنطيين دائماً وراء كل حركات
البربر في هذه المرحلة الختامية من استقرار الفتح الإسلامي بأرض المغرب .
وحالف التوفيق قادة المسلمين في نشر رسالة الإسلام بشمال إفريقيا ، لأنهم
منذ أيام حسان وجهوا ضرباتهم للبيزنطيين وحدهم ، وأبعدوهم عن كل بقعة
قد يتخذونها شوكة تهدد أرض الإسلام . وجعل موسى بن نصير هذه السياسة
نصب عينيه بعد أن رأى وكلاء البيزنطيين يتابعون سياسة الدس ضد المسلمين ،
وأن الأساطيل البيزنطية أخذت تغير من بعض قواعدها بجزر البحر الأبيض
على أرض المسلمين بشمال إفريقيا . فأعد أساطيلاً إسلامية غزا بها جزر منورقة
ومميورقة (سنة ٨٩ هـ / ٧٠٨ م) ، وضمها إلى سلطان المسلمين^(٢) ، وأخذت الحياة
تزدهر في هذه الجزر بعد أن استقر بها المسلمون . وأصبحت ولاية موسى بن نصير
تمتد من حدود مصر الغربية إلى شواطئ المحيط الأطلسي ، ولها هيبتها في حوض
البحر الأبيض المتوسط الغربي . وساد السكون والهدوء هذه الولاية في ظل
الإسلام ، إذ استطاع موسى بن نصير بعدله وحبه للانصاف أن يجذب إليه كبار
رجال البربر ، كما عين الفقهاء لتعليم الناس أحكام الدين ، وتفهمهم قواعده
على أسس سليمة صحيحة . وظهرت بشائر هذا العهد الجديد سريعاً ، إذ حقق
الإسلام معجزة كبرى شهدت له بأنه دين الفطرة . فقد صبغ البربر بالصبغة
الإسلامية ، وجعل لسانهم جميعاً اللسان العربي .

وكانت هذه الحقيقة حداً فاصلاً في تاريخ البربر الطويل ، إذ عجزت
الحضارات القديمة ، التي وصلت بلاد المغرب منذ أقدم العصور وهي الإغريقية
واللاتينية ، عن إدخال البربر في نطاقها ، واقتصر تأثيرها على بعض مدن

(١) Mercier, op cit I, 217.

(٢) أبو الحسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

مبعثرة على طول الشريط الساحلي لشمال إفريقيا . ولكن بعد طرد البيزنطيين من شمال إفريقيا واستقرار الفتح الإسلامي بها دان البربر جميعاً بالدين الإسلامي ، ودخلوا في مضمار المدنية الإسلامية ، وأصبحوا شعباً له رسالة في العالم الإسلامي . وهذا التطور في حياة البربر هو الذي يعتبر معجزة الإسلام ، حيث تمكن من إنشاء وطن جديد له استعان به في ارتقاء سلم الزعامة العالمية .

وتجلت آية هذه المعجزة في أن الإسلام استطاع أن يجند من البربر جنوداً جددًا تسابقوا في مضمار الفتوح الأخرى ، وغدوا الجناح الأيسر لقوات الإسلام . وكان أولئك البربر المسلمون يتحلون بالحماس والحمية التي عرف بها المسلمون العرب في أيامهم الأولى ، والتي ظهرت في فتوحاتهم المبكرة . فأنجب البربر قادة لا يقلون عن قادة المسلمين الأول في حماسهم لإعلاء كلمة الإسلام وتفانيهم في نصرته ، منهم طارق بن زياد ، فاتح الأندلس^(١) وحامل راية الإسلام به^(٢) .

وقد ساهم هذا الموطن الجديد للإسلام في مشاريع الدولة الإسلامية الكبرى ضد البيزنطيين . إذ كانت جيوش الدولة الإسلامية سنة ٧١٧م تحاصر القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية وتعمل جاهدة على إزلالها والخط من شأنها . وقد اشتركت قوات الإسلام في شمال إفريقيا في هذا الجهاد الرائع ، إذ أمدت ولاية إفريقية جيوش المسلمين بأساطيل ومؤن وعتاد شدت من أزر الجند الإسلامي المحاصر للقسطنطينية ، وسجلت إسمها إلى جانب سائر الولايات الإسلامية الأخرى الداخلة في حظيرة الدولة الأموية ، والمشاركة في حرب البيزنطيين .

(١) كانت الحملة الإسلامية في شبه جزيرة أيبيريا من أروع الأعمال الحربية التي قام بها المسلمون ، ففي سنة ٧١١م عبر طارق البحر إلى أسبانيا وبدأ سلسلة من الحملات اشترك فيها كذلك موسى بن نصير ، وانتهت باستقرار المسلمين في هذا الركن الجنوبي الغربي من أوروبا .

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

وهكذا حقق الأمويون بانتشار الإسلام في شمال إفريقيا والأندلس عملاً مجيداً ، هو انتزاع الصفة البيزنطية القديمة الملتصقة بالبحر الأبيض المتوسط وإحلال الطابع الإسلامي محلها ، إذ كان البيزنطيون يعتزون دائماً بأن البحر الأبيض المتوسط هو بحرهم ، حيث ورثوا عن أمهم الدولة الرومانية الكبرى اللقب الذي أغدقته على هذا البحر وهو « بحر الروم » . على أن انتصار الجيوش الأموية في شمال إفريقيا والأندلس كتب للمسلمين السيادة على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، إلى جانب السيادة التي اكتسبوها على الحوض الشرقي من هذا البحر بعد واقعة ذات الصواري . وأصبح البحر الأبيض المتوسط حراً ، أن يدعى « بحر المسلمين » نتيجة مجهودات الأمويين الجليلة .

الفصل الخامس

التجاوب الحضارى بين الدولتين الأموية والبيزنطية

التراث البيزنطى فى نظم الأمويين الإدارية

إدارة الأقاليم :

يعتبر العصر الأموى عهد امتصاص النظم والتقاليد البيزنطية التى وجدها المسلمون فى البلاد المفتوحة ، ثم استخدامها بما يتفق والوضع الجديد لدولة الإسلام . وكان أول نظام بيزنطى أبقى عليه المسلمون هو طريقة إدارة البلاد وتصريف شئونها . إذ رأى المسلمون أقاليم الشام ومصر وشمال أفريقيا ذات إدارات ومصالح ، ومنظمات وهيئات ، تجرى وفق نظم بيزنطية راسخة الأوتاد ، وأدركوا أن حكم دولتهم وتوجيهه لما فيه الصالح العام يقتضى ألا تشمل الإدارات البيزنطية ويبطل عملها فى تلك الأقاليم التى استولت بالإسلام .

وقد أظهر المسلمون فى هذه الفترة المبكرة من بناء دولتهم عقلية فذة ، وأفقاً واسعاً فى استيعاب النظم الصالحة السائدة فى البلاد التى أخذوها من الإمبراطورية البيزنطية . وكان لهذه الظاهرة أثر كبير فى استقرار أحوال الدولة الإسلامية الفتية على عهد الأمويين ، وتجنبها المصاعب والمتاعب الاقتصادية والاجتماعية التى تواجه دائماً الدول فى المراحل الأولى من تكوينها . إذ استطاع الأمويون الاستفادة من نتائج تجارب الإدارة والحكم البيزنطى ، ووضعوا الأسس والدعائم المتينة لصرح دولة الإسلام ، وجعله أكبر قوة عرفها عالم العصور الوسطى .

وكان معاوية يسير على هدى الخليفة عمر بن الخطاب ، الذي عرف عنه الاهتمام بدولة الإسلام وحرصه على تنظيم أحوالها بما يحقق لها الرفاهية والطمأنينة . إذ اعتمد الخليفة عمر على النظم البيزنطية في ترتيب شئون دولته ^(١) ، إلى جانب الأنظمة الفارسية الساسانية . وظهر تقدير الخليفة عمر لنواحي الإدارة البيزنطية في احتفاظه بكثير من مظاهرها تامة غير منقوصة . إذ حين وفد عمر إلى الشام ، وكان كثير التردد عليها أثناء الفتوحات الإسلامية ، وضع لهذا الإقليم تقسيماً إدارياً جاء نموذجاً لما سار عليه البيزنطيون من قبل في إدارة هذه البلاد .

قسم الخليفة عمر إقليم الشام إلى عدة أجناد ، وهي أقاليم حربية يقيم في حاضرة كل إقليم فيلق من فيالق الجيش ، وكان هذا النظام سائداً في الشام البيزنطي . وجاء معاوية وخلفاؤه ودعموا هذا النظام الحربي حتى أخذ مظهراً كاملاً . فكان جند فلسطين هو ما عرف عند البيزنطيين باسم فلسطين الأولى (Palestina Prima) وعاصمته مدينة « الرملة » . أما جند الأردن فكان فلسطين الثانية (Palestina Secunda) وعاصمته « طبرية » . وجند دمشق اشتمل على ما سماه البيزنطيون فلسطين الثالثة (Palestina Tertia) وفينيفيا الأولى ولبنان (Ad Libanum) . ثم جند قنسرين فكان قبلاً يدعى سوريا الأولى (Syria Prima) ^(٢) .

وغدت الدولة الإسلامية على عهد الأمويين تنتظم إمارات كبرى ، بحكم كل منها وإلى مسلم مرتبط مباشرة مع الخليفة . وقد حافظ الأمويون في ولايات القسم الغربي من دولتهم على طريقة الإدارة البيزنطية بها . فكانت الشام ومصر وشمال أفريقيا هي نفس الولايات التي خضعت للبيزنطيين من قبل ،

(١) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ١٤٩ .

(٢) Le Strange, Palestine Under the Muslims, 26

بإداراتها وعملها^(١). وتعتبر مصر نموذجاً للطابع الإسلامي الإداري الجديد، إذ انتقلت مهام الحاكم البيزنطي العمام بها، الذي أطلق عليه اسم سيمبولوس (Symboulos) إلى عامل إسلامي لقب « بالأمير ». وكان يشرف على شئون الوجهين البحري والقبلي كما فعل سمييه أيام سيادة البيزنطيين.

وساعد « الأمير » أو الحاكم الإسلامي العام شخص عن كل قسم من قسمي الدولة عرف باسم « صاحب »، وهو يرادف عند البيزنطيين « كاتب » (Chartularius). كذلك قسم الوجهان، البحري والقبلي إلى « كور » كانت هي الأقاليم التي عرفت في العهد البيزنطي باسم بجارخي (Pagarchies). وكان المهمين على شئون « الكورة » يدعى صاحب الكورة، وهو مرادف للبجارخي (Pagarchos). وظل دولا ب العمل يسير على نسق الأداة الحكومية البيزنطية، فكل قرية من قرى الكور احتفظت بسجل فيه أسماء دافعي الضرائب وممتلكاتهم، وكذلك أرباب المهن والحرف. وكانت هذه السجلات تعد بمساعدة كبار رجالات القرى^(٢)، الذين عرفوا في العهد البيزنطي باسم موازيت (Mezones). وبعد أن تنتهي السلطات المحلية من إعداد السجلات ترسلها إلى العاصمة حيث تعتمد عليها السلطات العليا هناك^(٣).

وبذلك استطاع الأمويون أن ينهضوا بإدارة هذه الرقعة الكبيرة من

(١) كانت الدولة الأموية مقسمة إلى خمسة أقسام كبرى، يحكم كل منها أمير مرتبط رأساً بالخليفة وهي: الحجاز واليمن ومصر والعراق، ويتبعه بلاد ما وراء النهر والسند وخراسان وعمان والجزيرة ومعها أرمينيا وبعض أقسام من آسيا الصغرى، ثم أخيراً إمارة إفريقية ومعها الأندلس.

(٢) تذكر المراجع التاريخية أن قادة المسلمين حرصوا عند دخولهم البلاد المفتوحة على الاستفادة من خبرة كبار الشخصيات بها. وتجلت هذه الظاهرة بصفة خاصة في مصر، فكان عمرو بن العاص يسأل ساداتها النقداي عن اختصاصات الأقليم ومصروفاته والطرق التي تسكن تحسين مراقبه. وسار على نهج عمرو بن العاص سائر الولاة الذين تولوا إدارة مصر.

(3) Bell, Grek Papyri, 17, 18 ;

Nabia, the Kurrah Papyri, opcit, 100.

الأراضي التي دخلت في حضيرة دولتهم . ولكن الخلفاء الأمويين أقدموا على خطوة جليلة ساعدت على تقوية أواصر الروابط بين ولاياتهم جميعها ، وخلق الوحدة الإسلامية التي تنعم بها الدول الإسلامية اليوم . إذ اتجهت السلطات الأموية إلى تعريب الدواوين والإدارات التابعة لها في الدولة وصيغها بالصيغة العربية . وبدأت هذه الخطوة في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، فنقلت لغة الدواوين في مصر والشام من اليونانية إلى العربية ، وفي العراق والمقاطعات الشرقية من الفهلوية (الفارسية) إلى العربية ^(١) .

وكان الدافع على تعريب الدواوين والإدارة الإسلامية تمكين الولاة المسلمين من الإشراف إشرافاً تاماً على شئون دولتهم . إذ كان تدوين السجلات باللغات الأجنبية حافزاً شجع صغار العمال على التزوير والتلاعب في السجلات دون أن يكتشف أمرهم ^(٢) . ولا شك أن أغراضاً أخرى هامة ، منها صيغ الدولة بالصيغة العربية ، هي التي حملت خلفاء بني أمية على تعريب الإدارة . إذ تروى بعض المراجع أسباباً مختلفة أو مبهمة لتعميل نقل الدواوين إلى العربية . فذكر البلاذري مثلاً « أن رجلاً من كتاب الروم احتاج أن يكتب شيئاً فلم يجد ماء ، فبال في الدواة . فبلغ ذلك عبد الملك ، فأدبه . وأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان ^(٣) . »

وسار ولاة الدولة الأموية على نهج خلفائهم في تعريب الدواوين في مقاطعاتهم ^(٤) ، حتى أخذ النظام الجديد يشب ويثمو ، ويشمل سائر البلاد

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢١

(٢) كان التزوير في المكاتبات شائعاً منذ عهد معاوية بن أبي سفيان ، فأنشأ « ديوان الخاتم » للقضاء على أعمال التزوير ، وتسهلاً للمكاتبات بينه وبين عماله . وبذلك أصبحت الأوامر والرسائل لا تصدر عن بلاط الخليفة إلا بعد أن تسجل النسخة الأصلية في سجل خاص وتختتم بخاتم الخليفة نفسه .

(٣) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٠١ .

(٤) أشرف الحجاج بن يوسف الثقفي على تعريب الدواوين في العراق والمقاطعات الشرقية

الإسلامية . وما ساعد على اكتمال هذا النظام سريعاً أن عبد الملك أشار باستخدام من يجيد العربية في المناصب الرسمية بالدولة . وهكذا وضع الخلفاء الأمويون نصب أعينهم الاستفادة أولاً من نظم الإدارة البيزنطية ، ثم تعريبها تدريجياً بما فيه صالح دولتهم .

وأثر الأمويون بدورهم في نظم البيزنطيين الإدارية ، ولا سيما في بلادهم المعرضة لهجوم المسلمين . وكان أوضح مثال على ذلك إقليم آسيا الصغرى ، فقد رأت الدولة البيزنطية ضرورة وضع نظام إدارى خاص لهذا الإقليم لصد هجمات الأمويين المتكررة عليه . وحفز الأباطرة على الاهتمام بإدارة هذا الإقليم أيضاً اتخاذهم خط دفاع لحماية القسطنطينية . فوضع الأباطرة لآسيا الصغرى نظام الأقاليم الحربية الذى يعرف بالبندود (Themes)^(١) ، وهو أشبه بنظام الأجناد الذى طبقة الأمويون على إقليم الشام .

وأتم الأمويون إشرافهم على إدارة البلاد التابعة لهم باقتباس نظام البريد (Veredus) من البيزنطيين . وكان معاوية واضع أسس هذا النظام الذى ظل يتطور طيلة العصر الأموى . واستخدم البريد في نفس الأغراض التى اتبعت أيام البيزنطيين ، إذ اقتصر البريد على خدمة مصالح الدولة لا لتصرف شئون الأفراد والناس . فكان الخليفة يتصل بمحاضرات الولايات ويقف على أخبار عماله بها وأحوال سكانها بواسطة « عمال البريد » ، وغدت هذه الأداة أشبه بإدارة البريد (Cursus Publicus) في النظام البيزنطى^(٢) .

وأكمل الخليفة عبد الملك ما بدأه معاوية في نظام البريد . فأصبحت هذه الإدارة تامة الإعداد ، وخيل البريد تنقل الرسائل والمسافرين من دمشق إلى سائر

== فنقل المسكيات وأعمال الدواوين من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية . وبذلك سار تعريب الدواوين في الدولة الأموية سيراً منظماً مضطرباً .

(١) انظر الفصل الثالث من الكتاب ، ص ١٥٨

(٢) Hitti, op cit, 438.

حواضر الأقاليم الإسلامية . على أن أهم عمل قام به عمال البريد هو مراقبة سير الولاة والعمال في الأقاليم الإسلامية ، وإحاطة الخليفة علماً بما يبدر منهم من أعمال حسنة أو سيئة ^(١) . وغدت هذه الإدارة حرة أن تدعى بمين الخليفة وأذنه في شتى أرجاء دولته .

العمائر والفنون :

تعتبر مجهودات الأمويين في العمائر والفنون النواة الأولى للفن الإسلامي وما حفل به آيات رائعة الجمال . وقد استغل الأمويون طرز البناء والفنون البيزنطية التي وجدوها في البلاد التي دخلت في حظيرتهم ، ثم بدأوا يصنعون هذه المظاهر البيزنطية بألوان تتفق مع الوضع الجديد لدولة الإسلام . فخرج مزاج إسلامي رائع تولاها سائر خلفاء الدولة الإسلامية فيما بعد بالرعاية حتى أصبح لكل بقعة من أرض الإسلام ذوقها وطابعها الفني الخاص .

ويعزى نجاح الأمويين في وضع النواة الأولى للفنون الإسلامية إلى ما عرف عنهم من الأفق الواسع ، وحسن استغلال ما تصل إليه أيديهم من وسائل بيزنطية لإعلاء وإتمام مبانيهم وسائر المرافق التي ترمز لعظمتهم وسلطانهم . ويعتبر المسجد الأموي و « القصور الريفية الأموية » نماذج رائعة للفن الإسلامي في بدايته ، واعتماده على النماذج البيزنطية . فالمسجد الأموي كان في الأصل كنيسة دمشق المعروفة بكنيسة القديس يوحنا ^(٢) . ولما سكن الوليد استولى على هذه الكنيسة سنة ٧٠٥ م وأدخل عليها كثيراً من التعديلات بما جعل البناء الجديد مسجداً إسلامياً آية في البهاء والعظمة ، وشاهدنا على ما تحلى به الأمويون من ذوق سليم .

(١) Hitti op cit, 484.

(٢) ابن عساکر، نفس المرجع، ص ١٩٩.

وتجملت الطرز البيزنطية في عمارة المسجد الأموي حيث استعان الخليفة بهمال وفنانين بيزنطيين جلبهم خصيصاً من القسطنطينية^(١) . واشترك إلى جانب أولئك الفنانين البيزنطيين عمال من أقباط مصر^(٢) ، الذين تلقوا دروسهم عن الفنون في مدارس البيزنطيين أيام تبعيتهم للدولة البيزنطية . وقام الفنانون البيزنطيون ببناء القبة الحجرية الشاحخة التي تهلو المسجد الأموي ، والتي أصبحت أول جزء يسترعى نظر الزائر للمسجد . وعهد إلى العمال البيزنطيين كذلك زخرفة القبة من الداخل وسائر جدران المسجد بالفسيفساء التي كانت نموذجاً خاصاً بالزخرفة البيزنطية .

وكان الوليد مهتماً بالحصول على الفسيفساء وتزين مسجده بها ، فبذل شتى الطرق للحصول على الفسيفساء البيزنطية وغيرها من المواد التي تصلح لزخرفة مسجده . فكان الوليد يفرض على الجيوش الإسلامية من أهل الشام ومصر والعراق أن يحمل كل جندي منها يغير على أرض البيزنطيين «قسماً من الفسيفساء وذراعاً في ذراع من رخام ، فيحمله أهل العراق وأهل حلب إلى حلب ويستأجرون من يحمله إلى دمشق . ويحمله أهل حمص إلى حمص ومنه إلى دمشق ، وأهل دمشق يحملونه إلى دمشق .»^(٣)

على أن الأمويين ، رغم استخدامهم للعمال البيزنطيين وغيرهم من الفنانين الأجانب ، أكسبوا المزيج الفني طابعاً جديداً جعله إسلامياً في مظهره ، حتى غدا المسجد الأموي بدمشق نموذجاً لسائر المساجد التي شيدت في البقاع الإسلامية الأخرى . وكان الدليل على النتاج الإسلامي الجديد للفنون في الدولة الأموية ظهور العقود في المسجد التي تشبه حدوة الفرس . واستمد هذا الطابع الجديد

(١) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ص ٢٠٢ .

(٢) Bell, Greek Papyri, 18.

(٣) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ٢١٠ .

مميزاته من خصائص الوطن الأصلي للعرب . إذ كان تقوس العقود وغيرها من المظاهر المشابهة لها فيما بعد تقليداً لتقوس وتقيب فروع النخيل المحببة إلى قلوب العرب . وسرعان ما أصبح هذا المظهر الجديد الفن الإسلامي النموذج الذي احتذاه المسلمون في بناء مساجدهم ^(١) ، وغدا الرمز الذي يذكرهم بدولتهم ووحدة مهابتها اتسعت رقعتها ^(٢) .

وقد اهتم الخلفاء الأمويون بمساكنهم التي يقضون فيها أوقات فراغهم . فكان لهم قصور في بادية الشام يذهبون إليها للاستجمام من متاعب الحكم (وشيدت هذه القصور على النماذج البيزنطية وتقليداً لما فعله الغساسنة وكلاء الدولة البيزنطية في الشام من قبل) . إذ اتخذ أمراء الغساسنة مقاراً ريفية لأنفسهم ، جاءت آية في الروعة والاستعداد لقضاء أوقات الفراغ ^(٣) . وغدت أطراف بادية الشام عامرة بقصور الخلفاء الأمويين ، وكان بعض هذه القصور حصوناً بيزنطية أعدها الخلفاء الأمويون لراحتهم . وتعدد أسماء هذه القصور ، فمنها ما يسمى بالأخيضر ، والموفر الذي يرجح أن يزيد بن عبد الملك قام ببناؤه ، والقسطل (من اللاتينية Castellum أى حصن) ، والأزرق اللذين اتخذهما الوليد الثاني مقراً للصيد وغيره من الملاحى، والمشتى الذي بناه الوليد الثاني كذلك ^(٤) .

واشتهر من هذه القصور الأموية وبناها جميعاً « قصير عمرة » ^(٥) ، الواقع شرق الأردن في محاذة الحافة الشمالية للبحر الميت . وينسب بناء هذا القصر إلى الوليد الأول فيما بين سنة ٧١٢ ، ٧١٥ م ، وتجلى فيه الطابع الفني البيزنطى ، ولا سيما في النقوش والزخرفة التي حلت جدرانها . فكان على أحد جدران هذا

(١) Hell, Die Kultur der Araber 120.

(٢) سيد أمير على ، نفس المرجع ، ص ١٦٩ .

(٣) حتى ، تاريخ العرب ، (ترجمة الأستاذ مبروك نافع) ص ٣٣٢ .

(٤) حتى ، نفس المرجع ، ص ٣٣٣ .

(٥) اكتشف هذا القصر العالم ألوا موزل (Alois Mnsil) سنة ١٨٩٨ م

القصر عمور أربعة ملوك يشنون الامبراطوريات التي دانت للإسلام^(١) ، وفوق هذه الصور نقش بالعربية واليونانية لتمييز كل صورة من الأخرى^(٢) . وكانت هذه الصور تمثل قيصر وكسرى والنجاشي ولذريق آخر ملوك أسبانيا القوطية^(٣) . ويمجلى في زخرفة هذه القصور الأموية نواة الزخارف الإسلامية المحضة ، التي اختص بها الفن الإسلامي وحده ، حتى عرفت في اللغات الأوروبية باسم « أرابيسك » (Arabesque) نسبة إلى العرب . إذ كانت بعض الزخارف تحوى أوراق شجر ونخيل يتدلى من عراجينها الباع ، وعدد من طيور الصحراء . واستخدمت الزخارف النباتية بشكل واسع في المساجد ، وبرع الفنانون في سبكها حتى غدت ذات أشكال هندسية رائعة جميلة^(٤) .

وهكذا خلفت آثار الأمويين المعمارية آيات تنطق بمقدرة المسلمين على استيعاب الطرز البيزنطية الفنية وتحويها بما يكسب مبانيهم بهاءً وروعة . على أن الحقيقة الكبرى التي تمخضت عن مجهودات الأمويين هو ظهور نواة الفن الإسلامي ، التي ازدهرت فيما بعد وملاأت سائر البلاد الإسلامية بروائع الفنون .

(١) بروكلمان ، نفس المرجع ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٢) بروكلمان ، نفس المرجع ، ص ١٨٧ .

(٣) بروكلمان ، نفس المرجع ، ص ١٨٧ .

(٤) حتى ، نفس المرجع ، ص ٣٣٤ .

الاتصال الثقافي

وصدى الحروب في آداب المسلمين والبيزنطيين

استطاع الأمويون أن يضعوا أسس نهضة المسلمين الثقافية في هذه الفترة المبكرة من ظهورهم على مسرح الحضارة العالمية ، وأن يكتشفوا الينابيع التي تغذى هذه النهضة وتعمل على ازدهارها . ونجح الخلفاء الأمويون في إعداد طبقة من المسلمين كانت العمدة التي شيد عليها صرح الحضارة الإسلامية ، وما حققت به من ألوان العلم والعرفان . ويعتبر العصر الأموي عهد غرس بذور دوحه العلم التي أينعت زمن العباسيين ، وقدمت ثماراً ناضجة شهية للدولة الإسلامية ، وجعلتها تؤدي رسالتها في مضمار الحضارة العالمية .

وتعزى قوة الدعامة الثقافية التي وضعها بنو أمية إلى حسن استغلالهم لتراث الثقافة الهلينية ، ذلك ينبوع الذي زود البيزنطيين كذلك بشتى المعارف والعلوم . وكان هذا الميدان الثقافي الحلبة التي تنافس فيها المسلمون والبيزنطيون ، كل يعمل جاهداً على إفادة نفسه وترقية مستواه . وكانت الثقافة اليونانية وحضارتها قد اتصلتا ببلاد الشرق منذ غزا الإسكندر المقدوني أرض فارس (٣٣١ ق . م) ، وتأثرت بفلسفة الشرق وأفكاره . ونجم عن هذا الاتصال مزيج ثقافي جديد يضم ألواناً يونانية (هلينية) وأخرى شرقية ، عرف باسم الثقافة الهلينية . وظل هذا الطابع الهلينيستي يسود بلاد الشرق إلى عصر انصوائه في رقعة الدولة البيزنطية .

ولما انفرد الأمويون بحكم الدولة الإسلامية وجذبوا بأرضها التي كانت تابعة للبيزنطيين من قبل ، مثل الشام ومصر مراکز حضارة هلينية موزعة بين مدنها الكبرى . فكانت هناك أنطاكية بالشام وقيصريه بفلسطين والاسكندرية بصفة

خاصة في مصر ، تذخر جميعها بالعلماء والمدارس والمتاحف ، ويمتلىء جوها بالحياة الفكرية والحضارة الهلينستية . وقد آل هذا الشجر الثمين من كنوز المعرفة إلى دولة الإسلام^(١) ، وتولى الأمويون استغلاله وتنميته لصالحهم وما فيه خير دولتهم .

اعتمد الأمويون على أنفسهم في تنمية نصيبهم من تراث الثقافة الهلينستية ، ثم اتجهوا إلى البيزنطيين يستعينون بهم فيما يتراءى لهم . فشجع الأمويون نقل التراث اليوناني إلى اللغة العربية ، إذا كان على هذا التراث أن يصبح عربياً إسلامياً أولاً وقبل كل شيء^(٢) . ولذا بدأت حركة الترجمة لتعريب الكتب اليونانية على نحو تعريب النظم الإدارية وسجلاتها في البلاد المفتوحة . واضطلع بهذه المهمة في مبدأ أمرها رجال من رعايا الدولة الإسلامية الذين حملوا مشعل الحضارة الهلينستية في بلادهم قبل ظهور الإسلام^(٣) .

وتجلى اهتمام الأمويين بتعريب التراث اليوناني في أعمال خالد بن يزيد بن معاوية . إذ كان مغرمًا بعلم الكيمياء ، واستدعى بعض العلماء من الإسكندرية وكلفهم ترجمة الكتب اليونانية التي تناولت هذا الموضوع^(٤) . وكانت مدرسة الإسكندرية وعلمائها في طليعة حركة نقل التراث اليوناني إلى العربية . وساعدت أحداث الفتح الإسلامي على استغلال جهود علماء الإسكندرية إلى أقصى حد . خلال العصر الأموي . إذ كانت اتخذ الفسطاط عاصمة جديدة لمصر سبباً في اضمحلال شأن الإسكندرية واضطرار علمائها إلى الذهاب إلى الشام ، التي غدت مقر خلفاء بني أمية المعروف عنهم تشجيع العلم^(٥) .

(١) عبد الرحمن بدوي ، التراث اليوناني ، ص ٦ .

(٢) عبد الرحمن بدوي ، نفس المرجع ، ص ٦ .

(٣) Khuda — Bukhsh, Islamic Civilisation, 1, 2.

(٤) Hitti, History of Syria, 498.

(٥) عبد الرحمن بدوي ، نفس المرجع ، ص ٣٨ ، ٦٨ .

وحفلت الشام وحاضرتها دمشق بالعلماء الذين وقفوا جهودهم على نقل الثقافة الهلينستية إلى العربية ، على حين تولى الخلفاء وأبناؤهم رعاية هذه الحركة الثقافية المبكرة . ولذا اجتذب بلاط الأمويين بدمشق الصليحيين في العلوم الإغريقية وغيرهم ممن يمكن الاستفادة بهم كالأطباء^(١) . وغدت تربة الشام صالحة لغرس بذور المعرفة ، وإحياء المراكز الحضارية بها . وظهر ذلك جلياً عندما انتقلت أخيراً مدرسة الطب بالأسكندرية إلى أنطاكية بالشام على عهد الخليفة عمر ابن عبد العزيز ، بعد أن اضمحل شأن الأسكندرية وانتقل مركز النشاط بها إلى القسطنطينية .

وكانت أنطاكية نموذجاً لاهتمام الخلفاء الأمويين بإحياء مراكز الثقافة الهلينستية بمقر حكمهم . إذ اشتهرت أنطاكية قبل الإسلام بتقدمها في مضمار الحضارة بفضل علمائها من اليعاقبة^(٢) . ولكن تدهورت أحوال هذه المدينة على عهد الإمبراطور هرقل بسبب غزو الفرس للشام . وظلت أنطاكية تن من وضعها حتى دخول الإسلام أرض الشام . فتولى بنو أمية إعادتها إلى سيرتها الأولى وبعث دم الحياة فيها مرة أخرى . وازدهرت أنطاكية على عهد الأمويين رغم وقوعها بالقرب من منطقة التخوم القلقة الأوضاع بين الدولتين الأموية والبيزنطية . ذلك أن موقع أنطاكية ساعد على جلب الخطوط من آسيا الصغرى^(٣) ، وحركة تبادل المراجع التي كانت تنشط في فترات السلم وانتهاء الحروب^(٤) .

(١) كان أطباء بلاط الأمويين ممن يجيدون اليونانية ، واشتهر منهم ابن أنال الذي كان يعالج معاوية ، وتياذوق اليوناني ، كما يتضح من اسمه ، والذي كان يعالج الحجاج .
(٢) ينسب اليعاقبة إلى زعيم المذهب النوفيزيقي ويدعى يعقوب براديوس ، الذي ظهر في الشام .

(٣) عبد الرحمن بدوي ، نفس المرجع ، ص ٦٩ .

(٤) عبد الرحمن بدوي ، نفس المرجع ، ص ٦٩ .

وزار بعض علماء المسلمين المشهورين القسطنطينية ، حيث أوفدهم الخلفاء في مهام خاصة . وكان من هؤلاء العلماء الفقيه عامر بن سراحيل الشعبي (المتوفى سنة ٧٢٨ م) . وهو من أهل الكوفة التي اشتهرت في هذه الفترة المبكرة من عهد الحضارة الإسلامية بأنها مركز هام من مراكز الثقافة . وعرف الشعبي بإطلاعه الواسع وأنه سمع الأحاديث التي كان يحفظها عن ظهر قلب ويرويها دون أي خلط من نحو مائة وخمسين من الصحابة ؛ وظهر من تلاميذ الشعبي أبو حنيفة العظيم . وقد زار الشعبي بلاط القسطنطينية مبعوثاً من الخليفة عبد الملك ابن مروان ، واسترعى أنظار البيزنطيين بعلمه الواسع ، وغزارة مادته .

وقد ظهر في النواحي الثقافية آثار الاتصال السياسي والاحتكاك الحربي بين الأمويين والبيزنطيين وتردد صدى أعمالهما في الآداب والأشعار . فأدت الحروب إلى امتلاء آداب الدولتين بالقصص والأشعار التي تمجد البطولة والبسالة وتشيد بالآقدام والمغامرة ، وغدا كثير من الرجال الذين تناولتهم هذه الآداب شخصيات أسطورية ، لها قوة خارقة للعادة ، ومقدرة على أداء الصعب من الأعمال . فمن ذلك أن المراجع العربية تشيد بمحارب مسلم اسمه عبد الله البطال ؛ وتمجد مغامراته وحروبه ضد البيزنطيين ، على حين تروى المراجع البيزنطية الكثير عن مغامر هاجم الأراضي الإسلامية ويدعى ديجينيس أكريتاس^(١) Digenis Akritas

وإذا كانت سائر كتب الأدب العربي تروى الكثير من قصص البطولة التي أبداها المسلمون في الميدان البيزنطي ، فإن الشعر الأموي سجل بدوره نشاط قادة المسلمين وأشاد بهم . وقد اهتم الخلفاء والأمويون بالشعراء وجذبوهم إلى بلاطهم وأغدقوا عليهم العطايا الوفيرة ، حتى أصبح أولئك الشعراء صحف بني أمية ورواة.

أعمالهم . وكان من أشهر الشعراء الذين وفدوا على بلاط الأمويين بدمشق ،
وتناولوا في أشعارهم جهود بني أمية في حرب البيزنطيين وإعزاز دولة المسلمين ،
الفرزدق وجريير والأخطل ^(١) .

وقد شاهد عصر أولئك الشعراء الثلاث الفطاحل عهد اتساع الفتوح
الأموية وضم كثير من أرض البيزنطيين إلى دولة الإسلام . وكان عنوان عظمة
الأمويين في تلك الفترة ثلاثة من أعظم الخلفاء ، عبد الملك بن مروان وإبنسائه
الوليد وسليمان . فصاير الشعراء الثلاثة الأحداث التي قام بها أولئك الخلفاء ضد
البيزنطيين وسجّلوها في أشعارهم . على أن معظمهم أشادوا بسليمان الذي اشتهر عنه
تحمسه لحصار القسطنطينية وبذله أقصى الجهود لإدلال البيزنطيين . وسجل
جريير في مدائحه أفضال سليمان في نهضة الإسلام وانتصاراته على البيزنطيين ^(٢) .

وتناول الشعراء كذلك أعمال قادة الأمويين ضد البيزنطيين وخلدوا أعمالهم
في أشعارهم . وكان مسleme بن عبد الملك أخو الخليفة على رأس من مدحهم جريير
وسجل أعماله الرائعة ضد البيزنطيين ^(٣) . وقد أجاد جريير في شعره ، وإن كان
مقتضباً ، ويعد مدحه تعبيراً عما ساد عصره من حماس وحب للجهاد ، وأن الخليفة
وأخاه كانا رمز الشهور الإسلامي ، وتفانى الجميع في الزود عن حياض الإسلام
وإعلاء شأنه .

(١) اشتهر أولئك الشعراء الثلاثة بأنهم كانوا في طليعة شعراء العصر الأموي وأكثرهم
اتصالاً بالخلفاء الأمويين . وعرف عنهم الميل إلى الهجاء الشديد والمدح كذلك . وتحفل المراجع
بالكثير من أخبار هؤلاء الشعراء الثلاثة وما خلفوه من قصائد .

(٢) مدح جريير الخليفة سليمان وأشاد بانتصاراته على البيزنطيين ، وداهر ملك السند
كذلك :

هذاك الذي يهدي الحسابق للنقي وأعطيت نصراً لم تنله الخلائف
وأرض هرقل قد قهرت وداهرا ونسعى لكم من آل كسرى النواصف

(٣) أشاد جريير بما عرف عن مسleme بن عبد الملك من حب قيادة الجيوش الإسلامية
وما ناله من نصر : فقال

ولم تخل الأشعار الأموية من تسجيل طرائف تتردد فيها صدى أحداث الحروب بين المسلمين والبيزنطيين ، ومن ذلك أن الخليفة سليمان خرج للحج مرة وحجت معه الشعراء ، وهناك عقد مجلساً بالمدينة حيث وصلت طائفة من أسرى البيزنطيين ، بلغت نحواً من أربع مائة . وكان من بين الأسرى شخصيات رأى الخليفة قتلها ، فأمر الفرزدق الشاعر أن يتناول سيفاً ويطيح رأس أسير . ولكن أحد مناهضى الفرزدق دس له سيفاً غير ماض ، ولما ضرب به الأسير لم يمت ، فضحك الخليفة والحاضرون ، وشمّت أحوال سليمان وهم بنو عبس بالفرزدق ^(١) . فرد بشعر يسفه به المتآمرين عليه ، ويذكر أن شيمة سليمان العفو عن الأسرى وإطلاق سراحهم . ^(٢)

وهكذا حفلت الآداب الأموية بنماذج متعددة تصور مظاهر الاتصال الثقافي بين المسلمين والبيزنطيين ، وتبين مدى ما كان للخلفاء الأمويين من تأثير في رقي الحركات الثقافية بالدولة الإسلامية . على أن أهم مظهر ميز الثقافة الإسلامية في هذه الحقبة المبكرة هو ظهور الطابع الشرقى في الحضارة الهلنيسية والاستفادة من ثقافات بلاد البحر الأبيض المتوسط . وتعد الحقيقة السالفة من أهم العوامل التي غذت حضارة المسلمين بدم جديد ، وجعلتها تزدهر على عهد العباسيين .

== مسلم حرار الجيوش إلى العدا
يداك تسقى السمام عدونا
(١) كتاب النقائض ، ٣٨٣ .

وأنشد الفرزدق معرضاً يبنى عبسى :
إن يك سيف خان أو قدر أبي
فسيف بنو عبس وقد ضربوا به
(٢) وعرض الفرزدق في هذه المناسبة أيضاً بأعدائه ، ومدح فضائل سليمان وميله إلى إطلاق سراح الأسرى قائلاً :

أحق بأيام العلى والكارم
أبا عن كليب أو أبا مثل دارم
فلا تقتل الأسرى ولكن تفكرهم
فهل ضربة الرومى جاعلة لكم

الاتصالات الدبلوماسية

لم تقم الدولتان الأموية والبيزنطية ستاراً يفصل كل منهما عن الأخرى تمام الانفصال ويجعلهما تعيشان عيشة إنعزالية موحشة . إذ استلزمت حملة الجوار وقيام الحروب بينهما ظهور نوع من الاتصالات الدبلوماسية ، تهدف إلى حل المشاكل التي تطرأ لهما ، وخدمة سائر الأغراض الأخرى التي تمن للفريقين . ولكن يلاحظ أن العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين اختلفت عما نعرفه في الوقت الحاضر « بالتمثيل الدبلوماسي » بين دول العالم . إذ لم يكن هناك في الدولة الإسلامية أو البيزنطية دور سفارات يقيم بها ممثلون دائمون للإشراف على شئون دولتهم وحماية مصالحها .^(١)

كان التمثيل الدبلوماسي بين الأمويين والبيزنطيين يقتصر على إرسال سفير عندما تقتضي الظروف ، الاتفاق على عقد هدنة أو التفاهم على إنهاء وضع شاذ خاص بأسرى الحرب أو بمسائل تجار من رعايا الدولتين . ويشبه هذا النوع من التبادل الدبلوماسي ما نعرفه اليوم بالسفراء فوق العادة ، وهم الأشخاص الذين توفدهم الدول لحضور حفلة زفاف أو إبرام اتفاق ، ثم تنتهي مهمتهم بانتهاء المناسبة أو المهمة التي أوفدوا من أجلها ، ويعودون إلى بلادهم .

وظهر في هذه الفترة المبكرة من الاتصال الدبلوماسي بين المسلمين والبيزنطيين نظم مقررة اتبعها الفريقان ، حتى يتمكن السفراء من تأدية رسالتهم على أتم وجه . فقد راعى أولو الأمر في الدولتين الإسلامية والبيزنطية تزويد السفير بخطاب يحمل تعريفاً بشخصية الرسول والغرض من رسالته وتحويله حق التحدث رسمياً باسم دولته . وكان هذا الخطاب أشبه بأوراق الاعتماد التي يحملها السفراء اليوم

Runciman, op cit, 156. (١)

Baynes, the Byzantine Empire, 74.

عند مقابلتهم رؤساء الدول التي يفدون إليها . وإلى جانب ذلك تمتع السفراء المسلمون والبيزنطيون بكافة أنواع الحصانة الدبلوماسية التي نعرفها اليوم . إذ كان السفير يعتبر رمز الدولة التي توفده وله كافة الحقوق التي لرئيس دولته .^(١)

وحرص الأمويون والبيزنطيون على الحفاوة بالسفراء وإغداق مظاهر التكريم عليهم . إذ قصد كل من الفريقين إظهار عظمته لممثل الطرف الآخر والعمل على ترك أطيب الأثر في نفسه . وكان ذلك من الوسائل الفعالة في حل المشاكل وتصفية الأحقاد . وخصصت الدولتان الأموية والبيزنطية مبالغ كبيرة للأغراض الدبلوماسية .

فاجتهد معاوية منذ أن كان والياً على الشام في تخصيص مبالغ للانفاق على استقبال السفراء وضيافتهم . فطلب من الخليفة عثمان بن عفان أن يترك له خراج بعض أراض وضياع كان يرسل إلى بيت المال في الحجاز للنهوض بأعباء التثميل الدبلوماسية . فأجابه الخليفة إلى طلبه^(٢) ، وغدا معاوية ينعم بدخل واسع كان أساس سياسته إزاء سفراء البيزنطيين بعد أن أصبح خليفة المسلمين .

وعرف عن الدولة البيزنطية مبالغتها في انتقاء سفرائها إلى الدولة الإسلامية^(٣) ، ولا سيما أنها كانت تكن لها الهيبة والاحترام . إذ أرسلت إلى دمشق بعد انتهاء حصار القسطنطينية المعروف بحرب السنوات السبع أحد رجالها المقتازين ويدعى يوحنا . وكان هذا السفير مسناً حكماً لبقاً ، عوات الدولة البيزنطية عليه الشيء الكثير في إنهاء حالة الحرب الطويلة المدى بينها وبين الأمويين .

وصل يوحنا إلى دمشق واستقبلته السلطات الأموية بالحفاوة والترحيب .

(١) ابن الفراء ، رسل الملوك ، ص ٢٠ .

(٢) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ص ١٨٣ ؛ أنظر ص ٥٨ في الكتاب .

(٣) ابن الفراء ، نفس المرجع ، ص ٢٠ .

وعقد له مجلس كبير ضم كبار شخصيات البيت الأموي وعلية القوم من المسلمين . واكتسب هذا السفير عطف معاوية لأنه حرص دائماً على إظهار احترامه للدولة الإسلامية . واستطاع يوحنا أن يعقد صلحاً مع الدولة الإسلامية مداه ثلاثون عاماً ، ثم عاد إلى القسطنطينية مزوداً بأطيب الأخبار عن عظمة البلاط الأموي ونبل رجاله ^(١) .

وبلغ حرص الدولة البيزنطية على أن يكون سفرائها إلى الدولة الإسلامية عنواناً للخلاق الرفيع مبدئاً كبيراً . فزودتهم بتعليمات مكتوبة تحضهم على التمسك بمكارم الأخلاق ، وأداء رسالتهم بصدق وأمانة . إذ حدث أن توفي أحد السفراء البيزنطيين الذين وفدوا إلى دمشق على عهد معاوية ، فوجد في جيبه « لوح ذهب مكتوب فيه حفرأ : إذا ذهب الوفاء نزل البلاء ، وإذا مات الاعتصام عاش الانتقام ، وإذا ظهرت الخيانات قلت البركات » ^(٢) . وتنهض هذه الحادثة دليلاً على ما كانت الدولة البيزنطية تعلقه من آمال على سفرائها ، وتذكيرهم دائماً بسمو الرسالة التي ينهضون بأعبائها .

وكان يتوقف على السفير إلى حد كبير تنفيذ أغراض تولته ورفع شأنها . ومن ثم كان تمسكه بالعفة النصيحة الأولى التي يزوده بها صاحب الأمر في الدولة . إذ كثيراً ما جهدت السلطات في البلاد التي يذهب إليها السفير في اجتذابه إلى جانبها لكشف سره أو تخفيف الشروط التي يحميها . وكان ذلك يتطلب معرفة بأحوال السفير ودراسة شخصيته . إذ حدث أن أرسل معاوية أحد سفرائه إلى القسطنطينية لإبرام هدنة مع السلطات البيزنطية . وكان هذا السفير مزوداً بتعليمات مشددة تقضي ألا يخفف من شروط الهدنة مع البيزنطيين . ولكن لم يستطع هذا السفير تنفيذ وصية معاوية ، وتهاون في عقد الهدنة حتى جاءت

Bury, op cit, 312 (١)

(٢) ابن الفراء ، نفس المرجع ، ص ٣٤ .

في صالح البيزنطيين^(١). ولما عاد السفير عزله معاوية عن تولى مناصب الدولة ،
وأثبت أنه يقف بالمرصاد لتصرفات سفرائه .

واشتهر من سفراء الأمويين إلى بلاط القسطنطينية العالم الفقيه عامر بن سراحيل
الشعبي . إذ بعثه الخليفة عبد الملك بن مروان إلى امبراطور الدولة البيزنطية
في رسالة خاصة . وقد استطاع الشعبي أن يثبت علو كعبه في ميدان الدبلوماسية
الاسلامية ورفع شأن دولته . اذ دخل في مناقشات مع السلطات البيزنطية جعلته
موضع احترامها وإجلالها . فأقبل عليه الامبراطور يحادثه وسأله عدة أسئلة أجاب
عليها الشعبي إجابات رائعة حازت إعجاب الامبراطور . وظمت السلطات البيزنطية
أن الشعبي من أبناء البيت الأموي لنبل تصرفاته وإطلاعه الواسع . وقد حسد
الامبراطور البيزنطي الخليفة عبد الملك على هذا الرسول الحاذق^(٢) ، وعمد
الى الوشاية بينهما ، لكن فطن الخليفة الى حيلة الامبراطور وازداد تمسكا
ورعاية بالشعبي .^(٣)

وتعددت أغراض المهام التي أوفد من أجلها السفراء الأمويون والبيزنطيون ،
ولسكن كان أبرزها محاولة إنهاء حالة حرب أو الابقاء على فترات السلم أطول مدة
ممكنة ، إذ يلاحظ أن العصر الأموي حفل بالحروب المستمرة تقريبا بين المسلمين
والبيزنطيين وتبادل الإغارات الخربة بينهما . على أنه لم تقم سفارات كبرى بين
الدولتين الأموية والبيزنطية لتبادل الأسرى (الفداء) على نحو ما حفل به العصر
العباسي فيما بعد ، رغم اتساع دائرة الحروب في العصر الأموي ، وما يتبع ذلك
من ازدياد عدد الأسرى الذين يتردون من الطرفين . فلا توجد في المراجع
إلا إشارات عابرة عن اتصالات دبلوماسية لإطلاق سراح بعض الشخصيات

(١) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص ٦١ ، ٦٢ .

(٢) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ج ٧ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٣) ابن القراء ، نفس المرجع ص ١٣ .

السكبرى من رجال الدولتين ، واقصر القداء على حالات فردية ^(١) . وكثيراً ما استهدف المسلمون والبيزنطيون من تبادل كبار الأسرى التبادل على حسن الفية أو الإسراع في عقد معاهدة أو هدنة .

على أن هناك سفارات دبلوماسية لم تحمل من طرافه في نوع المهمة التي تقوم بها . إذ كان بعض السفراء يحملون كتباً فيها مداورات ومحاكاة على نحو ما يفعل بعض رجال الدبلوماسية في الوقت الحاضر . وكان الهدف من هذه السفارات النبيل من أولى الأمر في البلاد أو وصف بعض أعمالهم بالسفه ^(٢) . وتجلى هذا النوع من الرسائل حين أخذ الوليد كنيسة دمشق وحولها إلى المسجد الأموي ، إذ كتب إليه إمبراطور الدولة البيزنطية « إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها ، فإن كان حقاً فقد خالفت أباك ، وإن كان باطلاً فقد أخطأ أبوك ^(٣) . » فلما وصلت الرسالة إلى الوليد رأى ما فيها من مغالطة ، وعقد مجلساً من العلماء وقرأ عليهم الرسالة وشاورهم في طريقة الإجابة عليها . واستطاع الفرزدق الشاعر أن يأتي بأحسن الآراء . إذ أشار على الخليفة أن يرد على الإمبراطور بقصة سليمان وداود الذين تعرضا للقضاء في إحدى المشاكل ، وأبدى فيها كل منهما رأياً دون أن يختلفا معاً . واستشهد الوليد في رسالته بالآية القرآنية « وداود وسليمان ، إذ يحكما في الحرب ، إذ نفشت فيه غم القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان ، وكلا آثينا حكما وعلماً . » ^(٤)

ومهما يسكن من أغراض السفارات الأموية البيزنطية فإن الجانب الذي راعاه الطرفان دائماً هو وضع برنامج خاص لضيافة السفراء والترفيه عنهم . إذ كانت السفارة تضم بعض شخصيات كبيرة يجب إعطاءهم صورة حسنة عن

(١) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ من ١٩١ .

(٢) ابن القراء ، نفس المرجع ، ص ٤١ .

(٣) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٤١ .

(٤) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

الأمّا كن التي يذهبون إليها . وكانت المبالغة في إكرام السفراء أمراً حرص عليه الأمويون والبيزنطيون ، ولا سيما أنهما تبادلوا الهدايا أحياناً ^(١) . فكان ركب السفارة يصل محملاً بالهدايا النادرة لأولى الأمر في البلاد وغيرهم من كبار رجالهم . وفي العاصمة يستقبلهم عامل خاص ينقدهم الآداب والتقاليد التي يجب أن تراعى عند مقابلة صاحب البلاد ^(٢) .

وخصصت دور ينزل بها السفراء طوال الفترة التي يقضونها في العاصمة ^(٣) . وحرصت السلطات الأموية على مراقبة السفراء البيزنطيين حين يقدون إلى دمشق دون أن تشعرهم بذلك . إذ كثيراً ما كان السفراء البيزنطيون يقدون في تلك الفترة المبكرة من الاتصال السياسي بين الدولتين للتجسس ، والوقوف على مبلغ استعدادات الأمويين الحربية . وفي أمثلة ذلك السفارة التي أرسلتها الدولة البيزنطية أثناء استعداد الخليفة الوايد لحصار القسطنطينية ، — وهو الحصار الأخير لها — زمن سليمان ^(٤) . وكانت الدولة البيزنطية تفرد دوراً مخصوصة ينزل بها السفراء المسلمون عندما يأتون إلى القسطنطينية ، وتهتم بضيافتهم ورعاية مطالبهم .

وكان من المرافق التي يحرص الأمويون على عرضها للسفراء البيزنطيين قصورهم وروائع مساجدهم ، وكثيراً ما استمتع الخلفاء الأمويون بالملاحظات التي كان السفراء يبدونها ويأخذون بها إذا كانت حسنة مقبولة . ذلك أنه وفد على معاوية رسول بيزنطي بعد أن فرغ من بناء قصره المعروف بالخضراء ،

(١) إكرام السفراء عادة قديمة ترجع إلى عهد الرسول الكريم ؛ إذ جاءه سفير من الدولة البيزنطية نال كافة الإكرام . فقد قال الرسول (ص) للسفير البيزنطي « إنك رسول قومك ، وإن لك حقاً ، ولكن جئتنا ونحن مرملون . فقال عثمان بن عفان ، أنا أكسوة حلة صفورية ، وقال رجل من الأنصار على ضيافته » .

(٢) Runciman, op cit, 157.

(٣) Hamidullah, Muslim Conduct of State, 139.

(٤) انظر الكتاب ص ١٨٤

والذى أصبح فيما بعد دار الإمارة . وكان القصر مبنياً بالطوب ، فلما شاهدته السفير البيزنطى أبدى عليه بعض الملاحظات ، ورواها حين سأله مساوية « كيف ترى هذا البنيان ؟ » فرد السفير قائلاً « أما أعلاه فللعصافير ، وأما أسفله فللفار » . وأدرك معاوية صحة انتقاد السفير ، وأعاد بناء قصره من الحجارة ، مما جعله رائعاً صالحاً للبقاء طويلاً (١) .

وحرص الخلفاء الأمويون كذلك على جعل سفراء الدولة البيزنطية يشعرون بعظمة العمارة الإسلامية ، ولا سيما فى مساجدهم . فكان الجامع الأموى بدمشق قبلة أنظار السفراء ، يطلبون مشاهدته والتمتع بما فيه من روعة البقاء . ولم يستطع بعض السفراء البيزنطيين إخفاء ما دخل قلوبهم من هيبة وروعة عند مشاهدة الجامع الأموى .

وتجلى نجاح الأمويين فى أهدافهم عند ما وفدت سفارة بيزنطية من عشرة رجال إلى دمشق زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز . إذ عهد الخليفة إلى عشرة رجال مسلمين ممن يعرفون اللغة اليونانية بمصاحبة أفراد هذه السفارة دون أن يطلعوهم أنهم يعرفون اللغة اليونانية ، ثم كلفهم أن يدونوا له ما يبدونه من ملاحظات . ولما دخلت السفارة البيزنطية الجامع الأموى وأخذت تتفرس فى روائعه الفنية خر رئيسها مغشياً عليه ، فحمل إلى منزل الضيافة ، ولما أفاق سأله رفاقه عما حل به فجأه ، إذ كان طوال الطريق موفور الصحة والعافية . فقالوا له « ما الذى عرض لك حين دخلت هذا المسجد ؟ فقال ، إنا معشر أهل رومية (أى القسطنطينية) نتحدث أن بقاء العرب قليل ، فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة سيملقونها ، فلذلك أصابنى ما أصابنى » (٢) .

(١) ابن عساکر ، نفس المرجع ، ج ١ ص ٢٤٣ .

(٢) ابن عساکر ، نفس المرجع ، ج ١ ص ٢١٠ .

وكانت الدولة البيزنطية بدورها تعرض على السفراء المسلمين روائع عاصمتها وما بها من مباحج . فكانت تعهد إلى بعض موظفيها باصطحاب السفراء لرؤية كنيسة أياصوفيا وقناطر المياه والأديرة القائمة حول القسطنطينية ، والحفلات الرياضية التي كانت تقام في الملعب (Hippodrome)^(١) . وأعجب السفراء المسلمون بنواحي النشاط في الملعب ، حيث كان المتنافس لسائر مباحج سكان العاصمة . وكان سباق العربات أهم لون في الاستعراضات التي تقوم في الميدان ، وفي الفترة التي تتخلل سباق العربات كانت تعرض ألعاب يقوم بها المهرجون والبهلوانات . فمنهم من يمشي على الحبل ، ومنهم من يضع عموداً على جبهته ويتسلقه الأطفال .

وكان الامبراطور وكبار رجال دولته يحضرون مع السفراء أحياناً لمشاهدة الألعاب في الميدان ، وكانت لهم مقاصير خاصة . وعندما يدخل الامبراطور مقصورته ويرفع غطاء رأسه ويرسم علامة الصليب تبدأ الموسيقى تعزف وكذلك اللعب . وقام بالقرب من الميدان دار البلاط ، التي كان ينزل بها السفراء ، وكبار رجال الأسرى من المسلمين . وهذه الدار بنيت منذ أيام الخليفة عبد الملك ، وروى أحد الكتاب المتأخرين سبب بناء هذه الدار قائلاً : « اعلم أن مسلمة بن عبد الملك لما غزا بلد الروم ودخل هذا المصر شرط على كلب الروم بناء دار بإزاء قصره في الميدان ، ينزلها الوجوه والأشراف إذا أسروا ليكونوا تحت كنفه وتعاهده ، فأجابه إلى ذلك ... ولا يسكن دار البلاط إلا وجيه في إجراء وتعاهد وتنزه »^(٢) .

وخلف لنا الرحالة المسلمون فيما بعد صوراً عن مشاهداتهم في الملعب

(١) Runciman, op cit, 157, 158.

(٢) القدس ، أحسن التقاسيم ، ص ١٤٧ .

البيزنطى^(١) ، ممسًا ينفض دليلا على حسن السياسة الدبلوماسية التى وضعها الأمويون ، والتى نعم خلفاؤهم بها ، وساروا على هديها فيما بعد . اذ ترعرعت نواة التمثيل الدبلوماسى التى وضعها الأمويون مع الدولة البيزنطية على عهد العباسيين ، وحفلت المراجع الإسلامية والبيزنطية بشتى الصور عن مظاهر هذا التبادل السياسى .

(١) ذكر ابن رسته ، فى كتابه الأعلام النفسية ، ص ١٢٠ ، وصفا الملعب عند البيزنطيين

فيما يلى : —

« فى وسط المدينة بلاط الملك وهو قصر ، وإلى جانبه موضع يقال له البذرون (وهو Hippodrome) ، وهو يشبه الميدان يجتمع اليه فيه البطارقة ، فيشرف عليهم الملك من قصره وفى وسط المدينة . وعلى غربى الميدان .. بابان ، يسوقون إلى هذين البابين ثمانية من الخيل . وهناك عجلتان من ذهب يشد كل عجلة على أربعة من الخيل ، ويركب فوق العجلة رجلان قد ألبسا ثياب متوجة بالذهب ، ويتركها تجرى .. حتى تخرج من تلك الأبواب .. فأياها سبق صاحبها ، ألقى إليه من دار الملك طوق من ذهب ورطل ذهب ، وكل من فى قسطنطينية يشهدون ذلك الميدان » .

السياسة الدينية

أظهر الاتصال الدبلوماسي بين الأمويين البيزنطيين احترام الفريقين لشعائر ديانتيهما ، واتخاذ كل منهما سياسة خاصة في المسائل الدينية التي تعرض لها . فسارت الدولة الأموية على سياسة معاملة أهل الذمة من رعاياها بالحسنى ، وفق تعاليم الدين الإسلامي السامية . وكان أهل الذمة يكونون إحدى الطبقات الأربعة التي انقسم إليها المجتمع الأموي ؛ إذ وجد إلى جانبهم طبقة العرب المسلمين الذين قاموا بالفتوحات وقبضوا على أزمة الحكم في الدولة الإسلامية ، ومن هذه الطبقة الأمويون الذين أخذوا أعنة السلطان في يدهم . ثم هناك الموالي من أهالي الولايات الذين اعتنقوا الإسلام وأخيراً طبقة الرقيق . وكان المسيحيون خاصة هم حلقة الاتصال بين الأمويين والبيزنطيين وحجر الزاوية في سياستيهما الدينية .

واشتهر عن الدولة الأموية حسن معاملتها للمسيحيين حتى وصل كثير منهم إلى مراتب عالية في الإدارة الإسلامية . وكان لهذه السياسة أثر كبير في استقرار أوضاع الدولة الإسلامية في هذه الفترة المبكرة من تاريخها السياسي ، وسد الثغرات التي حاول البيزنطيون النفاذ منها إلى أرض الإسلام . إذ اتجهت الدولة البيزنطية إلى تغيير سياستها بعد ظهور الإسلام بما يحقق أغراضها ، فالمعروف أنها كانت من قبل تعامل رعاياها من أصحاب المذاهب لدينية الخالفة لمذهبها الرسمي معاملة قاسية وتعتبرهم « هراطقة » خارجين على قوانين الدولة ويستحقون أشد ألوان التعذيب .

وبظهور دولة الإسلام ودخول كثير من المسيحيين في التبعية لها اتجهت الامبراطورية البيزنطية إلى تجديد أساليبها وسياساتها ، بحيث جعلت من نفسها صاحبة الحق في رعاية المسيحيين في بلاد المسلمين والدفاع عن مصالحهم . وعمد

البيزنطيون بهذه السياسة الجديدة وضع العراقيل أمام دولة المسلمين الفتية ، ولا سيما في الجهات التي لم تستقر فيها أقدامهم تماماً . ونجحت هذه السياسة مع البربر المسيحيين بشمال إفريقيا ، ومحاولة ضمهم إلى جانبهم في صد التقدم الإسلامي على بلادهم . ولكن المسيحيين لقوا كل عناية وتكريم من المسلمين ولا سيما من الأمويين حكام الدولة الإسلامية .

وأظهر معاوية مؤسس الدولة الأموية كل مودة وتقدير للمسيحيين بالشام . فتزوج بامرأة مسيحية من قبيلة كلب وتدعى ميسون . وكانت زوجته على المذهب اليهودي الذي اضطهدت الدولة البيزنطية من قبل أنصاره ومعتنقيه . وارتفع شأن ميسون ولا سيما أنها أنجبت لمعاوية ولي عهده يزيد . فكانت تحمل ابنها إلى مضارب قبيلتها حيث يقدم مع أقاربه من المسيحيين ، وأثبت بنو كلب أنهم أوفياء مخلصون للبيت الأموي ^(١) .

وشب يزيد وسط أصدقاء من المسيحيين . فكان من أعز أصدقاءه في أيام شبابه يوحنا الدمشقي . وكان هذا الصديق المسيحي حفيد منصور بن سرجيوس الذي تولى منصب المشرف المالي لمدينة دمشق أواخر العصر البيزنطي ، ونصب معاوية والد يوحنا على إدارة الشؤون المالية ^(٢) . وظل يوحنا الدمشقي يتمتع بحرية عقيدته في ظل خلفاء بني أمية حتى أنه غدا من أقطاب المسيحية وفطاحلها المدافعين عنها والمهتمين بمشاكلها . وقد خلف يوحنا أباه كذلك في الإشراف على إدارة مالية دمشق . وظل هذا المنصب المالي حكراً على أسرة سرجيوس حتى عهد الوليد وتعريب الدواوين ^(٣) .

وكان الأخطل شاعر القصر الأموي مسيحياً ، إذ كان ينتمى إلى عرب

Hitti, History of Syria, 424 440 ;

(١)

Lammens, Le Règne du Calife Mo'awia 286.

Hitti, op cit, 440, 499

(٢)

(٣) بروكلمان ، نفس المرجع ، ص ١٦٨ .

تطلب النصارى الذين أقاموا في الحيرة . وكان الأخطل نديماً ليزيد كذلك . وصديقاً ليوحنا أيضاً . ودأب الأخطل على دخول قصر الخليفة وقد تدلى من عنقه الصليب ، ويلقى قصائده التي نالت إعجاب الخليفة ومن حوله . وبلغ التسامح الديني أقصاه في السماح للأخطل المسيحي بالتدخل في المناقشات التي كانت سائدة بين عرب الشام المسلمين ^(١) . إذ ظهر على عهد الأمويين الشعر السياسي الذي يمجّد الأمويين ويشيد بأعمالهم ، ونظم الأخطل القصائد في مدح البيت الأموي .

واستخدم الأمويون أطباء مسيحيين . حتى كان أطباء الخلفاء منهم . فكان طبيب معاوية مسيحي يدعى ابن أنال . وقد نصبه معاوية مديراً مالياً لمقاطعة حمص ، وهي وظيفة لم يسبق أن شغلها مسيحي في الدولة الأموية ^(٢) . إذ كانت الوظائف التي تولّاها المسيحيون على عهد الأمويين هي المناصب التي كانوا يشغلونها من قبل ، واحتفظت السلطات الإسلامية بها لهم . ولسكن جاء تعيين معاوية لابن أنال على شؤون مالية حمص دليلاً على ما تتمتع به المسيحيون من عطف ورعاية .

وكان يطيب لمعاوية أن يجلس إلى جماعات المسيحيين من المذاهب المختلفة ويستمع إلى جدلهم الديني ومناقشاتهم المختلفة . وذخرت الكتب التي وضعها المسيحيون الأول بصور متعددة للمجالس التي عقدها المسيحيون من رعايا الدولة الأموية بحضرة الخليفة ، وهي تنطق بألوان التسامح الديني وسمو الإسلام . وأشادت المراجع البيزنطية كذلك بما أثر عن معاوية من عطف على المسيحيين ، إذ تشير إلى أن معاوية سمح للمسيحيين بإعادة كنيسة الرها سنة ٦٧٨ م ، وكانت قد تحطمت بفعل أحد الزلازل ^(٣) .

Lammens, op cit, 383 (١)

(٢) حتى ، نفس المرجع ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

Bury, op cit, II, 413 (٣)

وقد حفظ المسيحيون معاوية وآله هذا التسامح الدينى وما نالوه على يديهم من عطف وتكريم . فأخلصوا للبيت الأموى ، وتفاؤوا فى تأدية ما عهد إليهم أداءه من أعمال . فاستطاع الأمويون أن ينهضوا بأعباء إدارة شؤون دولة الإسلام على أحسن الوجوه وخيرها . ومن ناحية أخرى سجل المسيحيون فيما وضعوه من مؤلفات فضائل البيت الأموى وأشادوا به بما يملى من شأنه .

وتردد صدى المعاملة الطيبة التى لقيها المسيحيون فى الدولة البيزنطية ، إذ رأت السلطات بها أن من الأجدى الاعتراف بفضائل المسلمين ورعاية شعائرهم من يفد منهم إلى بلادها . وكان معظم الزائرين المسلمين لبلاط القسطنطينية من السفراء ، فضلا عن الأسرى المسلمين . وتجلّى احترام الدولة البيزنطية لشعائر المسلمين الدينية أن بنت بالقسطنطينية مسجداً يؤدون فيه طقوسهم حين حضورهم إلى العاصمة . وتنسب الروايات بناء هذا الجامع إلى عهد الامبراطور ليو الثالث ^(١) الذى قاوم الحصار الأموى الثالث على القسطنطينية . إذ أدرك هذا الامبراطور أن من الأجدى كسب مودة المسلمين باحترام شعائرهم الدينية ولا سيما أنه عرف سمو معاملاتهم للمسيحيين فى بلادهم .

وكان الامبراطور ليو نفسه قد نشأ فى جو إسلامى وتأثر بتقاليده . إذ هو من مدينة صرخش فى منطقة التخوم الإسلامية البيزنطية ، وكان يجيد العربية . إجادته للغة اليونانية . وقد نهج ليو على سياسة دينية إزاء رعاياه كان لها صدى فى الدولة الأموية ، وجاءت دليلا على ما اتصفت به الدولة الإسلامية من تسامح إزاء حرية العقيدة للمسيحيين . إذ رأى الامبراطور أن عبادة الأيقونات ، أى الصور المقدسة والتماثيل التى تصور العذراء والقديسين غدت ظاهرة متفشية بين رعاياه ، وصمم على وضع حد لهذه الظاهرة ، وشن حملة شعواء على أنصارها . وتعرف سياسة الامبراطور ليو فى التاريخ البيزنطى باسم الحركة اللايقونية ، أى الحركة

(١) المقدس ، نفس المرجع ، ص ١٤٧ .

المنافضة للصور والتماثيل المقدسة وعبادتها ، وإصلاح الحالة الدينية وتطهيرها من الماديات ^(١) .

أصدر الامبراطور ليو الثالث سنة ٧٢٦ م مرسوماً يطلب فيه من القائمين على شئون البيوت الدينية والأديرة رفع الصور المقدسة إلى أماكن عالية ^(٢) حتى يقلع الناس تدريجياً عن الوقوف والركوع أمامها خاشعين مبتهلين ^(٣) . وأدى هذا المرسوم المعتدل الى فتنة شديدة بالقسطنطينية ، مما يدل على أن الإيقونات كانت تحتل ركناً أساسياً من اعتقادات الناس . غير أن الامبراطور رأى عدم التخاذل أمام ثورة شعبية لا تقوم على أساس . وإنما زادت الفتنة عزماً ، إذ أعقب مرسومه الأول بمرسوم آخر أزيلت بمقتضاه التماثيل والصور المقدسة الموجودة في الكنائس وغيرها ^(٤) .

على أن تطبيق هذا المرسوم أثار ضجة عالية في القسطنطينية امتدت آثارها إلى خارج العاصمة ، إذ ناهض معظم رجال الدين السياسة اللاإيقونية التي فرضها الامبراطور ليو ، وتذرعوا بأن بقاء الصور والتماثيل وسيلة لتقريب الدين إلى أذهان الناس . وظهر من طبقة رجال الدين أحد فطاحل علماء المسيحية المقيم في أرض الدولة الأموية وهو يوحنا الدمشقي ؛ إذ عارض يوحنا سياسة الامبراطور ليو اللاإيقونية ، وكتب في ظل الخلافة الأموية ثلاث مقالات تعد من أروع ما كتب دفاعاً عن الصور المقدسة وإجازة تقديسها . إذ قال إن ما يعبد هو الشخص الذي تمثله الصورة لإمادة الصورة نفسها ^(٥) .

واشتد الجدل والنزاع حول مسألة الإيقونات ، فاتهم ليو بأن سبب حملته هو محاولته التقرب من الدولة الإسلامية ، ووصفه بعض المراجع بأنه « ذو عقلية

(1) Bury, op cit II, 428,429.

(2) Vasiliev, L'Empire Byzantin I, 339, 340.

(3) Ibid, 232.

(4) Ibid, 342. 343.

(5) Hitti, op cit. 501

عربية « . وكانت الدولة الإسلامية قد بدأت منذ ثلاث سنوات ، قبل مسيوسم ليو بإزالة الإيقونات — أى فى سنة ٧٢٣ م — ، بحركة أشبه بما قام به الامبراطور البيزنطى . إذ أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك سنة ٧٢٣ م / ١٠٤ هـ ، بتعطيم الصليبان فى كل مكان ، ومحو الصور والتماثيل من الكنائس فى جميع بلاد الدولة الإسلامية ^(١) . ولكن السلطات الإسلامية لم تمنع رعاياها المسيحيين من الأدلاء بأرائهم فى المسألة اللا إيقونية ، رغمًا عن أنها لم تقر عبادة الإيقونات فى أرضها نفسها .

وهكذا احترمت الدولة الإسلامية وجهة نظر رعاياها المسيحيين ، ولم تكبرهم على اتخاذ عقيدة معينة فى شئونهم الدينية الخاصة . فلم تتعرض بأى أذى للقديس يوحنا الدمشقى حين طاف بأنحاء الشام يناضل من أجل عبادة الصور المقدسة ويدحض آراء المعادين لها . وبلغ من حماس يوحنا أنه خاطر بنفسه وزار بلاط القسطنطينية ليدافع عن آراءه فى المشكلة اللا إيقونية . ويعتبر يوحنا نموذجًا لتسامح الإسلام ، إذ لم يكتف بالدفاع عن الإيقونات فحسب ، وإنما ألف ترانيم لا يزال بعضها مستعملًا فى احتفالات الزواج البروتستانتية ، وتعد من أجل ما وصل إليه شعراء الكنيسة المسيحيون من إجادة وروعة فى الأدب الكنسى . وله فضلًا عن ذلك كتب دينية وأناشيد تجعله درة لأمعة فى جبين الكنيسة المسيحية على عهد خلفاء بنى أمية ^(٢) .

ومن ثم اتصفت السياسة الدينية لكل من الدولتين الأموية والبيزنطية بالابتعاد عن التعصب المذهبى ، وما يودى ذلك من محاولة أنصار كل ديانة القضاء على أتباع الديانة الأخرى . وهذا أمر فريد من نوعه فى تاريخ العصور الوسطى عامة ، التى نعتها بعض المؤرخين بأنها عصور دين وعصور حرب .

(1) Byzantium 319.

(2) Hitti, op cit, 500, 501.

إذا عرف المسلمون على عهد بنى أمية كيف يبهرون العالم المحيط بدولتهم بسمو
تعاليم دينهم ، واعتدادهم بسياستهم الدينية إزاء رعاياهم من المسيحيين وأهل
الكتاب عامة . وضربت الدولة الأموية بذلك المثل الأعلى على عظمة
الإسلام ، وابتهادهم عما وصم به البيزنطيون من قبل من عنف واضطهاد ديني
إزاء رعاياهم ، وإنزال أشد ألوان التعذيب بهم وكبت حرية عقيدتهم .

التراث الأموي في الحضارة الإسلامية

سقوط الدولة الأموية :

إهتم الخلفاء الأمويون اهتماماً كبيراً بالشطر الغربي من دولتهم الممتد على البحر الأبيض المتوسط ، وسخروا ما به من مقومات وحضارات لخدمة المسلمين وبلادهم . واستطاع الأمويون بفضل هذه السياسة الوقوف وقفة الحارس الأمين المدافع عن أرض الإسلام ضد البيزنطيين ، وإعداد التربة في هدوء وأمان لتنبث بها بذور الحضارة الإسلامية . وكان البيزنطيون طوال العصر الأموي يترقبون للدولة الإسلامية ويسعون على النيل منها كما سئحت لهم الفرص . إذ كانت الغيرة تأكل قلوبهم لارتفاع صرح الدولة الإسلامية وعلو سلطانها في ميدان البحر الأبيض المتوسط .

واستطاعت الدولة الأموية أن تنفخ لجبهتها الغربية وتدفع عدوان البيزنطيين باستمرار بفضل سلسلة من الولاة المخلصين ، تولوا تصريف شؤون الشطر الشرقي من الدولة الأموية . إذ نصب بنو أمية على إقليم العراق الذي كان مركز القسم الشرقي من الدولة الإسلامية عمالاً عرفوا بالحزم والثبات في أداء الواجب والإخلاص لعرشهم . فكان المغيرة بن شعبه وزيد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفي نماذج رائعة لهذا النوع من الولاة الأمويين في الشطر الشرقي من الدولة الأموية .

ويعزى إلى أولئك الولاة حسن إدارة إقليم العراق وما يتبعه من بلاد ، مما جعل الخلفاء الأمويين يطمئنون اطمئناناً تاماً إلى سير الأحوال على خير ما يرجى في رقعة بلادهم الشرقية . وظل العمال الأمويون في العراق وسائر البلاد الشرقية الإسلامية على الولاء لبني أمية في أخرج الفترات التي أخذت تجتازها

دولتهم بعد عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (٧٢٤ — ٧٤٣ م) . إذ يعتبر حكم هذا الخليفة حداً فاصلاً بين عهد ازدهار الدولة الأموية وعلو شأنها وبين عهد اضمحلالها وانتشار الموامل الفتاكة في جسمها .

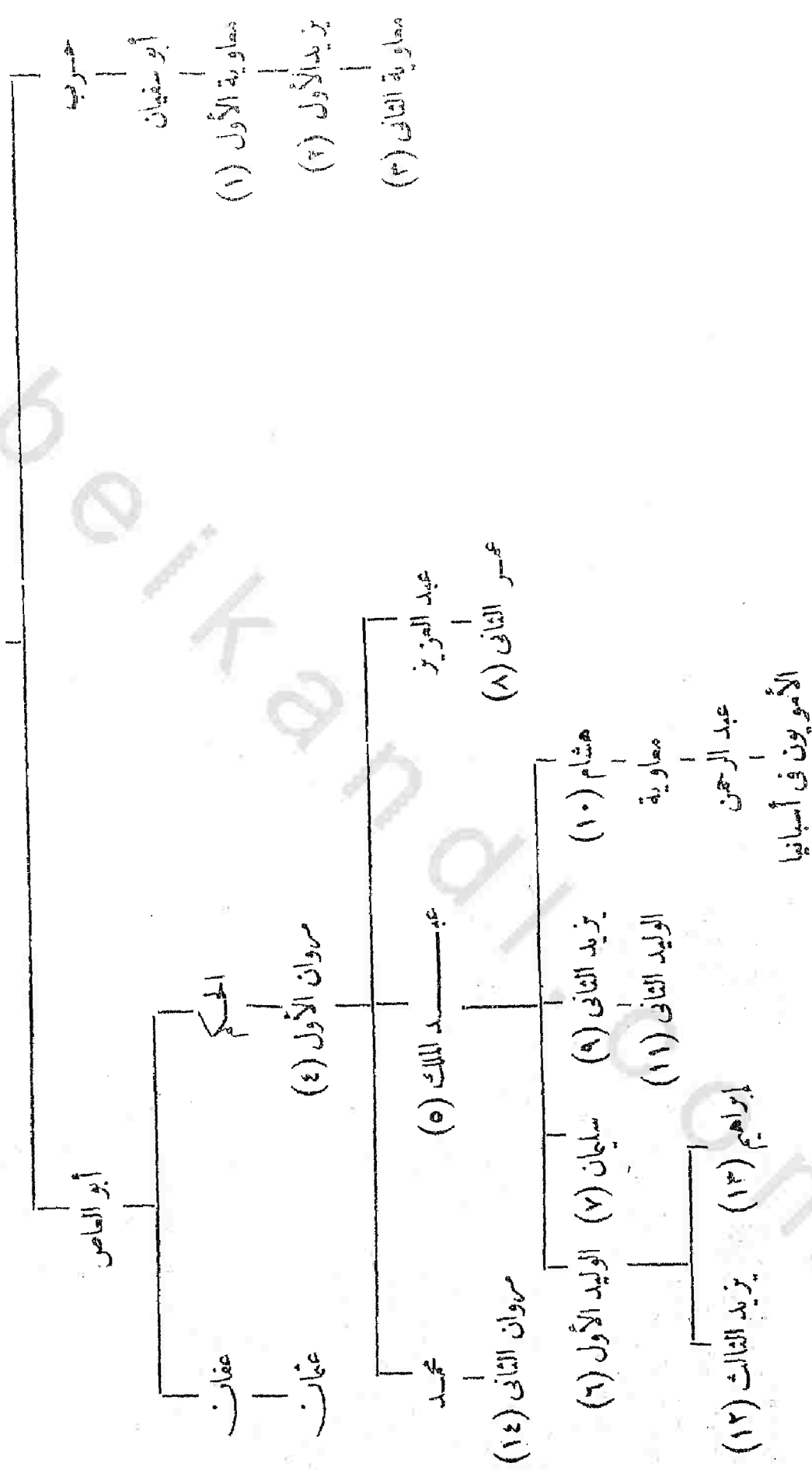
وخرجت معاول الهدم التي أطاحت بالدولة الأموية من القسم الشرقي من بلادها ، واستغلت اضطراب الأحوال في القسم الغربي من الدولة وأزالت نهائياً الأمويين عن عرش الخلافة الإسلامية . فبينما كرس الخلفاء الأمويون جهودهم في صهر حضارات البحر الأبيض المتوسط وتحويلها لمنفعة الدولة الإسلامية كانت أرض العراق وإيران تضطرب بحركات وراء ظهر الأمويين ، هدفها التخلص من سلطانهم وإقصائهم عن الخلافة .

وقد بدأت عوامل الاضطراب تحدث أحداثها في أراضي الشطر الشرقي من الدولة الأموية بعد حادثة كربلاء ومقتل الحسين بن علي بن أبي طالب (٦١ هـ / ٦٨٠ م) . إذا اختار الشيعة أنصار علي بن أبي طالب وأولاده العراق مقرأ لهم ، ونشروا هناك دعوتهم . والتف حولهم السواد الأعظم من أهل العراق تكفيراً عن تخاذلهم في نصرة الحسين ^(١) . وكان سكان العراق يحقدون على أهل الشام علو ذكركم وقيام حاضرة الدولة الأموية في ديارهم . وظل الشيعة يتربصون الدوائر بالأمويين ويعملون على الانتقام لما حل بهم هوان .

وساعد على انتشار روح التدمير في العراق ظهور حركة العباسيين ، التي عمل أصحابها على انتزاع السلطة من أيدي بني أمية . إذ جهد العباسيون بما عرف عنهم من الدهاء على احتضان الشيعة والاستفادة منهم في زلزلة دعائم الدولة الأموية . ونجح العباسيون في تحقيق أهدافهم بأن مزجوا دعوتهم مع العلويين بتظاهرهم بالمطالبة بحقوق آل البيت (البيت الهاشمي) . وكان الشيعة يعتقدون

(1) Nicholson, Literary History of the Arabs, 167, 193.

أمية



أن المقصود بالدعاية سلالة علي بن أبي طالب ، وأنهم أحق الناس بالخلافة من سائر أفراد آل البيت .

وعرف العباسيون كيف يديرون الدعوة لأنفسهم ويزيدون عدد أتباعهم وأنصارهم . فاتخذوا لأنفسهم حق الدفاع عن الدين الحق ، متهمين بنى أمية بخروجهم على تعاليم الدين الاسلامي وعدم مساواتهم في المعاملة بين سائر المسلمين المنضوين تحت رايتهم . وكان العباسيون يهدفون من ذلك كسب أهل فارس الذين انتشرت بينهم دعاية الشيعة ^(١) ، ولا سيما في منطقة خراسان في الشمال . إذ كان سكان هذه الجهات يحقدون على الأمويين اعتزازهم بالعبجية العربية وتعاليمهم على رعاياهم من غير العرب ^(٢) .

وغدا العباسيون بذلك أبطال المعارضة للبيت الأموي وقادة حركة المقاومة . وأجادوا تدبير دعايتهم ضد بنى أمية ، فتخيروا قرية صغيرة إلى الجنوب من البحر الميت تدعى الحيمة وجعلوها مركزاً لهم . وتمتاز هذه القرية بحسن موقعها وصلاحياتها لنشر الدعوة ، إذ تقع في ملتقى طرق تجارية وعلى طريق الحجاج إلى مكة . ونجح العباسيون في إيجاد اتحاد بينهم وبين الشيعة وأهل خراسان ، وكان ذلك إيذاناً بأفول نجم الخلافة الأموية . اذ عرف الحلف الجديد كيف يستفيد من مظاهر الاضطراب التي انتشرت في الدولة الأموية بعد عهد الخليفة هشام .

وكان أول مظاهر الاضمحلال التي طرأت على الدولة الأموية تجدد روح التعصب القبلي بين القبائل العربية المنتشرة في أرجاء البلاد الاسلامية . اذ قام الشقاق بين عرب الجنوب أى اليمنيين وعرب الشمال أى المضريين واشتد النزاع بينهما . وانفجر الصراع في الشام مقر الخلافة الأموية بين قيس أشهر القبائل

(1) Browne, op cit, 130, 131.

(2) Nicholson, op cit, 280, 281.

الضرية وقبيلة كلب أشهر اليميين ، وفي خراسان والعراق تجدد النزاع بين تميم أشهر قبائل عرب الشمال ، وبين الأزدية من عرب الجنوب .

ووقفت القبائل العربية وجهاً لوجه من عرب الشمال وعرب الجنوب في سائر أرجاء الدولة الأموية . وأذكى نار التنافس بينهما أن الخلفاء المتأخرين من بني أمية لم يستطيعوا حفظ التوازن بينها على نحو ما فعل معاوية من قبل ، وغيره من الخلفاء الأقوياء . فقد أخذ كل خليفة أموي يحاجي بعض القبائل ويناصرها على غيرها . وتطور النزاع بين القبائل إلى أنها غدت ساعد أمراء البيت الأموي في الوصول إلى العرس . فكان الوليد الثاني يناصر القيسية ، على حين استطاع يزيد الثالث أن يغتصب العرش منه بمساعدة اليميين ، الذين أصبحوا منذئذ موضع رعايته . وغدا الخلفاء الأمويون بذلك رؤساء أحزاب خاصة ، لا خلفاء للدولة الأموية المتحدة ^(١) .

وزاد هذه الاضطرابات سوءاً مبدأ ولاية العهد الذي وضعه الخلفاء الأمويون . فكان نظام ولاية العهد غير ثابت أو مستقر الأوضاع ، إذ جرى شكلياً وفق طريقة البيعة العامة دون أن يستطيع الخلفاء تقرير أسلوب خاص لولاية العهد بين أبنائهم . ثم زاد هذه المشكلة تعقيداً السابقة الخطيرة التي سببها مروان بن الحكم مؤسس الفرع المرواني ، إذ لم يكتف بتعيين ابنه ولياً لعهد ، وإنما عدد الأشخاص الذين يخلفونه في ولاية العهد . ونجم عن ذلك أن كل خليفة يتولى العرش يعمل جاهداً على إقصاء من عينه سلفه ويقتصر ولاية العهد على ابنه فقط . وأصبحت الخلافة تبعاً لذلك مسرحاً للاندساس في الفترة المتأخرة من عهد الدولة الأموية وصرفت الخلفاء عن المشاكل الداخلية التي أخذت تعرق مرافق الدولة وتشل أداؤها .

وكان الجو بذلك مهدداً أمام التحالف المعادي لبني أمية ليضرب ضربه

(1) Hitti, op cit, 528, 529.

الأخيرة . وبدأت نهاية الأمويين سنة ٧٤٧ م عندما نشر أبو مسلم الخراساني ، أحد دعاة العباسيين ، العلم الأسود شعار العباسيين في خراسان ، التي أصبحت أولى البقاع التي رفعت راية العصيان على الأمويين . وأظهر عامل الأمويين في خراسان وهو نصر بن سيار ولأده للبيت الأموي ، إذ أسرع بإرسال وصف للحالة في خراسان وطلب من الخليفة الأموي إذ ذاك وهو مروان الثاني (٧٤٤ - ١٧٥٠ م) تدارك الثورة في خراسان . وكان مروان يتصف بالجلد الشديد في الحرب مما جعله يلقب بمروان الحمار ، واشتهر أيضاً ببراعته في فنون القتال حتى أنه يعزى إليه تدعيم نظام الكراديس ، وهي وحدات صغيرة شديدة التماسك ، وإزالة نظام الصفوف الذي كان مستعملاً من قبل .

ولم يستطع مروان رغم صفاته الشخصية أن ينقذ الموقف ، إذ كان منغمساً في إخماد فتنة ثارت بالشام وامتدت إلى فلسطين وحمص ، وأذكي نيرانها الطامعون في الخلافة . وزاد موقف مروان سوءاً أن ولاء أهل الشام بدأ يتحول عنه ، ذلك أن مروان ارتكب خطأ فاحشاً عندما نقل مقر حكمه وخزائنه إلى حران في العراق الأعلى . وكان أهل الشام يرون بقاء الخليفة في دمشق رمزاً لعظمتهم وشرطاً للثبات في خدمته . وبذلك ذهبت صيحات نصر بن سيار سدى ، وغدا الطريق مفتوحاً أمام العباسيين لإكمال دعوتهم وحركاتهم ضد الأمويين .

ودخل أبو مسلم مرو عاصمة خراسان سنة ٧٤٧ م بمساعدة قبيلة الأزد اليمنية وفلاحى الفرس ، ثم تلا ذلك سقوط الكوفة أهم مدن العراق سنة ٧٤٩ م . وفي أكتوبر من نفس السنة أخذت البيعة العامة في مسجد الكوفة لأبي العباس ، ونودي به أول خليفة عباسي . وعندئذ أخذت راية الأمويين تنقهر أمام علم العباسيين الأسود . وقد أفاق مروان الثماني لما دهمه من خطر ساحق بعد فوات الأوان . إذ صمم على صد الزحف العباسي ، والتوجه إلى العراق قبل وصول جيوش العباسيين إلى الشام .

وسار مروان على رأس قواته والتقى بجيوش العباسيين التي كانت تحت قيادة عبد الله بن علي ، عم الخليفة العباسي ، على الضفة اليسرى للزاب الكبير أحد فروع دجلة ، وأسفرت المعركة عن هزيمة الجيوش الأموية وفرار مروان الثاني . وقد قررت معركة الزاب مصير إقليم الشام ، إذ دخل العباسيون هذا الإقليم في سهولة ويسر ما عدا مدينة دمشق ، إذ أبت هذه العاصمة أن تستسلم دون مقاومة . ولكن العباسيين حاصروا المدينة العاتية المتكبرة ، وضيقوا عليها الخناق حتى سلمت في إبريل سنة ٧٥٠ م ، بعد حصار دام أياماً قلائل .

وبسقوط دمشق زالت دولة الأمويين عن مسرح التاريخ الإسلامي . وقد جهد مروان الثاني على القيام بمحاولة أخيرة لينقذ ما بقي له من سلطان^(١) . ولكن أعماله كانت كصخرة للموت وضرراً لمن حب الحياة والتمسك بها . إذ تابع العباسيون زحفهم واستولوا على فلسطين ، ثم أرسلت فرق من الجيش لتعقب مروان الثاني في مصر . واستطاع العباسيون القبض على مروان الثاني في مدينة بوصير ، ووضعوا حداً لما كان يجيش في نفسه من أطماع بإعدامه ، وذلك في أغسطس سنة ٧٥٠ م .

وبدأ العباسيون بعد ذلك في استئصال أبناء البيت الأموي ، فأعمالوا في أفراده القائمين بالشام القتل ليطيحوا بهم تماماً عن دائرة السلطان والنفوذ ، وليأمّنوا حركات المقاومة التي قد يشيرونها ضد النظام الجديد . فبث العباسيون العميون والجواسيس في سائر أرجاء البلاد الإسلامية للقبض على الأمويين المختفين بها وقطع دابرهم . ولكن استطاع أحد أبناء البيت الأموي أن يحافظ على تراث

(١) كان مروان قد عقد التوبة على الرحيل إلى إحدى مدن الدولة البيزنطية ليستنجد بالامبراطور قنسططين الخامس . ولكن بعض مشيرة الذين لم يتخلوا عنه في محنته أشاروا عليه بالإقلاع عن هذه الفكرة ونصحوه بالارتحال إلى مصر أو إفريقيا ، والتأهب هناك للدفاع عن ملكه واستردادته مرة أخرى . لكن سرعة الوحف العباسي قضت على هذه الفكرة في مهدها . وقد حقق عبد الرحمن الأموي هذه الفكرة حين استطاع الحرب إلى الأندلس .

آبائه وأجداده وأن يفر من حملة الاضطهاد والتقتيل التي قام بها العباسيون .
إذ استطاع حفيد هشام ، الخليفة الأموي العاشر ، ويدعى عبد الرحمن انخلاص من
يد العباسيين القوية ، ووصل إلى أرض الأندلس في أقصى أطراف الدولة
الإسلامية في الغرب وأسس لنفسه دولة هناك مستقلة عن الدولة العباسية .

القراب الأصوى :

غربت شمس الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م ولكن خلفت وراءها
دفئاً ناعم به المسلمون قرونًا طويلة . إذ تولى الأمويون تدعيم دوحه الإسلام في حوض
البحر الأبيض المتوسط ، ووضع نواة حضارة المسلمين في تربة هذا البحر ، الذي
شاهد الحضارات التي عرفها العالم القديم . ونجح الأمويون في الإغلاء من شأن
الإسلام والمسلمين باتجاههم صوب البحر الأبيض المتوسط ، الذي كان قطب
الرحى في الأحداث العالمية ومحط أنظار كل دولة كبرى تبغى لنفسها مقامًا ساميًا
وعظمة خالدة .

وكان الأمويون يتحلون بخلق سكان البحر الأبيض المتوسط ، وهو بعد النظر
وما يتبعه من الاهتمام بالمستقبل والاستعداد له ، والمقدرة على إيجاد روح التعاون
والترابط وما يتطلبه ذلك من مثابرة وعزم صادق . وتجلت هذه الصفات التي
فطرت عليها نفوس بني أمية منذ عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، وتمسك
بها سائر آل بيته الذين تداولوا عرش الخلافة حتى زوالها عنهم . فأدرك معاوية
أن البحر الأبيض المتوسط هو الميدان الجدير بأن تتجه إليه قوى المسلمين لإعزاز
دولتهم الناشئة وحمايتها من الأخطار المفاجئة .

ورسم معاوية لخلفائه السياسة التي كفلت للمسلمين ودولتهم العزة والمنعة ،
وحققت لهم السيادة على غيرهم من الأقوام المجاورة لدولتهم . فكرس الأمويون
جهودهم لخلق بحرية إسلامية قوية دفعت عن أرض الإسلام أخطار البيزنطيين ،

الحدود المددود ، ومكنت المسلمين من التوسع على شواطئ البحر الأبيض المتوسط والاستيلاء على شمال إفريقيا . ولذا ما أن ظهر العباسيون ونقلوا حاضرتهم إلى بغداد حتى سارت البلاد الإسلامية في غرب الدولة على تراث القوة البحرية التي خلفها الأمويون في تلك الجهات (١) .

وهكذا حافظ الأمويون على الفتوحات والمجهورات التي بدأها الخلفاء الراشدون ، ثم تابعوا في نشاط رائع بسط رقعة الإسلام ولا سيما في حوض البحر الأبيض المتوسط . فتعدت شواطئ البحر الأبيض المتوسط الجنوبية أراضي إسلامية قضايا عن شواطئ الأندلس . ولم يكنف الأمويون بهذا السلطان الواسع ، وإنما بدأوا خطوة جعلت من البلاد التي وصل إليها الإسلام وحدة وثيقة العرى لانفصام لها معها تعاقبت الأزمان والأجيال . إذ بدأ عبد الملك بن مروان صبغ الدولة الإسلامية على عهده بالصبغة العربية ، وتابع ابنه الوليد سياسة تعريب مرافق البلاد حتى ظهر رباط اللغة العربية رويداً ، وبدأ يحيط أرض الإسلام بسياج قوى متين .

ووضع الأمويون بذلك أسس الثقافة العربية التي ألفت بين قلوب المسلمين في سائر البلاد وقربت من عقلياتهم ومشاعرهم وأحاسيسهم . فبعد أن قويت جذور اللغة العربية في سائر أنحاء الدولة الإسلامية غدا المسلم الذي يرتحل من أى بلد يجد في المكان الذي ينزل به إخوة له في الدين يستطيع أن يتفاهم معهم بلغة واحدة . ولذا نعم الرحالة المسلمون على عهد الدولة العباسية ببذور اللغة العربية التي غرسها بنو أمية في سائر البلاد التي استظلت على عهدهم براية الاسلام .

وخلف لنا أولئك الرحالة صوراً صادقة عن أحوال العالم الاسلامي ، من طبيعة بلاده الجغرافية ومزاج سكانه وتقاليدهم وطرق كسب معاشهم ، وذلك بفضل اللغة العربية التي أصبحت وسيلة التخاطب ، وهيأت للرحالة المسلمين سبل الدراسة الصحيحة لسائر مظاهر الحياة في البلاد الإسلامية . ولا أدل على قوة رباط اللغة

(١) تناول الدكتور حسين مؤنس في محاضرات الجمعية الملكية للدراسات التاريخية (مارس ١٩٥٣) بيان هذه المظاهر السالفة ، ومدى ما كان للأمويين من نشاط عظيم في ميدان البحر الأبيض المتوسط .

العربية من أنها غدت إلى جانب رباط الدين الاسلامي المظهر الذي أبقي على وحدة المسلمين في شتى أنحاء البلاد ، بعد أن زالت الوحدة السياسية بينهم وغدوا شعوبا وأقواما شتى . ومازال هذا المظهر الثقافي الذي وضع الأمويون نواته الأولى يلعب دوراً كبيراً في خلق لون من الوحدة السياسية بين دول المسلمين التي ظهرت على مر العصور حتى الوقت الحاضر .

وقد ترك الأمويون نموذجاً يتفق والعصر الذي نشأوا به عن ضم صفوف المسلمين سياسياً وتوجيههم ضد أي عدو يدهم أرضهم عامة . فكان أمام الدولة الأموية مهمة إعداد المسلمين لمحاربة البيزنطيين وصد عدوانهم المتكرر . ونجح الأمويون في تنسيق قوى مصر وشمال إفريقيا وأرض العراق مع القوات المركزية بالشام في الحملات الإسلامية الثلاثة التي حاصرت القسطنطينية . فكانت أساطيل مصر وشمال إفريقيا تتخذ قواعد لها في موانئ الشام ، على حين يتجمع العمال الأقباط من مصر في أرض الشام للمساهمة في الأعمال الحربية حسب ما تحتاجه السلطات الأموية .

وظل التعاون الحربي الذي حققه الخلفاء الأمويون بين بلاد الدولة الإسلامية المنهاج الذي جهد خلفاء الدولة العباسية على السير على هدية . وتفاوت قادة الدولة الإسلامية فيما بعد في المحافظة على هذا التآزر والتضامن باختلاف الملبسات والأوضاع الزمنية . وبقدر نجاح أولى الأمر في البلاد الإسلامية في إيجاد ضرب من التعاون الحربي بين بعضهم بعضاً بقدر ما كتب لهم من فوز واستقرار . فجهدت الدولة العباسية في عصرها الزاهر على إبقاء التعاون البحري بين مصر والشام وشمال إفريقيا . إذ أن الدولة البيزنطية جهدت على الإغارة على سواحل المسلمين المطلّة على البحر الأبيض المتوسط والاستفادة من ابتعاد بغداد عن هذا البحر .

وهكذا استطاع العباسيون بفضل الخطة البحرية التي آلت إليهم عن بني أمية الدفاع عن دولتهم وحمايتهم من أخطار البيزنطيين . ولكن الدولة العباسية لم تلبث أن تعرضت للتفكك السياسي ، وتفشّت فيها ظاهرة استقلال الولاة بما يديرونه من بلاد خلال العصر العباسي الثاني (منذ ٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م) ومن

ثم ضعفت الروابط بين الحكام الجدد ، وغدا التماون بينهما قاصراً على ما يمكن أن يحصل عليه كل منهما من عقد تحالف أو تضامن .

وقد تجنب الأمويون المصير الذي تردت فيه الدولة العباسية ، ولا سيما تفكسكها في أواخر أيامها ، بانتقاء العمال والولاة الذين تولوا تصريف شؤون البلاد الإسلامية . إذ كان العمال الأمويون نموذجاً عالياً للطاعة والإخلاص ، فلم يفكر أحدهم في الخروج على السلطة المركزية بدمشق أو الانفصال عن جسم الدولة في الأزمات التي تعرضت لها . إذ كان أولئك العمال أشبه بقناصل الدولة الرومانية وحكام الدولة البيزنطية على الأقاليم المختلفة . فاتصف عمال بني أمية كما اتصف أسلافهم من قناصل الرومان والبيزنطيين باحترام السلطة المركزية وتنفيذ أوامرها دون تردد أو إهمال .

وتجلت الظاهرة السالفة طوال العصر الأموي حتى نهايته . فسكان الحجاج بن يوسف الثقفي مثلاً جندياً كرس نفسه لخدمة البيت الأموي دون اعتبار للوسائل التي تدرع بها لتحقيق هذا الهدف . إذ أخذ ثورة عبد الله بن الزبير بالحجاز في غير هوادة أولي ، وبعد أن فرغ منها امتثل لأمر الخليفة عبد الملك بن مروان وانتقل إلى إقليم العراق حيث تولى نشر الهدوء والاستقرار في ربوعه . ولم يظهر الحجاج ضجراً في نقله من ميدان إلى ميدان ، وإنما ظل عاملاً مخلصاً أميناً . فسكان يبعث إلى دمشق خيرة الشعراء والعلماء الذين علا كعبهم في إقليم العراق ، واستنفاذ الخليفة عبد الملك من بعض هؤلاء العلماء مثل عامر بن سراحيل الشعبي الذي أوفده سفيراً إلى بلاط الدولة البيزنطية .

وكان موسى بن نصير عامل الأمويين على شمال إفريقيا مثلاً آخر لطاعة الولاة للسلطة المركزية . فبعد أن أتم موسى إخضاع شمال إفريقيا وقطع شوطاً كبيراً في فتح الأندلس استدعاه الخليفة الوليد إلى دمشق . ورغم أن الموقف الحرجي في بلاد الأندلس كان يستدعي بقاء موسى بن نصير واستمراره في عملية الفتح فإنه أسرع بالذهاب إلى العاصمة في الشام ومعه كثير من الهدايا والتحف للخليفة . واستهدف الوليد من استدعاء موسى خوفه من اتساع نفوذه ، ولسكن

موسى ظل خاضعاً لمشيئة بنى أمية ، ولا سيما بعد أن منعه سليمان ، خليفة الوليد من العودة إلى مقر ولايته بالمغرب .

وإذا كان الحجاج وموسى بن نصير نموذجين لارتباط العمال الأمويين بالخلقاء في دمشق إبان مجد الدولة الأموية فإن نصر بن سيار يصتبر خير مثال لإخلاص عمال بنى أمية ساعة المحنة والخطوب . وكان نصر بن سيار عاملاً هلي خراسان التي بدأت منها الشرارة التي أطاحت بالدولة الأموية . وظل يرقب بعين ساهرة تطور الموقف في خراسان ويبلغ الخليفة مروان الثاني بانتظام أنباء الثوار وحركاتهم . وعندما اضطر أن يغادر مروان حاضرة خراسان أمام ضغط وهجمات أبو مسلم الخراساني بعث نداءً مؤثراً إلى الخليفة ، ظلت أصداؤه تدوى على مر العصور^(١) . وكان باستطاعة نصر بن سيار أن ينضم إلى أنصار الدعوة الجديدة والتي بدا أن نصرها مؤكداً ، ولكنه ظل على ولائه يؤدي واجبه مهما كانت النتائج والعواقب .

وهكذا كانت الأسس والنماذج التي وضعها خلفاء بنى أمية وعمالهم قوية راسخة الأوتاد ، هيأت لدولة الإسلام مكاناً عالياً في عالم العصور الوسطى ، وكفلت لها إسمًا خالدًا لا يفنى . إذ اقترن تاريخ المسلمين بالبحر الأبيض المتوسط مهد الحضارات القديمة وعصب الحياة في العالم القديم . فأصبحت شواطئه تذخر بالشعوب الإسلامية ومظاهر حضارتها ، ومياهه تنفص بالسفن الإسلامية ونشاطها . وقد آذن هذا المظهر الجديد بعهد حري أن يذكره المسلمون بأن البحر الأبيض المتوسط غدا فيه بحيرة إسلامية .

(١) ظلت آيات الشعر التي بعث بها نصر بن سيار إلى مروان الثاني نموذجاً تردده الألسن كلها واجهت الدول فتناً أو مشاكل . ومن هذه الآيات قوله :

أرى بين الرماد وهيب جمر : ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكي : وأت الحرب أولها الكلام
أقول من التعجب ليت شعري : أأقباط أمية أم نيام

المراجع

- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ (بولاق)
البكري ، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (باريس ١٩١٢)
البلاذري ، فتوح البلدان (القاهرة ١٩٠١ م)
أبو الحسن ، النجوم الزاهرة (ليدن ١٨٥١ م)
جرير ، ديوان جرير (مصر ١٣١٣ هـ)
حسين مؤنس ، فتح العرب المغرب (١٩٤٧ م)
ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدا والخبر (القاهرة)
ابن رسته ، كتاب الأعلام النفيسة (ليدن ١٨٩١)
السلوى ، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى
ابن طباطبا ، الفخرى في الآداب السلطانية (مصر ١٣١٧ هـ)
الطبري ، تاريخ الأمم والملوك (القاهرة ١٣٢٦ هـ)
ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب (ليدن ١٩٢٠)
ابن عبد ربه ، العقد الفريد (القاهرة)
عبد الرحمن بدوي ، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية (١٩٤٠)
العدوي ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية (١٩٥١)
ابن غداري ، البيان المغرب في أخبار المغرب (ليدن ١٨٤٨)
ابن العربي ، تاريخ مختصر الدول (بيروت ١٨٩٠)
ابن عساكر ، التاريخ الكبير (١٩٢٩)
ابن الفراء ، كتاب رسل الملوك (القاهرة ١٩٤٧ م)
فردريك بيك ، تاريخ شرق الأردن وقبائلها (تعريب بهاء الدين
طوقان ١٩٣٤)

فيليب حتى ، تاريخ العرب (ترجمة محمد مبروك نافع)

قدامة بن جعفر ، نبذة من كتاب الخراج (ليدن)

القلقشندي ، صبح الأعشا في صناعة الإنشا (القاهرة ١٩٢٢ م)

كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب العربية (نقلة إلى العربية نبيه فارس ومفهر

البعليكي — بيروت ١٩٤٨)

كرد علي ، خطط الشام (دمشق ١٩٢٥)

المالكي ، رياض النفوس (نشر الدكتور حسين مؤنس)

محمد مبروك نافع ، عصر ما قبل الاسلام (١٩٤٨)

المسعودي ، مروج الذهب ومساكن الجواهر (القاهرة ١٢٨٣ هـ)

التنبيه والاشراف (مصر ١٩٣٨)

المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن)

المقرئزي ، كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم

(ليدن ١٨٨٨)

نلدكة ، أمراء غسان (ترجمة بندلي جوزي ، وقسطنطين زريق —

بيروت ١٩٣٣)

الهمداني ، صفة جزيرة العرب (ليدن ١٨٨٤)

ياقوت ، معجم البلدان (القاهرة ١٩٠٧)

Arculf,

The pilgrimage of Arculf in the Holly Land (Trans. by
Mac. pherson-London 1889)

Baynes, N. H.

The Byzantine Empire « London 1925 »,
Byzantium (Ed. Byanes — 1948.)

Bell, H.I.,

The Aphrodito Papyri (Der Islam)

Bréhier, L.,

Vie et Mort de Byzance (Paris 1949).

Browne E. G.,

A Literary History of Persia (London 1920).

Bury, J. B.,

A Histry of the later Roman Empire (London. 1889,1931)

Charlesworth, M. P.,

Trade Routes and Commerce of the Roman Empire (1926)

Cheira, M. A.,

La Lutte entre Arabes et Byzantins (1947)

Daussaud, R.,

Les Arabes en Syrie avant L'Islam (1907)

De Lacy O'Leary,

Arabia before Muhammed (1927)

Diehl, ch.,

L' Afrique Byzantine (1896)

Encyc. of Islam.

Feddani R., Syria (1947)

Finlay , History of Greece (1877)

Fournel, H., Etude sur la Conquête de L'Afrique Par Les Arabes

Grant, C.P.,

The Syrian desert (1938)

Hamidullah, M.,

Muslim Conduct of State (1945)

Hill. J.,

Die Kultur der Araber (Leipzig 1919)

Hell. G.,

A History of Cyprus (1940)

Hitti, P. K.,

History of Syria (1951)

Kammerer, A.,

Petar et la Nabatine (Paris 1929)

Khuda-Bukhsh,

Islamic Civilisation (1930)

Kremer

Orient under the Caliphs (Trans-by Khuda-Bukhsh-1920)

Lammens, P.H.,

L'Arabie Occidentale avant L'Hegire (1928)

Etudes sur le régime du Calife Mo'awia Ier (1908)

La Syrie (1921)

Laurent, J.,

L'Arménie Entre Byzance et L' Islam (1919).

Le Styange, G.,

Palestine under the Moslems (1890)

The Lands of the Eastern Calphate (1930)

Mercier, F.

Histoire de L'Afrique Septentrionale (1888)

Mommsen, T.,

The Provinces of the Roman Empire (1909)

Muir , W.,

The Caliphate (1951)

The Life of Mohamad (1912)

Nabia Abbot,

The Kurrah Papyri

Oman, ch.,

A History of the War in the Middle Ages (1924)

Runciman, S.,

Byzantine Civilisation (1933)

Semple, E.C.,

The Geography of the Mediterranean Region (1932)

Vasiliev,

Histoire de L'Empire Byzantin

Byzance et Les Arabes (1935)

Wellhausen, J.,

The Arab Kingdom and its Fall (1927)

الفهرس

صفحة

ج

٤٥ — ١

مقدمة الكتاب

الفصل الأول

مهد الخلافة الأموية ورحلة الصيف

١٦ — ١

عرب الشام قبل الإسلام

١

الشام على عهد البيزنطيين

٨

القبائل العربية في الشام البيزنطى

٣٢ — ١٧

بفوامية ورحلة الصيف

٤٥ — ٣٣

قيام البيت الأموى في الشام

١١٩ — ٤٦

الفصل الثانى

معاوية قاهر البيزنطيين

٧٢ — ٤٦

المرحلة الأولى في الجهاد الأموى ضد البيزنطيين

٤٦

استيلاء معاوية على منطقة الشام الساحلية

٥٤

أداة الجهاد ضد البيزنطيين

٦٥

الصحوة البيزنطية على عهد قنسطانز الثانى

١١٩ — ٧٣

معاوية والبيزنطيون في شرق البحر الأبيض المتوسط

٧٣

سياسة معاوية البحرية

٨٠

فتح قبرص

٨٦

الإغارات الإسلامية على الجزر البيزنطية

٩٢

ذات الصوارى

١٠٠

مناطق التخوم

صفحة

١٠٨	المرقة أو الجراجمة
١١٢	الاستيلاء على أرمينيا
١٢٠ — ١٩٢	الفصل الثالث
	دمشق والقسطنطينية
١٢٠ — ١٥٣	أسس نمو المدن وازدهارها
١٢٠	أوضاع المدن
١٢٣	دمشق — قبلة سفن الصحراء
١٣٠	دمشق الأموية
١٣٩	نشأة القسطنطينية
١٤٥	القسطنطينية البيزنطية
١٥٤ — ١٧٠	معاوية والقسطنطينية
١٥٤	فتى العرب وحصار القسطنطينية
١٥٨	خط الدفاع البيزنطى عن القسطنطينية
١٦٤	حرب السنوات السبع
١٦٧	الفار البحرية
١٧١ — ١٨٠	بنو مروان والقسطنطينية
١٧١	تدعيم البيت الأموى
١٧٤	عبد الملك بن مروان وجستنيان الثانى
١٧٧	استئناف الجهاد ضد البيزنطيين
١٨١ — ١٩٢	الحصار الثالث للقسطنطينية
١٨١	الاستعدادات الإسلامية والبيزنطية
١٨٥	سير الحملة الإسلامية

مستندة

١٨٨	الحصار الإسلامي
١٩٣ — ٢٣٣	الفصل الرابع
	استيلاء الأمويين على شمال إفريقيا
	وإقصاء البيزنطيين
١٩٣ — ٢٠٠	المغرب قبل العصر الأموي
١٩٣	إفريقية البيزنطية
١٩٦	طلائع الفتح الإسلامي
٢٠١ — ٢٠٧	معاوية بن أبي سفيان والمغرب
٢٠١	حملة معاوية بن حديج
٢٠٤	حملة عقبة بن نافع الأولى
٢٠٨ — ٢١٨	التحالف البيزنطي البربري
٢٠٨	حملة دينار أبو المهاجر
٢١١	حملة عقبة بن نافع الثانية
٢١٣	حملة زهير بن قيس البلوي
٢١٩ — ٢٣٣	زوال النفوذ البيزنطي وتنام الفتح الإسلامي
٢١٩	حملة حسان بن النعمان
٢٢٢	ثورة الكاهنة
٢٢٦	نهاية البيزنطيين
٢٣٠	الجناح الأيسر لدولة الإسلام
٢٣٤ — ٢٧٦	الفصل الخامس
	التجاوب الحضاري بين الدولتين الأموية والبيزنطية
٢٣٤ — ٢٤٢	التراث الأموي في نظم الأمويين الإدارية

صفحة

٢٣٤	إدارة الأقاليم
٢٣٩	العمارة والفنون
٢٤٣ — ٢٤٨	الاتصال الثقافي
٢٤٩ — ٢٥٧	الاتصالات الدبلوماسية
٢٥٨ — ٢٦٤	السياسة الدينية
٢٦٥ — ٢٧٦	التراث الأموي في الحضارة الإسلامية
٢٦٥	سقوط الدولة الأموية
٢٧٢	التراث الأموي
٢٧٧ — ٢٨٠	المراجع
٢٨١ — ٢٨٣	الفهرس
	المخرائط والمداول
١٣١	١ — خريطة الدولة الأموية وشرق البحر الأبيض المتوسط
١٤١	٢ — خريطة للقسطنطينية
٢٦٧	٣ — جدول يمثل أبناء البيت الأموي
	تمهيد عن الكتاب بالإنجليزية

[تم طبع كتاب « الأمويون والبيزنطيون » في مطبعة
لجنة البيان العربي بالقاهرة في يوم الاثنين ٦ من شعبان سنة
١٣٧٢ هـ (الموافق ٢٠ من أبريل سنة ١٩٥٣ م) . والحمد لله
أولاً وآخراً .]

سند محفوظ

المدير الفني للمطبعة

However in spite of the war between the Omayyads and Byzantines they exchanged diplomatic missions, and the Omayyads, especially, did not hesitate to make use of the Byzantine artists and their methods of work. Therefore the Omayyads were able to lay the solid foundation of the Islamic Empire and its civilisation. They achieved their role with Success because they had officials of Mediterranean mentality. They were like the consuls and prefects of the Roman and Byzantine Empires, and showed no interest in self-government during the decline of the Omayyad dynasty.

The Omayyad dynasty was thus able to leave a heritage, which gave the Muslims cultural unity, and also examples of political unity. These models are of great value to Modern Muslim States nowadays, and may help them to take part in the contribution to the world affairs to-day.

1. A. El-Adawi

Explanatory Note

The Omayyads and Byzantines The Mediterranean an Islamic Lake

The rise of the Omayyad dynasty to the Caliphate after the great wave of Islamic conquests (which began during the reign of the Orthodox Caliphs in the seventh century A. D.), was an important factor in building the Islamic Empire and its civilisation during the Middle Ages. The Omayyad Caliphs succeeded to give Islam and its world a predominant status because they realised at a very early time that the strategic position of the Mediterranean was the basis of any great power, and began to use it for the benefit of Islam.

Therefore I surveyed in this essay the early political activities of the Omayyad clan in Arabia, and their commercial intercourse with Syria, which became the centre of their power. The Omayyads were able to study the different aspects of the political and economic life of Syria, and knew the best methods of securing the loyalty of its people.

The basis of the Omayyad policy concerning the Mediterranean was laid since 'Mo'awiya' was nominated governor «wali» of Syria. He began to build a navy to put an end to the Byzantine raids on Muslim lands, and to deprive them later from their sea basis in the islands of the Aegean Sea. He conquered Cyprus, and defeated the Byzantine navy in the battle of 'Zat al Sawary', which proved a decisive battle in the history of the Mediterranean. It terminated the age in which the Romans and Byzantines called the Mediterranean '*Mare Nostrum*'.

When Mo'awiya became caliph he pressed home his Mediterranean policy, and continued his raids on the Byzantine islands in the Mediterranean. He despatched two great expeditions against Constantinople, which formed the resistance of the early Muslim sea-power. After the death of Mo'awiya, his successors had a well organised plan which they intended to follow. They expanded the lands of the Muslims all along the Mediterranean, drove the Byzantines from North Africa and conquered the southern parts of Spain.

THE OMAYYADS &

BYZANTINES

The Mediterranean an Islamic Lake

By

Dr. Ibrahim Ahmed EL-Adawi

B. A. Hon. (Cairo)

Ph. D. (Liverpool)

Lecturer in Mediaeval History

University of Cairo

Published by
The Anglo-Egyptian Bookshop

El-Bayan El-Arabi Press